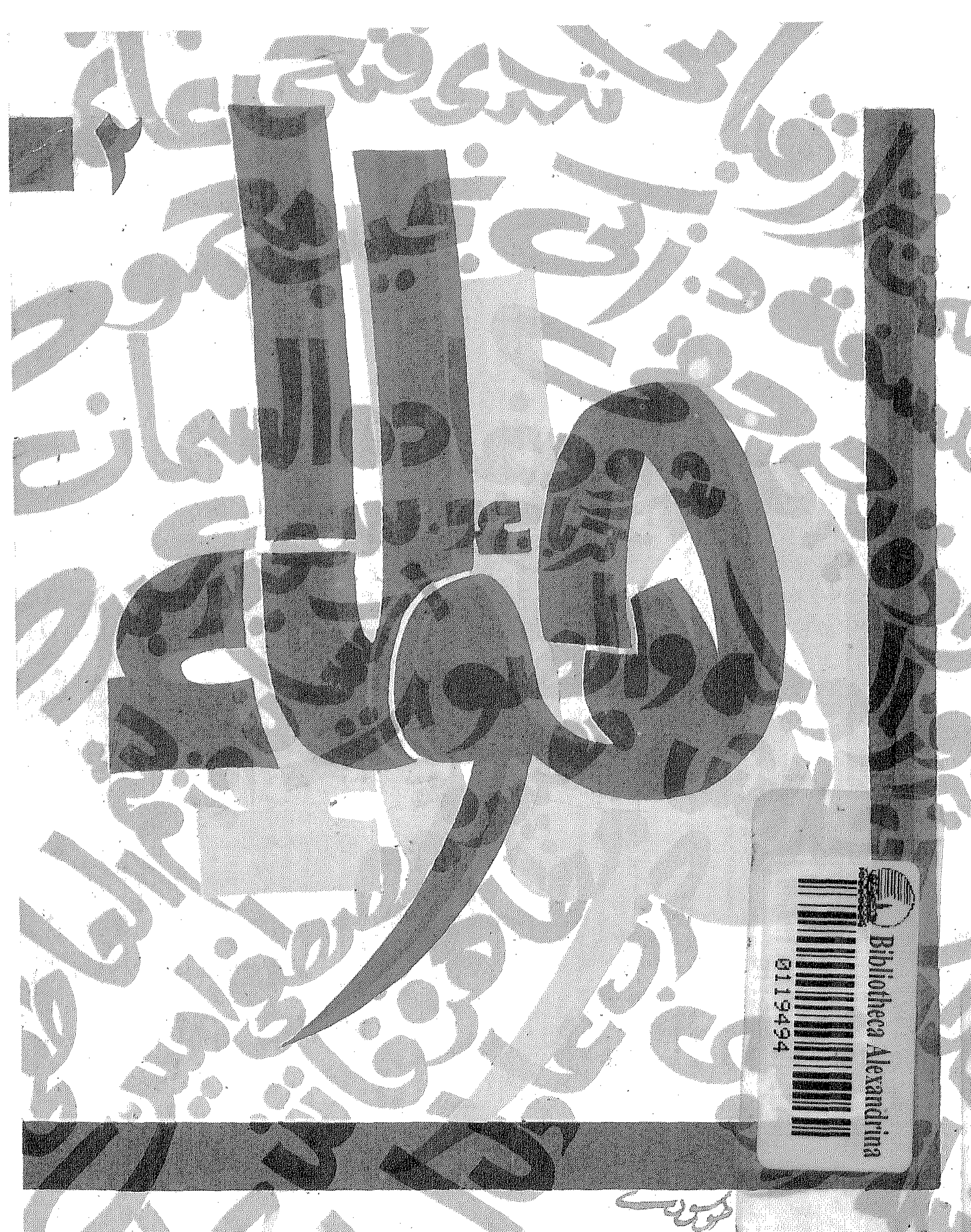


حاورهم.. مفيد فوزي

هــــــؤلاء

حاورهم مفيد فوزى

■ ٢ ■



إدارة الكتب والمكتبات

الأخراج الفنى : عماد المصرى

تنفيذ الغلاف : الفنان طوسون

الرسوم الداخلية : محمد عفت

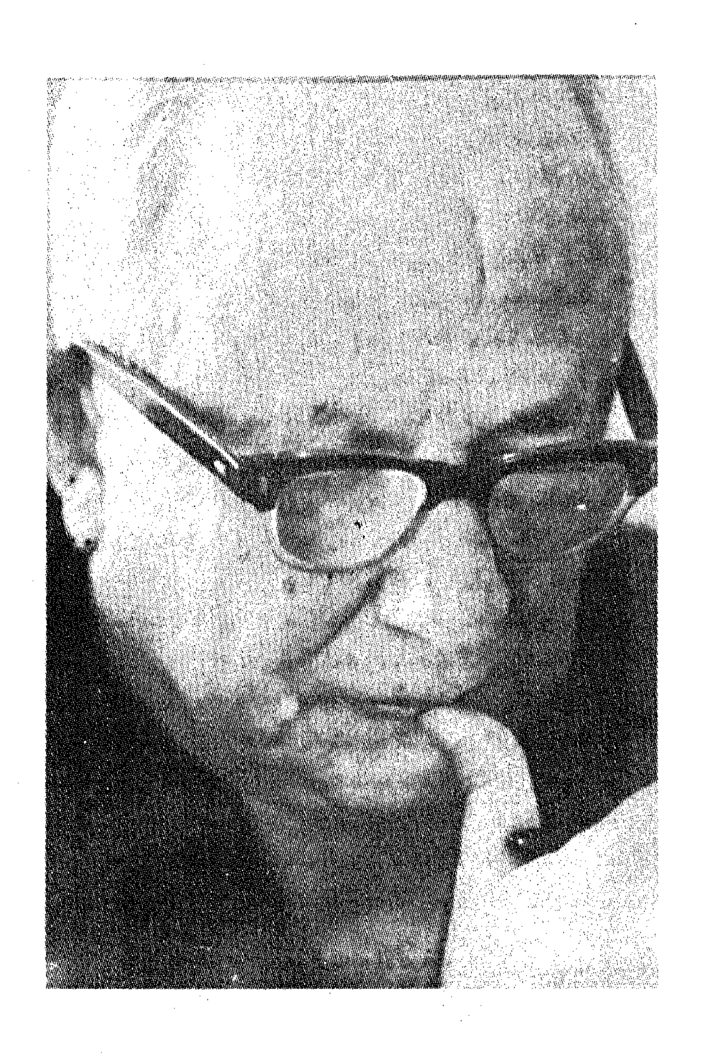
٢- هؤلاء حاورهم مفيد فوزى

إهداء

إلى مجلس قرائي الصغير
قارئتي الأولى (آمال العمده) وقارئتي
الثانية هناء مفيد فوزي
وأعتذر لها عن كل فترة غياب، أخذتني
فيها الإبحار في النفوس البشرية التي
صارت حوارات سجلت صفحات
هذا الكتاب!
نعم، الحوار عندي قصة حب، فيها الموعد
واللقاء، والمواجهة، والرعشة
والرغبة في لقاء آخر، أو الصد والجفاء!

مفيد فوزي
خريف ٩٢

فى الأدب
والفن أبحرت !



الارادة أفضل الفضائل

يحيى حقى

« .. سأموت يوما ، وأنا مستور ، وهذا يكفينى ! »

من الآخرين ، عرفت « الاصفاء الجاف » ، ومنه .. عرفت بل عشقت « الاصفاء الحنون » ! وفي ذهني مثل صيني يقول الاصغاء الجيد ، حديث جيد !

له في نفسي مكانة خاصة ، ربما لسبب شخصي بحت ، فضلا عن مكانته المرموقة في شارع الأدب ، وتميزه الخاص جدا في « عطفة » القصة . أما ذلك السبب الشخصي فهو انني أذكر جيدا عندما قابلته في فجر حياتي العملية ، محاورا . أيامها لم أكن أحمل شيئا سوى قلم حبر . وكان يجيب على أسئلتي وهو يذكر اسمي « المتواضع » . فكان رنين اسمي على اذني يمس شغاف نفسي ويداعب أوتار غروري المبكر !

الكاتب الفنان : يحيى حقي ، ومن سواه ؟!

حين جلست إليه منذ أيام أحاوره . صمت وقال : أنت تطلب مني أن أتحدث عن نفسي . يا لها من لذة ساحرة تواضعها زائف ! على أي حال ، صورتي .. هي جلسة أمام فوتوغرافي محترف .. يسلط على أضواء أعشى لها ، وقد أعوج رقبتي لكي تعتدل في نظره وربما ابتسم بلا سبب . أما صورتي في هذه الأحاديث فهي مأخوذة كما ترى خطفا ، أحيانا وأنا في مباذلي ، فهي أصدق !

□ **كـاتـب « خليـها على الله » يحيى حـقى**

وقلت ليحيى حقى ، ربما لاغرائه أكثر على الحديث « تبدو سعيدا » .

قال « لا ولوج إلى ساحة السعادة ـ فى اعتقادى ـ إلا من أحد أبواب ثلاثة : الايمان ، والفن .. والحب . لا شىء يشع بها مثل الخشوع الذى أراه فى المعابد . وإذا كان الحب هو أكثرها التصاقا بالصلصال وبالزمان والمكان والصدف ، فإنه شرط ارتفاع الانسان عن مرتبة الحيوان ، وكان الايمان أكثرها طموحا لأنه يطلب الله لا الناس . الخلود فى الآخرة لا العبور فى الدنيا . وسيبقى بعد هذا ، الفن وسطا جامعا للطرفين ويا لها من منزلة ! » .

وقلت ليحيى حقى وهو يعطينى اصغاء حنونا ويضع يده على اذنه ليلتقط كل ما أقوله وكأنى أنطق الدرر ..

لست أدرى لماذا أشعر انك أب للقصة ، فأنت تحنو عليها وترعاها ونحس جميعا بأبوتك لها وأنت رجل عزوف لأنك فنان حقيقى . ولهب الفن لا يغيب عن محرابك ويعجبنى قولك : اننى ممن يدخلون معبد الفن من أشد أبوابه ضيقا ، ولهذا كنت من المقلين ، أسمعهم أحيانا يعيبون هذا على كأنهم يطلبون منى أن أكون من المدلسين وأنا يكفينى الصدق . وأحس ـ إذا أذنت لى ـ ان القصة عندك ليست ترفا شعوريا ، إنما غاية . والغاية هى الاعلاء من شأن الارادة وجعلها أساسا . فأنت ترى ان الارادة أساس لكل الفضائل . يستوقفنى هذا المعنى كثيرا .

ويتسلل صوت يحيى حقى بنعومة وبأبوة ليقول « صدقنى يا مفيد ان العالم عندى معركة ولابد لنا من خوض هذه المعركة بسلاح الارادة ! » .

وحين قلت : كيف كنت دبلوماسيا ، يوما ما ، ولم تستخدم سلاح الدبلوماسية فى معركة الحياة ؟

ضحك وقال : ما كنت دبلوماسيا فى نقدى ، أو عرضى للتجارب الفنية . أطلق ما شئت عليها من أوصاف . قل أمانة ، قل ما شئت لكنى أقول ما أحس وما أرى ، وأجرى على الله !

أقول ليحيى حقى : تبدو كالنهر العظيم عند المصب . ورؤيتك لأعمالك عبر التدفق .. تثير فيك الشجن ، أليس كذلك ؟

ـ يقول يحيى حقى بصوت فيه ارتعاشة التواضع الجم : قولك كالنهر لحظة المصب تزيد أشجانى لاجدال . ولكن هل يليق للكاتب أن يتحدث عن أعماله . انا لا أريد أن أستعمل الكلمات الطنانة وأقول ان مبادئى ترفض ذلك . انما أقول ان حساسيتى تنزعج وتضج من ذلك . ومع ذلك استجيب ـ رغما عنى ـ لطلبك ومن يدرى ، ربما صار ما أقوله الآن مرجعا .. حين أسكن التاريخ . نحن مهتمون فيما أتصور بتاريخ أدبنا الحديث ، ويجب فى نظرى أن يستمر البحث ولا يكف . ولكن مما يحزننى اننا ننشغل بأنفسنا حتى يسقط منا سهوا ما هو غال ! هل تسمع عن اسماعيل مظهر ؟ اسماعيل مظهر الذى كان رئيسا لمجلة العصور . الذى كتب القاموس الانجليزى العربى . الذى كان من أوائل المنادين باتخاذ النظرة العقلانية فى أمور حياتنا . هل يتذكر أحد اسماعيل مظهر ؟ هل يعرفه الشباب ؟ هذه سيرة تعتبر من القمم الأدبية الكبيرة ولا أحد يدرى حتى .. أنت ! هل سمعت عن « حسن محمود » الذى كان لصيقا بطه حسين ، وكان مديرا المكتبة الجامعة ورئيسا

لتحرير مجلة الكاتب المصرى . لقد أشدت مرارا وتكرارا بقصة له اسمها « الجدة الصغيرة » تعتبر فى نظرى من روائع الأدب الحديث . هل سمعت عن « وسيم خالد » الذى كتب عن تجاربه فى الجهاد ، ووصف لنا ، كيف أمسك بالمسدس لأول مرة ، ومعنى الحوار بالكلمات ، ومعنى الحوار .. بالرصاص ! على أى حال عزائى اننى ذكرت أسماء هؤلاء فى كتابى « فجر القصة المصرية » فصارت أسماؤهم تتداول فى كتب النقد . تكلمت عن مصطفى عبد الرازق فى عطر الأحباب . ومازلت أراه قيمة أدبية ومازلت أناشد النقاد الجادين : هذا أول الخيط ، خذوه واتبعوه وادرسوا مصطفى عبد الرازق لأنه لا أحد يعرفه من بين كتاب القصة . لقد سئمت الكلاشيهات ليس من المعقول ان يقول انسان بشكل تقليدى كأنه كلاشيه محفوظ (اقرأ لطه حسين وتوفيق الحكيم ونجيب محفوظ) . نحن محتاجون لهذه « الحفريات الأدبية » وحديثى هذا ، بمثابة شهادة .

تعب يحيى حقى من الاستطراد المشحون بالحماس . ولم أشأ أن أقاطعه . بيد انه عاد يقاطعنى ، وكأنه أمسك بخيط . مازال يشده من ذهنه المتوقد ، رغم العمر ، ورغم الرأس البيضاء ورغم شكوى الجسد وان لم يفصح عن الشكوى !

قال يحيى حقى فى أوربا ـ يا مفيد ـ هذه الشهادات كثيرة جدا . إما عن طريق الكتاب . المؤلف يكتب كتابا أو يدلى بحديث طويل طويل للصحفى ، يستجوبه . خذ مثلا : الموت فى فينسيا لتوماس مان . ليس العبرة فى هذه القصة انه راح لفينسيا والطاعون ومات الولد . لا . هذا الكتاب يعبر عن كاتب أحس فى يوم من الأيام ، انه يكتب كلاما مرصوصا لا يعبر عن أعماقه وشعر انه هبط الى مستوى نفاق القراء . وقرر فى لحظة الا يخدعهم . فكيف يواجه هذا المأزق . ذهب الى فينسيا وواجه الطاعون وانتحر ! وخذ مثلا آخر ، لقصته « تونيو تروجر » لقد أعجبتنى فترجمتها . انها صورة لمعاناة الفنان فى الحياة الاجتماعية . الشاعر ، كيف يعامل الناس ، وكيف يعاملونه . ليس فى الكتاب حدوتة ، ولكن هناك وصف رائع لمعاناة انسان وصدماته !

قلت ليحيى حقى : جئت أسأل النهر عن (أعماله الأدبية) فراح يعدد لى أعمال الآخرين !

قال وهو يبتسم : حديثى عن الآخرين ، بمثابة الشهادة . ومن يدرى ، ربما كنت أقاوم الحديث عن نفسى . ومع ذلك أنا يا سيدى ـ فى لحظة المصب كما قلت ـ اعترف ان لى ١٦ كتابا لو جمعتها معا لما زاد حجمها عن حجم جزء واحد من الثلاثية . ولقد ظهرت هذه الكتب فى طبعات رخيصة .. وتلقى بعد القراءة على الأرصفة وعزائى انها قرئت ، ثم تجمع . فكان من النادر أن تدخل مكتبة ، نعم أعترف لك انك لا تجد لى كتابا فى مكتبة . ليس مثل هذه الكتب ما يمكن ان يسمى كتاب رف لمكتبة !

هل تتصور اننى عانيت فى النشر كثيرا ؟!

ألقى لى يحيى حقى باعتراف ، فما كان منى إلا ان قلت « عد الى الوراء بذاكرتك » .

فقال : كنت أراسل الصحف بالبريد . وكنت بعيدا عن العاصمة . نشروا أغلب

قصصى قبل أن يرونى . كنت أضع فيها عصارة قلبى ، وأدفعها فى صندوق بريد كالح . لكنى كنت أقرؤها بمتعة . وحين جئت أطبع أول كتاب « قنديل أم هاشم » وجدت صعوبة كبيرة . وظللت أحمله وأطوف به .. حتى شعرت ان الكتاب قد تعذب ، وبدأ يشكو كثرة الطواف به .. وعذاب المرور على الناشرين . وكاد يتركنى ، اذهب وحدى دونه !! لولا ان الدكتور طه حسين كان يعرفنى وكان يشرف على دار المعارف وصديقى محمود شاكر ، تضامن مع طه حسين ، وقلما يتضامن .. وأوصى بى خيرا وأخيرا قبلوا طبع الكتاب . وربما شعرت ان الصفحات كانت « تزغرد » وهى فى طريقها الى المطبعة !

أعترف لك ولشبان الجيل الذى لم يعرفنى بعد . اننى كنت أرسل للناشر ، مسودات قصصى ، وكنت اكتشف انه يختصرها للنصف ! ومازال عندى مادة للكتابة . فهل يمهلنى العمر . لا ادرى ! لكن الواقع – وأنا أعترف لك ولشبان الجيل الذى لم يعرفنى بعد – أجد نفسى أعبر عن حزنى الشديد لما تعرضت له كتبى من اعتداء !

قلت همسا : اعتداء ؟! تقصد سرقة . اعادة نشر دون علمك ؟

قال بأسى : ليت الاعتداء كان كذلك ! لكنه اعتداء من المصححين . خرج معظم ما كتبت مشوها . وهذه نكبة لتراثى الأدبى الذى لم يسلم منه إلا جزء يسير جدا .

قلت ليحيى حقى : كتبت مرة تقول انك تضيق بشدة عندما يقول أحد ان القصة مجرد حادثة جنائية . والحقيقة انه لا علاقة بين القصة والحادثة الجنائية .

قال النهر : القصة عندى ، موقف . لحظة . تأمل . شعور .

قلت : والقصة عندك « وعاء فكرى » ؟

قال بسرعة : أرجوك احمنى من الكلمات الطنانة . فأنا انسان وبى ضعف ! ربما قصدت اهتمامى باللغة . وأنا أعترف لك فى لحظة لا يستحب معها إلا الاعتراف بمثابة الشهادة اننى فى قصصى – يا مفيد – أردت أن أحول الاسلوب العربى من الزخارف والزيادات والرنين وأشياء أخرى من هذا القبيل الى التزام الدقة المتناهية بحيث لا تستطيع أن تستبدل كلمة بأخرى أبدا لانك أنت ككاتب بالمعنى لا بالكلام . انتهز فرصة حوارى معك لأقول للكتاب الناشئين : راعوا المعنى لا الكلام . لأى كاتب يحاول السباحة فى بحر الكتابة أنصحه « ماتكتبش ببقك » !! أريد أن أقول ان الرنين والبلاغة اللغوية خطر ، مطلوب ان يجدوا المعنى ، فيجب الا يكونوا خاضعين لسيطرة الرنين والجرس . اننى أحيانا أسرح وأتأمل . وأفكر ! لقد ثبت علميا كما تعرف أن أوتار الحنجرة لا تكف عن العمل حتى ونحن صامتون نفكر . ومن المؤلم فى تاريخ الانسان على الأرض انه لا يستطيع أن يفكر إلا من خلال لغة ، كان الأمل ان يتجاوز الفكر .. اللغة ! ان اللغة قيود .. هى التى حبستنا فى قفصها ! هل يحبس الفكر داخل القاموس ؟ اننا نفصل بين الأوتار والاذن . أنا أقول لألم الموضوع ، فلنلتزم بالمعنى ، وبعد ذلك سيأتى الجرس الموسيقى على مهل !

قلت ليحيى حقى .. كيف أحاورك وأنسى ترجماتك ؟! لقد سبحت فى بحار الترجمة كثيرا .. ووصلت الى شواطئها !

قال : بالقطع ، لن تنسى . وربما يسقط منك ذلك سهوا . وإذا نسيت سوف أغضب لماذا ؟ لأن الترجمة فى رأيى ، خدمة للغة العربية . الترجمة نافذة . رؤية ، وممارسة للغة . أحيانا وأنا أبحث عن المعنى الذى يطابق الكلمة الانجليزية ، أخبط رأسى فى الحيط . انه الالتزام .. لا التدليس على القارىء . ولعل أسوأ ما نعانيه الآن ، هو هذه المترجمات الركيكة ! وأعترف لك ان ترجماتى ايضا ، فتافيت . ماذا افعل ؟ الدنيا ظروف !

□ الارادة أم الفضـــائل

قلت ليحيى حقى وأنا أركب موجة اعترافاته ان صح التعبير:

لماذا لم يكتب يحيى حقى رواية طويلة. هل نفسك فى القصة قصير؟

ضحك يحيى حقى ، وأسند رأسه ، وقال :

لم يحدث لى أن كتبت شعرا ـ يامفيد ـ ولم يحدث أن كتبت رواية طويلة ! حتى « صح النوم » مجموعة لوحات .. لأن الانسان يجب أن يلتزم الصدق . يخيل الى وأنا أفكر معك بصوت عال ، ان ميلى بالغريزة ليس إلا قص حكاية ربما أجد فى هذا عملا غير مرن . قد أضيق بالتفاصيل . من يقول لى انه نزل من المحطة وشال الشنطة وخرج من المحطة ونادى سواق تاكسى و .. و .. هذه أشياء أضيق بها للغاية . أنا أحب وصف الشخص ووصف المكان . أنا تحولت من القصة القصيرة لكتابة ما أسميه اللوحات لكى تكون عندى حرية التعبير دون أن أكون مقيدا بحكاية وتفاصيلها ! أنقد نفسى بنفسى . بيدى لا بيد عمرو !

يحيى حقى، يتهمونك فى الوسط الأدبى انك ناقد تأثرى!

رد بسرعة : لا مانع . دعهم يتهموننى . أنا لا أستطيع ان افصل فى هذا الموضوع لأنى لم أدرس النقد فى الجامعة ، ولا تحتوى مقالاتى النقدية على مصطلحات علمية من تلك التى اصطلح عليها النقاد . أنا أعتبر النقد عملا أدبيا . النقد عمل أدبى ينبغى أن يقرأ بلذة . النقد ليس صنعة وليس محاضرة . الذى يريد أن ينصفنى يقرأ « خطوات فى النقد » يجدنى أقول : لا لزوم لأن أتقيد بمذهب واحد فى النقد . البعض يقولك : لا .. لازم ! أنا أزعم أن الكتاب هو الذى يقود الناقد إلى المدخل الذى ينقد به .

قلت : الدارس لأدبك .. سيقول انك « تمجد » قيمة الارادة . وان من يتعرض لقصصك بتجسيدها للسينما أو التليفزيون لابد وأن « يسيد » هذه القيمة ..

قال يحيى حقى .. حرصت ان أحذر من فضيلة سلبية . عندما يقولون فلان هذا رجل طيب . ماذا يقصدون بالطيبة ؟ هل هى الضعف ؟ هل هى الغفلة ؟ هذه ليست فضيلة ! ربما كانت الطيبة نتيجة انك رجل لا إرادة لك . ومن هنا ، أرى ان الارادة أم الفضائل وأفضلها . وتتبع هذا فى قصصى « نهاية الشيخ مصطفى » و« أم العواجز » و« السلحفاة » ! اننى أرى الارادة تتبلور فى القدرة على الجذب . فكل منا خزانة مغلقة لا يعرفها أحد . وسر الحياة فى الجذب . قلت مرة فى احدى قصصى « لم يكن له ارادة ولم يكن له قدرة على شىء . كان عاجزا . عجزت يده عن الامتلاك » . اننى هنا ، أصف أشخاصا

تضيع منهم محافظهم وأموالهم وزوجاتهم لافتقارهم للقدرة الايجابية على الجذب .

قلت ليحيى حقي .. لكنك تعزف ، وفي العزف .. نغمة ساخرة !

قال وهو يهز رأسه : ربما لأن من صفاتي الشخصية التنبه الدائم لمفارقات الحياة ، وأول هذه المفارقات جبروت الانسان وضعفه في آن واحد . وكان رد الفعل في نفسي ، نغمة السخرية الواضحة في كتاباتي !

قلت : أكاد أحس ان رواية « صح النوم » هي أحب أعمالك الى نفسك ؟

قال يحيى حقي : اذا أردت شهادتي قلت لك نعم . لأنها باختصار تطبيق صارم لمبدأ التزمت به وهو الدقة والعمق في اسلوب الكتابة .

قلت ليحيى حقي : لماذا تكتب ؟ ما غايتك من الكتابة ؟

قال وهو يتنهد : أرفض اللت والعجن في الكتابة . واذا حدثتني عن الكم والكيف في الكتابة ، قلت لك هذا يتوقف على ثراء الكاتب في اطلاعه على اللغة . فإذا كان لدى هذا الكاتب « منجم » لغوى سار الكيف والكم معا ! لكن غايتي الحقيقية من الكتابة أن أضع القارىء أمام احساس بالفن . فإذا تملكه الفن ، استطعت أن أدعوه ليغير حياته ! الفن يا سيدى يلعب دورا في حياة الانسان ليس ببسيط . الفن أقرب الطرق الى الدين . صدقني . الفنان أقرب الى الله . صدقني . الفنان حتى وهو يكتب عن أشياء كونية . يقربك من الله . ويبصرك بالجمال . وعندما أتكلم عن غايتي من الكتابة ، لابد لتكتمل شهادتي ان أقول لك عن ينابيعي ! من أحد ينابيعي ، صعيد مصر الذى جعلني أتعاطف مع الحيوان وأذكره بالخير في قصصي . ومن هذه الينابيع ، الأضرحة والأحياء الشعبية التي عبرت عنها في قنديل أم هاشم . واكتشفت ان نداءات الباعة ودقات أطباق بائع العرقسوس تستحث القدر على الرزق !!

تتوارى أسئلتي ، ولا أسمع سوى صوت يحيى حقي ..

● ....

يسعدني كانسان أن يمسني سلك كهربائي مكشوف اسمه ، الفن .

● ....

للأسف ، المدرسة « أماتت » يدى . هذه شهادتي عن التعليم في زماني ، حيث كان الضرب على اليدين والقدمين بحد المسطرة .. مع ان اليد جزء من ذكاء الانسان .

● ....

تبكيني العواطف الجميلة المهدرة .. حتى بدون ذنب من أصحابها !

● ....

تزوجت مرتين ، ماتت الأولى ، والثانية زوجة فرنسية ، أعيش معها . وليس في حياتي نتوءات أو مطبات ، وأعتبر المرأة رمز الحنان .

● ....

فاتني الكثير في مشوارى الفني ، أتمنى أن أعيش لاحققها ، انها أحلام الكاتب !

● ....

تربويا ، النظرة عندى أكثر تأثيرا من الكلمات !

● ....

إذا كانت الألوان مادة الرسام ، فالكلمات واللغة مادة الكاتب وربما كان هذا سر اهتمامى بالقواميس على وجه التحديد وليس هناك لغة خدمت مثل اللغة العربية .

● ....

نعم ، ان الجوار من الأشياء يقتل اللهفة اليها ، وربما هذا الذى فطنت اليه من خلال ترجمة كتاب عن النيل . نراه كل يوم وقد لا نحس به ، فإذا ابتعدنا عنه قليلا ، اشتقنا اليه . انها المسافة بينك وبين الشىء !

● ....

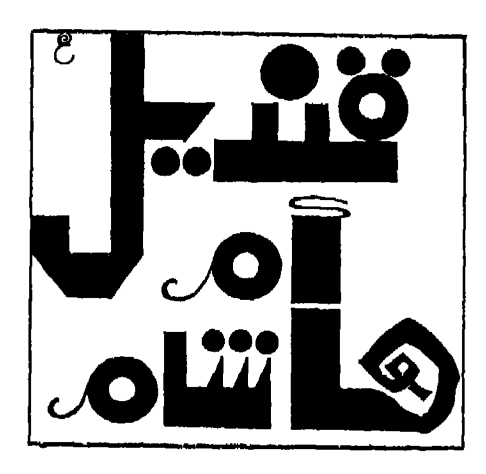
تسألنى عن الموت ، أقول لك ، انه شىء لابد أن نؤمن به وانه آت ! ولحسن الحظ ، يستطيع الانسان قبل أن يموت ان يتهيأ الى هذا بأن يتخلص من كل الغرائز والشهوات والتكالب ، ويشعر الانسان انه قادم على لقاء مع حبيب فيستعد للقاء ، وهو أنقى جسدا ! وسأموت يوما وأنا مستور . ألا يكفينى هذا ؟!

قلت للأستاذ يحيى حقى ابن محمد حقى ابن إبراهيم حقى :

تعال نختم حوارنا ! لقد شعرت انى أرهقتك !

قال وهو يسند يديه على عصا افريقية :

أنا رجل أرجو رحمة الله ، وأن يغفر لى حين أدخل بيته !





إحسان عبدالقدوس

« أنا يتيم عاطفيا .. »

حاولت قراءة « كف » إحسان عبدالقدوس !

ولأنى لست عرافا ولا أحترف التنجيم ، بدت لى خطوط كفه وكأنها طلاسم تسد الطريق أمامي ، وتردنى إلى صوابى !

الصواب ، هو أن أدق على أبواب خزائنه المغلقة وموروثاته المغلفة بالسلوفان . فمفتاح شخصية الكاتب طفولته .

طفولته التى قد يفرض عليها ـ من فرط عذاباتها ـ « حظر تجول » وأحيانا يطلق سراحها !

من « مادة » الطفولة ، يصنع الكاتب « نظرته » للأشياء .

فوق لهب تلك الأيام ، ينمو احساس ما . رؤية ما ، ينضجها الزمن .. وتصاحب الكاتب كظله !

رؤية « إحسان » للمرأة مثلا ، من أى العناصر تكونت ؟ من أى الخيوط نسجت ؟

بطلاته . ما ملامحهن فى عقله ؟ لماذا يتصرفن هكذا ؟

أطرح السؤال ببساطة من يريد أن يعرف ، وليس بتقعر ناقد يبحث بتشنج عن المضامين التحتية !

ولكنى أيضا لست « على بابا » الذى يدق على أبواب الخزائن فتنفتح أمامه ! ولست قارىء كف يتكهن . لابد من شهادته !

فكيف أثير شهية إحسان عبدالقدوس للكلام وهو إنسان يحيا بالمزاج !

عصر يوم جمعة ، اتفقنا الفنان جمال كامل وأنا . أن نزور إحسان فى صومعته التى تحتل من بيته المطل على النيل ركنا قصيا !

جمال كامل يذكر إحسان بشبابه . بمبنى روزا القديم . بقصصه الأولى أنا حرة والطريق المسدود والنظارة السوداء ولا تطفىء الشمس .

جمال كامل يعيد لاحسان ـ كلما رآه ـ أيام الصبا والجمال وأبو العينين ، واجتمع « جيمى » و« سانو » وكنت أنا ثالثهما !

فى سيارة « جمال كامل » . تيقظت ذكريات كنت أظنها نائمة ، ولكنها طفت على سطح ذاكرتى وصارت فى حالة « حضور » !

بنى سويف .

حبى الأول بالبنطلون القصير . وتذكرت كيف تدخل فيه إحسان عبدالقدوس ! كنت - بعد - صبيا فى مرحلة الحلم والاخضرار . كنت قانعا بالنظر إليها لا أكثر . كنت قانعا بالتودد لها لا أكثر . كان أعظم وأقصى ما أتمناه أن تلمس أصابعى فيشتعل صباى كله ! لكنها كانت غاضبة من قناعتى هذه ! كانت تود لو أفعل مثلما يفعل أبطال قصص « صانع الحب » لاحسان عبدالقدوس ! أهدتنى الكتاب ، فالتهمته فى ليلة واحدة . وقررت أن أقلد أبطال إحسان !

وفى اليوم التالى عرفت أن ابن عمها تقدم لخطبتها فلم أعد أراها . وعدت أنا كالفارس المهزوم أكتفى بالتحديق فى نافذة بيتها وأتصورها تهل كالبدر من خلف النافذة فابتسم . ثم اكتشف انها خيالات الستارة !

جمال كامل يسألنى وكأنه يوقظنى من اغفاءة قصيرة ، لماذا ابتسم ؟

أجتر معه الحكاية ، فيضحك . ويقول واحدة من مأثورات إحسان : إن حبك الأول هو حبك الأخير !

وصلنا لبيت إحسان .. وكدت أنسى « جهاز التسجيل » من زحمة الأسئلة التى أود أن أخطر إحسان عبدالقدوس بها .

اننى أريد أن أعرف إحسان الذى لا يعرفه أحد . إحسان « الأمس » و« اليوم » .. وغدا ! إحسان « الثورة » والتمرد .

بلغة السينما الحديثة التى تختصر المشاهد الزائدة عن الحاجة وتخاطب متفرجا ذكيا ، أحاول أن أكون !

إذا كان ميلاد كل منا - كما قال سلامة موسى - مغامرة مع القدر ، فإن ميلاد إحسان عبدالقدوس ، مغامرة كبرى !

* * *

جلس يحكى :

قلبه . أخضر ، كغيط شرب ماء النيل لتوه ، وشعر رأسه . أبيض بفعل رسام ماهر اسمه الزمن ! لكنه أبدا لا يشيخ !

يحكى لى .. عن الفردوس الذى لايتكرر إذا فقده الانسان .. الأم .

اعترف لك أن حياتى لم تعرف الطبيعية . تخاصمت مع المألوف وتصالحت مع الغرابة ، أمى . ليست مثل بقية الأمهات . فقبل أن أولد ، كانت هى فى حد ذاتها صرخة مدوية لا علاقة لها بالواقع أو التقاليد . كانت مرفوضة من مجتمعها لأنها ممثلة .

وكان والدى مهندسا . أصابه عشق التمثيل فأدار ظهره للهندسة وأصبح ممثلا رغم أنف والده القاضى الشرعى المعمم !

وسط هذا الجو المتزمت ، ولدت ، جئت إلى الدنيا ، وبعد قليل ، عشت فى بيت جدى حتى سن الثامنة عشرة . كانت « عمتى » هى التى ترعانى فى واقع الأمر ، وبدأت غرابة حياتى ـ كما ترى ـ فى عمر مبكر . ولا تستطيع أن تتردد فى تحليل هذه الحياة لأنى من رحم تناقضاتها ، خرجت !

فعلاقة إحساسى . « بأمى » السيدة روز اليوسف ، لابد أن تستوقفك . كنت مرتبطا بها . رغم أنى لم أعش معها . كنت أزورها مرة كل اسبوع وأعود فى آخر النهار إلى بيت جدى . كنت أتردد عليها فقط ، ولم أنم يوما فى حضنها إلا مرات قليلة تعد على أصابع اليدين ! ورغم هذا الارتباط ، كنت دائما فى معارك مستمرة معها . كانت حياتى مع عمتى هى التى تشعل فى نفسى الثورة عليها . ففى الوقت الذى كان محرما على « عمتى » أن تجالس رجلا من غير الأسرة . كنت أرى « أمى » جالسة بين عشرة رجال .. كالعقاد والتابعى وآخرين !

كنت أتساءل أيهما على صواب . أمى أم عمتى ؟ وظل التساؤل يكبر معى حتى صار « حيرة » . وأعترف لك أن هذه الحيرة مزقتنى فى وقت من الأوقات .. وانتصبت العقد فى طريقى كالمتاريس ! وحاولت الانتصار على « العقدة » فكانت ثورتى . اننى ثائر على وضع أمى ، وثائر أيضا على وضع عمتى اننى أحبهما ، ولكن أسلوب حياة كل منهما ليس كل الصواب ! بل بدأت ـ فى العمر المبكر ـ أكتشف أن الوضعين خطأ . منذ سن السادسة ، والحيرة والتردد يدقان على بابى !

إحسان عبدالقدوس يبحر فى ذاكرته . أرسو معه على شواطىء بعيدة . أقيم معه فى مرافىء قديمة . أتريض معه فى حدائق ملونة . نصادف زهورا لها عطر وأخرى لا تعطى عطرا . نقابل أشواكا تدمى يداه . نقفز فوق قنوات . نتعثر فى أحجار .. و ..

ومازال « يحكى » ..

« كانوا ينادوننى ويقدمونى للمجتمع على أنى ابن « روز اليوسف » فأنا منسوب لأمى علنا . كنت أتساءل بينى وبين نفسى لماذا أنا فقط ـ أنتسب لأمى . وأصدقائى ينتسبون لآبائهم ؟! فلا أحد من الأولاد ـ فى العباسية ـ ابن سنية هانم أو خديجة هانم ! وكانت هذه « عقدة » أعانى منها !

بدأت التفكير فى المرأة وأنا لم أصل حتى لسن البلوغ .. بدأت أفكر ، لماذا ننتسب لآبائنا دون أمهاتنا . ولماذا انتسب أنا لأمى . ومن هو هذا الكائن الغريب

المسمى المرأة ؟ فيم يختلف عن الرجل ؟ هل هـو مخلوق آخـر ؟ من يكون إذن ؟ من هي ؟

ومـازلت - حتى الآن - أحـاول أن أجيب عـلى التسـاؤلات . ربمـا دفعنى هـذا لاعتبار المرأة - عندى - كائن مستقل يشغل بالى ويستفز فكرى . ربما !

□ كرهـت اسـمى لانـه كان فضـيحة بجلاجـل

حتى اسمى هو الآخر .. كان يسبب لى عذابا مبكرا . اعترف لك أنى كرهته ! ان اسم « إحسـان » اسم بنت . وفى حى مثل حى العباسية ، يصبح لهذه الأشياء حساسية خاصة . كان أولاد الحتة يجرون خلفى ويصيحون : « البنـوتة » أهـه ! كانت الاهانة تغيظنى وتسيل دموعى أنهارا . وصـار اسمى بالنسبـة لى « عقدة » أخرى من العقد . وظللت أتساءل بينى وبين نفسى ، لمـاذا أطلق على أبى وأمى هـذا الاسم « الفضيحة » ؟ ربما لأجل هذا السبب وحـده أطلقت على « أولادى » فيمـا بعد أسماء « محمد » و« أحمد » !!

ولم أتردد مطلقا فى التحقيق مع أبى وأمى ، لماذا « اختاروا » لى اسم إحسـان !

أبى قال لى ان جدتى تركية ، وفى تركيا ، يعتبر إسم إحسان من الأسماء الحبيبة الشائعة للأولاد !

والدتى قالت لى ان السيدة الوحيدة التى كانت تقف بجوارها يوم مولدى ، فنانة صديقة لها .. اسمها إحسان كامـل ، سميت باسمهـا تيمنا بهـا ! والله أعلم . أى رواية من الروايتين هى .. الأرجح !

إحسان عبدالقدوس « يبحر فى ذاكرته » . والتعبير مستعار من ديوان للشاعر صلاح عبدالصبور . يحكى . بحماس . بتدفق . جمال كامـل يحبسه فى فـرخ من ورق أبيض . يرسمه مرة « إحسان بتاع زمان » . وكان جمال ، شاءت ريشته أن تتوقف عند هذا العمر . يعيد الرسم وهو يختـار الزاويـة ! إحسان يعتـرف . نوبـة من الاعتراف .. أشبه بتسجيل سيرة ذاتيـة . حرف الراء غائب طوال حديثنا ، بالنسبة لاحسـان ! وأنا يدهشنى أن يتكلم إحسان عن « السيـدة روز اليوسـف » ، أكثر ممـا يتكلم عن أبيه محمد عبدالقدوس . كأن هناك شيئا ما من « التعتيم » على ذكراه !

البحار يحكى ..

« ليس فى الأمـر أى تعتيم . كل مـا فى الأمر - بصـدق - ان والدتى كـانت أكثر غرابة اجتماعيا منه ! والدى كان مظهره المميـز أنه مهنـدس ضحى بالهنـدسة من أجل حب التمثيل . غرابة والدتى . أنها عـاشت ممثلة . ثم صحفيـة . من مهنة إلى مهنة انتقلت بإرادة وتصميم . بيد أن والدى كان رومانسيا وحالما يعيش مع خيـاله أكثر من الواقع . وكان مرحا لا يكف عن الابتسام .

كان رقيقا ومتفـائلا . ولم يكن طمـوحه سـوى طموح فنى ! كـان هدوء والـدى يريحنى . وقد لا تعلم أنى ورثت الكتابة عنه ! والدى كـان كاتب مسرحيـات واحدى مسرحياته الناجحة كان اسمها « إحسان بيك » وكان شاعرا وكان زجالا ، كان كتلة من الأحاسيس ، يصوغها كلمات !

استيقظ صباى على والدى يحملنى ويضعنى أمامه على السرير ، ثم يطيل النظر فى .. ويكتب ! حملنى هذا - فيما بعد - أن أقلده . أن أحتفظ فى جيبى دائما بورقـة

وقلم ! كانت هذه أول علاقة تنشأ بيني وبين الورق والقلم . وصارت لعبتي ، فهوايتي ، فاحترافي .. فمزاجي !

في بداية حياتي ، كنت أكتب زجلا ، ثم اكتشفت أني لا أستطيع . وحاولت أن أكون شاعرا . ولم أكن أملك أدوات الشاعر وأسلحته . ثم تركت الريح تتولى نشر موهبتي .. وترسو بها على شاطىء !

□ أخذت من روزاليوسف الارادة ومن أبي الخيال

تسألني ، ماذا أخذت من أبي ، وماذا أخذت من أمي ، أقول لك وشريط عمري يجري أمامي .. أخذت من والدي « الخيال » وأخذت من أمي « الإرادة » .. فأنا حينا « عملي جدا » ، وأحيانا ألوذ بالخيال ، وأحيانا تنتصر الإرادة على الخيال ، وأحيانا يهزم خيالي .. ارادتي ، ولذلك أنا لست ثابتا على حالة واحدة . ومن التوليفة هذه ، جئت !

وأسأل « إحسان » . سمعت من سكرتيرتك الأولى « مديحة » زميلتي في روز اليوسف أن والدتك كانت شديدة الصلابة وشديدة النعومة . وروت لي مديحة . كيف كانت « تشخط » فيك فتمتثل !

وسمعت من « أحمد بهاء الدين » مرة ، بعد أن قدمني لها لتعينني محررا في صباح الخير في ديسمبر عام ١٩٥٦ .. أن روزاليوسف هي الحلم والواقع في حالة تمازج وتناسق .. ما معنى هذا التناقض ؟! إنها محيرة

وتلمع عينا إحسان . فالموضوع . موضوعه المفضل . وأعرف أنه رفض أكثر من عرض بانتاج قصة للسينما عن والدته . إيمانا بأن أحدا لن يستطيع أن يرسم صورتها .. مثله ! وهو متهيب أن يخوض في دنياها !

يقول الملاح : أمي ، كانت سمتها الأساسية التصميم على الوصول . منذ طفولتها وهي طموح . كان « اسكندر فرح » يربيها ، فنشأت في جو الفن ، وصممت أن تنجح . كانت ناعمة ورقيقة . ولم تأخذ الحياة العملية من رقتها شيئا .

كان صوتها حتى قبل موتها ، كصوت البنت ! كان صوتها خفيضا ، ولكنه كان يزلزل الدار اذا غضبت . كانت الرقة الصخرة ! في الفن ، وصلت الى أرفع مكانة تصلها ممثلة . وفي الصحافة ـ والمجال صعب ـ وصلت وفرضت اسمها على الواقع السياسي والواقع الاجتماعي . بعنادها ورقتها ، حققت المستحيل ! لقد تعذبت أمي ، ودفعت الثمن غاليا من أعصابها .

أذكر انها اختلفت مرة مع الوفد وأفلست وبيعت ممتلكاتها وحجزوا على ثيابها الداخلية ولكنها كانت صلبة .. ولم تسقط في حفرة اليأس . تلك هي أمي التي أبحث في كل امرأة عنها . أقارن بين أمي وكل الأمهات . أرى أمومتها على البعد ولا أزال أذكر « عندما ألقي بنفسي في أحضانها وأنام على صدرها » وعندما أذهب الى المكتب . تعاملني كأي محرر وتشخط في .. وتضربني أحيانا !

من هذه « الحوادث والخواطر » صاغ احسان عبدالقدوس رؤيته للمرأة التي « صنع » منها بطلاته !

ان كل كاتب يرى المرأة من « زاويته » . مصطفى أمين ـ مثلا ـ رأى صفية زغلول في مطلع صباه ، فاحترم كل امرأة ، واعتبرها مناضلة كالرجل .

غرابة حياة أمي الاجتماعية صنعت رؤيتي لبطلاتي

فى التاريخ ، قال برناردشو : ان اعفاء المرأة من الجنسية لا يعنى عدم قدرتها على الحرب ، ولكن يعنى تخصيصها لغرض واحد هو انجاب البشرية . ان شو كان يراها « الأم » ولا شىء أقدس من هذا عنده ! ولكن بودلير كان يتعجب حين « تدخل المرأة الكنيسة ، ماذا يمكن أن تقول لله ؟!

ووالت ويتمان يعترف انه يحب « الشفاه التى تبتسم والعيون التى تذرف الدمع ، والأطفال ، واللاتى يلدن الأطفال » !

واحسان .. بم يعترف ؟!

رؤيتى للمرأة قامت على أسس غير عادية . جعلت علاقتى بالمرأة علاقة قائمة بذاتها . لأنى ـ مثلا ـ كنت أقيم بعيدا عن والدتى ، فقد كانت لذتى هى فى الجلوس الى « أمهات » أصدقائى ! كنت أتكوم كالقطة بجوارهن . وكان هذا الحب الطفولى يملأ على حياتى . كنت فى الواقع افتقد الارتباط الدائم بها . كانت أمى « عنصرا شاذا » فى المجتمع ، وكان القول بأنى ابن الست ، نوعا من التشهير ، فانتصرت على العقد بالجهد المكثف حتى أثبت للجميع ان فى أعماقى مواهب كامنة .

لم تكن أمى ـ بهذا المقياس ـ نمطا عاديا من الأمهات ، ومن هنا ، كانت بطلاتى غير عاديات ، بطلاتى ، ثائرات وان ظهرن مستسلمات ! المرأة عندى من أساسيات حياتى .. ولكنها لم تكن فى يوم من الايام « كائنا مريحا » ! انها تدفعنى للتفكير الدائم . أريد أن أحدد موقفى منها ، ولأنى لم أحدد بعد موقفى منها . مازلت مستمرا فى الكتابة . ومازالت « موضوعا » فيما أكتب ! ولا تنس انى ـ فى طفولتى ـ كانت لى شخصية مميزة بوصفى ابن روزا بعكس أولاد عمتى ، كانوا طبيعيين . اننى أحيانا أشعر ان الغرابة الاجتماعية تلد فنانا . وان الحياة المستقرة بشدة تخلق موظفا !

كل هذا جعل « نظرتى » للمرأة .. تحليلية .. فالمرأة عندى حالة تستفز خيالى . لقد كانت أعظم أمنياتى عندما كبرت وصار لى اسم ، ان « اريح » أمى فى البيت . لكنها أبدا لم تستسلم لهذه الدعوة ! كنت أريد ان اراها « هانم » . ويبدو ان عقلية « جدى » سيطرت على هل أنا فى أعماقى انسان محافظ رجعى ؟ لا أعرف !

احسان ينادى على زوجته الفاضلة : « ياهامى » هى ترد .. « ايوه يابابى » يعيش مع احسان وزوجته ، ابنهما محمد الذى تزوج بنت الشيخ الغزالى وأنجب منها « محمد » وينادونه : مودى ! مودى فى الثالثة ، ويردد أسماء الضيوف ، كلما سمعها مرة واحدة . ذاكرته جيدة مثل احسان فى طفولته !

ان كل فلسفة فى الحياة تبدأ بإحساس أو شعور عميق أو مزاج شخصى وتنتهى برأى !

كيف انتهى احسان على رأى فى « اختيار » زوجته ؟ هل كانت مثل « عمته » أم انها امتداد لوالدته ؟ وقد قالت لى مرة سكرتيرة احسان الوديعة نرمين القويسنى ان « أبى احسان مدين فى حياته لاثنين فقط والدته .. وخالتى ، زوجته » .

كيف « اختار » احسان « بطلة » حياته ؟

الملاح ـ المبحر فى ذاكرته ـ يحكى !

كانت زوجتى على عكس والدتى تماما . كان أول شرط اشترطه وبدون فصال هو

أن تكون « امرأة لا تعمل » ! نعم . اعترف لك ان عمل أمي حرمني منها . ولذلك شببت أكره العمل للمرأة وأعتبره ، يسرقها من رعاية أولادها وحنانها الذى لا يعوضه أى حنان !

لقد عشت محروما من دلع الأمومة لأن أمي كانت مشغولة بقضاياها ومعاركها . منذ طفولتي وأنا اكره الأمهات اللاتى يعملن . وفي صباى . ارتبطت عاطفيا بنساء لا يعملن ، أنا - مثلا - لم تكن لى فى أى وقت من الأوقات أى علاقة بالفنانات . لأنهن لا يعطين الحب كله والحنان كله لأولادهن اكنت أحلم بامرأة متفرغة للبيت . فالبيت عندى مسئولية وكيان . تصور حتى علاقاتى وأنا مراهق . كنت اختار البنات اللاتى يحلمن بالبيت أكثر من طموحاتهن !

□ البيت السعيد : زوجة متفرغة لبيتها تماما

وأرجوك الا تتصور ان هذا موقف لاحسان من اشتغال المرأة بالعمل . انه موقف شخصى يخصنى وحدى . أنا أعتقد ان عمل البيت عمل كامل ان ادارة بيت من أخطر المهام فى الحياة . صدقنى ! ان أمى هى التى أعطتنى الفرصة للعمل . فلولا مجلة روزاليوسف . لما ظهرت بسرعة . وفى الوقت الذى كنت أعمل فيه ١٨ ساعة . كانت هناك « امرأة » أخرى هى زوجتى مسئولة عن حياتى . عن وقت أفكر فيه . ووقت انتج فيه . ووقفت استريح فيه ! ان فضل زوجتى على يساوى فضل أمى على .. رغم التناقض . أنا مصمم أن الحياة الزوجية هى تقسيم عمل . الرجل يعمل ، فى الخارج والزوجة تدير دفة الحياة فى الداخل ، واذا كان البيت غير ناجح انتقلت العدوى للعمل ذاته . ان البيت السعيد ، امرأة متفرغة لبيتها !

□ زوجتى تحاسب الضرائب لتعطينى وقتا للكتابة

هكذا أرى . وان كانت (رؤية) خاصة جدا .

ان بطلة قصتى « استقالة عالمة ذرة » من وحى هذا الرأى ! هكذا ترى ان بطلاتى لسن من العدم . انهن من نسيج فكرى ومعايشتى للتجارب ومعاناتى للألم الذى عشته . فأنا منذ الأزل يتيم عاطفيا .. أكافح فى سبيل العواطف ! وانتصر للتفرغ للبيت ! وأبحث عن « أمومة » .

الملاح يحكى عن احسان « اليوم » !

فضل زوجتى على كبير . انها تعرف جيدا كيف « تستثمر » الآلة المنتجة التى هى أنا ، ان صح التعبير !

خذ مثلا صغيرا . ان زوجتى هى التى تمسك بدفترى وتتعامل مع الضرائب . فأنا لا أفهم فيها شيئا ولا أعرف كم ادفع ! انها تتولى هذه المهمة ليس عجزا إنها - بوعى وذكاء - تريد أن أتفرغ لعملية أخرى .. هى الانتاج والابداع !

ان كل رجل فينا عبارة عن مصنع ينتج ، فلا بد له من « مدير متفرغ » يحسن استغلاله الاستغلال الأمثل . ان النظرية العامة عندى هى أن الست المتفرغة لزوجها تصنع مجده لأنها تشارك فيه بجهد لا يقل مطلقا عن جهد الزوج !

وأسأل احسان فى لحظة صمت .. هل لو حللت الحب الذى يربطك بزوجتك ، سنكتشف فيه أمومة ؟

قال احسان بسرعة وبحسم : قطعا !

عدت أقول لكاتب الحب : ما نظرتك التى كونتها عن الحب ؟

يقول احسان : الحب عندى اكتفاء ومسئولية .

قلت .. هل هو مثلما نراه مدام لافييت فيه شيء من كل شيء .. شيء من العقل وشيء من القلب .. وفيه شيء من الجسد ؟!

قال احسان : نعم أنا أرى انه كلما شعرت بالاكتفاء يكبر داخلك ، كان حبك يكبر . لانك اكتفيت به . انك تكتفى بمن تحب ، لأنك تجد فيها الأم والأخت والصديقة والحبيبة والزوجة كل العواطف تتجمع فيها . لا أحد يحب بعمق ـ امرأة لأنها جميلة ـ انه حب ينتهى مثلما بدأ !

هناك عناصر اذا تجمعت فى المرأة . أعطتها الشخصية الجذابة !

أما المسئولية . فمعناها ان كلا منا ـ أنا وحبيبتى ـ نتحمل مسئولياتنا تجاه بعض ! والمسئولية هى الترجمة السلوكية للحب .. الصادق .

تذكرت عبارة لكامل الشناوى يقول « أنا اشترى الحب بالعذاب » ..

تجرأت وسألت احسان : هل يستطيع « الفنان » احسان أن يعيش فى حب مستقر ليس فيه أنواء ؟ حب يلهمك . حب يلهب خيالك ؟!

لم يهرب من السؤال . بل اجاب احسان بصراحة .

قال : انه ليس حبا ، بالمعنى الذى أفهمه ، الاكتفاء والمسئولية ..

قلت وأنا أشعر اننى أحاصره . ماذا اذن ؟!

قال : العاطفة مهمة بالنسبة لى .. انها نوع من الغذاء . ومنذ طفولتى وأنا أبحث عن « عواطف » أمى واستفزها من مرقدها ، و« عمتى » « كانت تهبنى ما تستطيع من عاطفة . وابى « يحبنى » على طريقته الحالمة . وأمهات أصدقائى . أخذت منهن بالقطارة ، بعضا من العاطفة .. فأنا أفكر بقلبى أكثر مما أفكر بعقلى ، على عكس توفيق الحكيم ، انه يفكر بعقله أكثر من عواطفه . ان العاطفة حين تملؤنى ، يتسع أفق فكرى .. وتنضج نظرتى . اننى أبحث دائما عن « الشبع » العاطفى .

قلت لـ .. سانو : معنى ذلك ، انك لا تستطيع أن تعيش بدون حب . بدون « امرأة » تشغل خيالك . اننى أتكلم هنا عن احسان الفنان .

رد بدون تردد .. عندما أكون فى حالة « فراغ » عاطفى ، أكون كمن لم يستكمل كل قواه .. وأنا أكره الفراغ العاطفى !

* * *

موعد . ولقاء . وفنجان شاى . وسكارين . وأسئلة . وتساؤلات . وتردد . واجابات . وعطش . وسعال . واعتراف . وكوب ماء . ومغالطات . وذكاء . وتذاكى . وكلام . ودخان . وقناع . وأقنعة . وتليفون . وضحكات . وسيرة . ورأى . وصدق . وكذب . وريشة . وهواجس . ورسام . وظلال . وكاتب . وقلم . وروائى . وشهرة . وحوار . وابحار .

واحسان عبدالقدوس !

« تسألنى - بخبثك الذى يرتدى دائما ثياب البراءة والعفوية - اذا كنت قد هربت من كتابة المقال السياسى وجحيمه .. الى جنة القصة والرواية . وترشونى بكلمات حماسية مثل :

عرفناك الكاتب الشجاع الذى لا يهاب .. والثائر الذى له تاريخ . فربما أنفعل وأبوح .. وأثير قراءك ! ولكنهم خدعوك وقالوا لك ان قصصى عاطفية لأنى كاتب عاطفى . وهذه شهادة خاطئة . فأنا لست كاتبا عاطفيا . وأغلبية قصصى ليست عاطفية . فأنا عالجت موضوعات سياسية كثيرة . وتطرقت الى موضوعات عبرها الروائيون مثل الادارة والتأميمات . ولكن القصص العاطفية هى التى تستريح بين يدى الناس وتنام تحت جفونهم . وتأخذ ضجة . فتسمع الدوى .

أنا - مثلا - من أين آتى بأبطالى وبطلاتى ؟ من الحياة . بكل تناقضاتها الاجتماعية والسياسية والفكرية . لأن القصة هى الحياة ذاتها . أنا لا أصنف قصصى بتقسيمات صيدلية ولكنى أترك الأبطال يتحركون بمحض حريتهم كما يتحركون فى الحياة ومن هنا الصدق . أنا لست مصورا فوتوغرافيا . ولكنى أقرب ما أكون الى الرسام واللوحة والألوان . ان القصة . موقف ما . يتفاعل داخلى وينمو وينضج . وربما بعد ثلاثة أشهر . يطلب الانعتاق والافراج والميلاد ! فأنا - فى الواقع - لم أهرب من المقال السياسى . لكنى لجأت الى القصة لانها تتجرد من التصاقها بالتاريخ . وتلك حرية كاتب القصة ! أضف الى ذلك انه لا يوجد شىء اسمه مقال سياسى وخواطر سياسية وقصص عاطفية وأخرى غير عاطفية . هناك « تعبير » عن الرأى ، يختار « ما يريد » من الأشكال وقد تنطوى قصة على ما هو أخطر من مائة مقال سياسى !

ذاكرتى تذكر قصة لاحسان عبدالقدوس . بطلتها فتاة جميلة تعذبت من ركوب المواصلات والمعاناة اليومية . فاستجابت - من فرط العذاب - لدعوة راكب سيارة . وتعودت على أن تلبى « الدعوات » وصارت تختار « ماركات السيارات » . ثم أصبحت تتخير « نوعية » من تستجيب لندائهم المكتوم من الرجال . واحترفت !

احسان يقول .. ان كل انسان فى الدنيا يعمل بالسياسة دون أن يدرى لأن السياسة ليست حرفة وليست تخصصا .

ست البيت التى تذهب للجزار لتشترى اللحمة وتفاجأ بأن الكيلو ثمنه ٢٧٠ قرشا . فيعلو صوتها وتغمغم بكلمات غضب . انها لا تشتم الجزار . ولكنها توجه نقدا عنيفا مرا للحكومة . وهذا صميم السياسة !

ان الاحساس السياسى كامن فى كل البشر . فيما عدا الوعى . فهو على درجات .

ولذلك فان السياسة تدخل ـ بلا تعمد ـ كل قصصى . ان قصة « أنا حرة » قصة سياسية . والخيط الرفيع . قصة سياسية وان بدت لك انها قصة عاطفية !

وأريد أن أعترف لك ان قصة أنا حرة تصور الحيرة فى حياتى . انها قصتى شخصيا . لقد قال هذا نجيب محفوظ يوما . قال ان احسان جعل نفسه « بطلة » لاحدى قصصه ولم يشر للقصة ! وغضبت يومها . الآن ـ فى هذه المراجعة الأدبية ـ اعترف لك ، بما قاله نجيب محفوظ . ان الكاتب ـ فى أغلب الأحيان ـ يتسلل دون تعمد الى شخصيات القصة لأنه ينفعل (بجيرانه) فى الحياة ! ان قصة أنا حرة . تصور شبابى . الحرمان . الحيرة . اليتم !

قلت لاحسان عبدالقدوس : لى برنامج اذاعى أعتز به اسمه « أبى من المشاهير » وكان طرف الحوار معى ابنك محمد عبدالقدوس . وكان محمد صريحا ومباشرا وانتقد قصصك وقال انها لا تسير فى المنهج الذى اختاره دستورا فكريا لنفسه . ولا أعرف كيف تواجه أنت هذا « التمرد » الفكرى عليك فى بيت يعيش فيه معك ابنك الذى تزوج ابنة عالم فاضل هو الشيخ الغزالى ؟

وصمت احسان وقال : فى أى حوار ، من المهم أن تحترم الرأى الآخر . وأساس المناقشة بينى وبين « محمد » هى احترام آرائه التى اختلف معه فيها . لقد كنت حرا فى مناقشتى لأمى وأنا صغير : فكيف أصادر آراء ابنى محمد ؟ لقد بلغ من ايمانى بآرائى ، ان كانت والدتى تقول لى : أنت كل آرائك ضد مصالحك ! لكنى كنت مقتنعا بطريقتى فى التفكير . ولذلك أحترم أراء محمد ومنهجه الفكرى وأختلف معه كلية . ان أية مناقشة بيننا هى « حوار » وليس « خناقة » !

قطع حوارنا رنين التليفون !

قام احسان وجلس على مكتبه الصغير حجما وجرى الحديث التليفونى همسا. تصورته فى حالة عاطفية. لحظتها يلثم الزهر ويعانق الموج وينام على أصداف البحر! مرت دقيقة واثنتان وثلاث. واحسان يتكلم ويعبث بسيجاره الكوبى. ان التليفون فى حياة احسان كشاطىء بعيد عن العيون. يستلقى فوق رماله. كلما كان الجو صهدا والرطوبة عالية.

انتهت المكالمة. وضع احسان السماعة برفق شديد، وعاد من شاطئه. خطواته. كراقص باليه قديم.. معتزل !!

وأتأمل الشعر الأبيض فى رأس احسان، وبعض تجاعيد الزمن التى يتحداها. وأتذكر ما سمعته من الدكتور زكى نجيب محمود : أنت تعرف الشخص من حديثه

اضاءة !

كان لاحسان عبدالقدوس ثلاثة نماذج من الصور الفوتوغرافية صورة جادة جدا وصارمة الملامح . للسفارات والصحف الأجنبية والأجهزة الرسمية ! وصورة ثانية يتطلع فيها للأفق البعيد . وهذه تهدى للشباب الطموح ! وصورة ثالثة فى بوز جذاب . حيث العينين فيهما مسحة حزن وهى تهدى للمعجبات ويكتب احسان عبارة واحدة لكل معجبة : « عشت لى » !

(المصدر : صلاح حافظ)

أكثر مما تعرفه من كتاباته ذلك اذا أرسل كلامه على سجيته ، ولا عجب اذ قال سقراط الى جليس له ذات مرة إذ رآه صامتا : كلمنى لكى أراك !

لماذا لم تكتب سيرتك الذاتية ؟

□ لست كهلا لأكتب مذكراتي

قال احسان وهو يضحك : هناك سببان لإحجامى عن هذه المحاولة . السبب الاول اننى لا أريد أن أكتب مذكرات لأن هذا من أفعال العواجيز والكهول وأنا لم ادخل بعد هذا المدار ! اننى أعيش العمر الذى يجعلنى أفكر فى المستقبل لا فى الماضى . وأحب أن « أنتج »جديدا ولا « أردد »قديما !وربما يبلغ بى الغرور انى لا أحب أن أسجل بنفسى تاريخ حياتى . بل يفعل هذا الآخرون المنصفون !

السبب الثانى أنا اسجل بالفعل مواقفى وتاريخ حياتى فى قصصى ومقالاتى وخواطرى انها ليست مكتوبة على لسانى مباشرة ولكنها على لسان أبطالى ! انك تعرف الكثير عنى لو أعدت قراءة قصة أنا حرة .. لأنها متأثرة بتاريخ حياتى . أنا استغل رؤيتى للمجتمع فى قصصى وانتاجى الأدبى .

سألت احسان عن الكتابة . كفن . كعشق !

أطرح عليه السؤال وفى ذهنى صيحة ديكنز « الروائى لسان يثرثر كثيرا عن باطن الأرض وبواطن الناس وسريرة التاريخ » .

أطرح السؤال وفى ذهنى ان الكلمة المكتوبة ـ عبر الرواية ـ تجعلنا نجتر خبراتنا الخاصة وتعطينا لمحات من خبرات يحتمل أن نمارسها . رغم ما يقوله اندريه موروا وزير الثقافة الفرنسى الراحل .. « حتى مع أعظم الكتاب أمثال دانتى وجيته . يرى المرء ان عباراتهم فاترة اذا قورنت بالخبرة نفسها . ان جيته لم يستطع أن يشير الى التعاسة والفراغ فى مأساة جركشن ولا يمكن أن يكون جحيم دانتى إلا صورة ضعيفة لما كان فى خياله ...» .

احسان عبد القدوس يوقظنى من ذبذبات ذاكرتى ، برأيه فى الكتابة . « الكتابة هى المتعة الوحيدة التى أنسى فيها نفسى . وحين يغيب عنى مزاج الكتابة ، أتعذب وأشعر بالغصة فى حلقى !

أسأل احسان : هل قصدت أحدا بعينه فى قصتك « ونسيت انى امرأة » ..؟

احسان يرد .. قصدت أن أتعرض للأخطاء التى تواجه العاملات فى مجال العمل الاجتماعى . لم أقصد شخصية بالذات . قصدت « الموضوع » لا « الفرد » !

أقول لاحسان : هل تحكم المرأة العالم ـ كما يقول ثيربرد ـ فى المائة عام القادمة ؟

قال احسان : ستصل المساواة بين الرجل والمرأة الى أشواط بعيدة . وليس مستغربا بعد ذلك ان يكون رئيس وزراء مصر يوما ما امرأة ، مثل مسز تاتشر .. وانديرا غاندى وغيرهما !ولكنى لا أتصور سيطرة جنس النساء على جنس الرجال أو العكس ، فهذا درب من الخيال . سيعود التوازن بين الطرفين بعد أن ظل مختلا !

اسأل احسان عن شخصيات تاريخية تأثر بها احسان . قادة . مصلحون . حكام .

احسان يرد لازلت متأثرا بشخصية نابليون !

سألت احسان ـ لكى أنشط حوارى معه ـ عن أخطاء الحب .

فلمعت عيناه وأشعل السيجار وقال : فى كلمة واحدة ، أهم هذه الأخطاء هو « الأنانية » ! قالها وهو يركز على كل حرف فيها . خصوصا انها كلمة تخلو من حرف « الراء » الغائب فى استحياء من حوارنا معا !

قلت لاحسان : لقد أصبحت حياتنا وايقاع العصر يدوس قيم الحب وربما كانت هذه الأنانية من افراز هذه الحياة التى صارت جافة وصارت أرقاما فى أرقام . صرنا نعيش فى الجمع والطرح بدون قسمة !

أطرق احسان برأسه ووافقنى ، ثم استطرد يقول : ان ما يهدد الحب ويضعفه أن يتصور أى طرف من الطرفين انه يريد أن يسيطر ويستولى على الآخر !

قلت لاحسان : هل تزوجت فى هدوء كما يتزوج كافة البشر ؟

قال ـ وهو يبحر فى ذاكرته ـ أبدا ، لقد تزوجت بطريقة لعبت فيها ارادتنا دورا فحين تقدمت لأسرة المهيلمى التى تنتسب اليها زوجتى . رفضت أسرتها لأنى كنت بعد خريجا حديثا ولم ابن نفسى بعد . لم تكن المقاييس التى يحلمون بها لأزواج بناتهم تنطبق على ! وقررنا أن نتزوج دون استشارة الأهل . وكان شاهد الزواج هو الأستاذ التابعى ! ان الحب هو التحدى والحلم والارادة .

قلت لاحسان ، ونحن على نفس الموجه . لو جاءك رجل متزوج له أولاد كبار وقال لك انه وقع فى الحب وانه بصدد ان يطلق زوجته ويتزوج من حبيبته فماذا أنت قائل له ؟

قال احسان بضيق شديد : أنا لا أوافق أبدا على التضحية بالزوجة أو الزوج فى سبيل مطلب ذاتى . هناك الاكتفاء والمسئولية فى الحب فاذا حدث فى إحدى الكفتين خلل ما ، وليكن ذلك فى الاكتفاء . فلا يجب أن تغيب المسئولية مطلقا . فإذا تعرض أحد الطرفين الزوج أو الزوجة لأى احساس عاطفى ، مهما كان فلا يجب أن يكون على حساب احدهما وبالواقع الزوجى واذا كان مفروضا ان نضحى . فليضح بحبه الجديد !

قلت لاحسان : هل تعتقد ان الخوض فى « الموضوع الخاص » والعلاقة الحميمة بين الزوج والزوجة « مشروع » ؟! هل فى مصلحة القارىء اللبيب ؟

قال احسان بسرعة : انه ترشيد ومادام منطلقا من دعوة أخلاقية فلا بأس .. وأذكر انى تعرضت لهذا الموضوع فى باب (زوجة أحمد) هل تذكر ؟!

إضاءة ..!

كلما قرأت هذا الفصل فى حياة نابليون . أشعر انه يكاد يشل تفكيرى . انه يروى موعظة الحياة كلها . انه يقول مثلا « حاول أن تسبق الراغبين فى الحرية الى رغباتهم » . ويقول « ليس الحكم مجرد ان تتبع نظرية معينة بل هو أن تبنى بما فى يديك بناء سليما . فيجب أن يتعلم المرء النزول على حكم الضرورة » .

ويقول نابليون « لقد كنت ديكتاتوريا رغما عنى والدليل على هذا . انهم كانوا يعرضون على من السلطة أكثر مما أردت . وأكثر مما كنت فى حاجة اليه ..» .

المصدر : العدد ١٤٠٠ من روز اليوسف باب أمس واليوم وغدا

... ...

قلت لكاتب الحب : هل تحتاج المرأة لكلمات الحب دوما . إن هذا يحتاج لشاعر ..؟ شاعر يضرب خيامه على شاطئها .

ضحك إحسان وقال : حتى الشاعر لا يستطيع أن يعد لها قصيدة غزل كل لحظة . المهم عندى عدم الافتعال فى كل سلوكنا وأقوالنا مع المرأة .

ذكرنى ما يقوله إحسان برأى أبو حيان التوحيدى فى الحب . « أفضل كلمات العشق تلك الصادرة من القلب .. على المدونة المنمقة التى تراعى فيها الأصول وتنزه عن الأخطاء » !

عدت أقول لاحسان : ما لا تغتفره لامرأة ؟!

سرح قليلا ثم قام وتمشى فى صومعته وأغلق زجاج النافذة فقد كانت الريح تدوى .. وقال وهو يعتدل فى جلسته « ما لا أغتفره لامرأة ما ، هو الكذب . لماذا ؟ لأنى أتصور المرأة التى تكذب على رجل هى التى تراه غير كامل وغير قوى . ولا يستحق أن يقال له الحقيقة !

المرأة التى تكذب على .. تحتقرنى .. أنا أفضل أن أترك امرأة ذهبت إلى غيرى وأنا أتعذب على أن تحدد لى مساحة ما فى حياتها . ولغيرى مساحة ثانية ! إننى من القائلين إن « الشك أقسى من الواقع » حين أشك فى أن حبيبتى تخوننى فهذا أكثر قسوة من اكتشاف خيانتها بالفعل ! إن المرأة الذكية الفاضلة المحبة الودودة هى التى لا تكتفى بحب رجلها . ولكنها أيضا لا تثير الشك فيه !

قد تكذب المرأة على الناس ولكنها لا تكذب على حبيبها مطلقا ! إن الاثنين يجلسان على حجارة الثبات والطمأنينة » .

سألت إحسان : هل تربطك علاقات صداقة بالفنانات ؟

قال الروائى : معظمهن صديقات . لكنى انظر لهن ــ كفنانات ــ وأفضل الموهوبات .

قلت لاحسان : أعرف صداقتك الحميمة بفاتن حمامة !

قال صائحا : قوى !

●● إضاءة ..!

« .. كانت تمر أسابيع طويلة وأحمد زوجى عازف عنى لا يحاول أن يقربنى !! نحن الذى كان ليلنا كله حارا نشطا تنطلق فيه صواريخ حمراء وخضراء وزرقاء كانت لهفة أحدنا إلى الآخر لا تفتر ولا تنتهى . لم أيأس بعد أن مر على زواجنا سنوات . لم أدع أنانيتى تسيطر على عقلى وتدفعنى إلى تصور أوهام لا حقيقة لها ، لم أتصور أبدا أن أحمد لم يعد يحبنى وأن هناك امرأة أخرى تشاركنى فيه وتستنفد حيويته .

إن الرجل عندما يحصر تفكيره فى عمله لا يبقى فيه شىء من طاقته الحيوية يمنحة لمتعة جسده . ولو حاول أن يهرب من ظروفه لصار مفتعلا . إن احتياجات الحب تتغير مع المسئوليات الجديدة فى حياة الزوجين .. ويصبح الجنس أحد هذه الاحتياجات وليس كلها » !

(المصدر : العدد ١٠١٣ من صباح الخير باب أنا وزوجى)

□ المرأة عندى إمـا ذكيـة وإمـا قبيحـة

أعطيه اصغائى ، فقال .. « اولا أحب أن أحيطك علما بأنى مبتعد أساسا عن الست العاملة ! لا عواطف بينى وبينها فى حياتى لم أرتبط عاطفيا بصحفية أو ممثلة . فاتن أعرفها منذ فيلم يوم سعيد . كانت تمثل مع والدى . عرفتها عن طريق زوجها المرحوم عز الدين ذو الفقار . ولما توطدت صلتى بها . اكتشفت فيها الذكاء والادراك والحس السليم فى الفن ، لعلمك المرأة عندى ذكية أو غبية . ذكاء المرأة أهم « عضو » فيها . ذكاء إمرأة يشدنى . وأنا مدين لاثنتين من الذكيات هما أمى .. وزوجتى .. فقط !

قلت لاحسان : حفيدك « مودى » ماذا يضيف لك ؟

قال « الجد » الوسيم : صار مودى أهم شخصية فى البيت . إنه يجعلنى مطمئنا الى استمرار اسمى . انه رمز ومعنى . لم أعد أنا وابنى فقط .

صرنا : أنا وابنى .. وحفيدى ! أتمنى لو أعيش حتى يتزوج حفيدى وينجب أطفالا . فتصبح متعة أعظم ! ولأنه لم تعد لدى مسئوليات ادارية كثيرة فقد صار « مودى » رفيق الساعات الطويلة . إن عمره عامان . ولكن له نظرة فى كل شىء ..وأنا أحترم ذكاءه المبكر . إن حوارنا الصامت فيه متعة خاصة . متعة اللقاء بين « الأصل » و« الفرع » !

قلت لاحسان : وأنت وحدك فى هذه الصومعة ألا يسرح فضولك فى الرغبة فى اكتشاف نساء لا تعرفهن !!

ضحك إحسان وقال : صيغة سؤالك مباشرة . وأنا أعرف فيك ذكاء الصياغة والتسلل ومع ذلك أجيب عليك ! المرأة التى تثير فضولى هى « مارجريت ترودو » ! فإذا كانت أنديرا غاندى . أعجوبة الهند تثير إعجابى فإن مسز ترودو تثير فضولى ! إنها إمرأة هيبية مجنونة وأريد أن أعرف جانب « العقل » فيها . فلسنا جميعا مجانين على الإطلاق أو عقلاء على الإطلاق . أريد أن أعرف ما الذى جعلها تدير ظهرها للسلطة والشهرة وتجرى إلى البرارى .. والشبان والرقص ! لقد هزت مسز ترودو ليس كندا وحدها .. بل العالم كله لأنها صفعت « السلطة » وهى أحد مواطن ضعف المرأة وشغفها وتذكرت نفسها كامرأة ! مجرد امرأة عادية .. لا سلطان لها !

و .. صمتنا !

***

موعد . وأوراق . ودخان . ونساء . ورجال . وذكريات . وفضول . وطفولة .
واجترار . وأحزان . وأسرار . وصداقات . وحب . وإضاءة . وجنس . وشهرة .
وقصص . وأفلام . ونقد . ومال . وإبحار . وزوجة . وضرائب . وفراغ . وحفيد .
واسم . وحوار . و..

وكان إحسان عبدالقدوس !

يمكن القول ان الكاتب العربى الكبير إحسان عبدالقدوس .

نزل إلى أعماق آبار المرأة وأقام هناك ، ذلك أن إحسان عبدالقدوس . عبر رواياته رسم صورة للمرأة المعاصرة بتفاصيلها الدقيقة ! وإحسان لا يعتبر المرأة لغزا . يقول « إن الرجل والمرأة يتساويان فى كل شىء والفرق الوحيد بينهما « بيولوجى » ولا أثر له على شخصية المرأة وخصائصها فمن أين جاء اللغز ؟! » وإحسان عبدالقدوس - بالمناسبة - يحترم المرأة بشدة . وتسأله عن تأصيل هذا الاحساس فيقول « تربى عندى ذلك الشعور من إحساسى بشخصية أمى .. كانت أمى تقوم بمسئوليات رجل قوى جدا . لهذا أحترم المرأة احتراما كاملا ولا أضعها فى مستوى يقل عن مستوى الرجل !.» .

كان إحسان عبدالقدوس يكتب ، حين زرته ذلك الصباح . وربما لم يحس بنا « زميلى المصور وأنا » . كان عاكفا على الكتابة بخط صغير منمنم وعلى ورق من حجم ضيق . وحين انتهى من الابحار فوق الأوراق ، أفاق ورفع رأسه وقال لى .

حين تدق الأفكار بابى ، استقبلها بلهفة ، فأنا لا استطيع أن أعتذر لها !

ثم استطرد يقول : لقد درست القانون ، ربما لأنه ينظم الحياة ، ويعطينى فرصة للتجول فى ثقافة العالم العامة . فمن أهم خصائص الروائى أن يكون ملما بالحياة . إن الرواية هى عرض وجه من أوجه الحياة وكيف أعرف الحياة دون أن أجمع معلومات . وهذا هو الفرق بينى وبين نجيب محفوظ مثلا . إن أسفارى وقراءاتى تميزنى . ونجيب لا يحب السفر وقراءاته تذهب فى اطار آخر ، ومن هنا ، فالأبطال فى قصصى غير أبطال قصص نجيب محفوظ ربما يثير فضولك ـ الذى أعرفه جيدا ـ أن تعرف ماذا أكتب الآن . اننى أكتب رواية عن سيدة تقوم بعملية تجميل . ومن المهم أن يكون عندى معلومات عن دنيا طب التجميل معلومات عامة تساعدنى على رسم شخصية البطلة. وليس من الضرورى أن تحولنى إلى طبيب تجميل !

وصمت إحسان عبدالقدوس ، ووجدت الطريق مفتوحا أمامى لأسأله :

هل أنت مع طب التجميل ؟ والسؤال بشكل أدق : هل توافق أن تجرى المرأة عملية تجميل ؟

قال إحسان : أنا مع طب التجميل حين يكون علاجا لا « ترفاً » ! نعم أنا مع طب التجميل حين يكون علاجا لحروق مثلا . وقد بدأ طب التجميل فى الحروب لعلاج آثار الشظايا والحروق ثم تطور ودخل من باب الترف الشديد ، ولا أوافق مطلقا على إجراء عملية التجميل لمجرد اجرائها . وخذ عندك هذه الحادثة الواقعية وهى تدلك على ذبذبة الحب . أعرف أن رجلا أحب امرأة رغم عيوبها الخلقية الصغيرة . رغم أنفها المقوس . رغم صدرها الصغير . كانت عنده ميول شديدة بها وبشخصيتها ومن ثم لم يشعر بهذه العيوب ولم يفكر فيها ولم تخطر له على بال لأن الحب الكبير للشخصية ، يهمل التفاصيل بل ويمحوها ويتجاهل العيوب . وربما اعتبر هذه العيوب مرضية بشكل ما » لكن المرأة تريد أن ترضى حبيبها بأى شكل . كان كلما نظر لامرأة تصور أن لها أنفا جميلا ، وصدرا جميلا ناهدا ، وقررت أن تجرى عملية تجميل فى أنفها وفى صدرها . وأقنعته أنها سوف تسافر إلى الخارج . وكانت هى تدخل غرفة العمليات .. ثم ذهبت لتقابله وتفاجئه . ومن حبه لها لم يلاحظ مطلقا أنها غيرت أنفها أو صدرها ، فصورتها الأولى مطبوعة فى رأسه ، وحبه أكبر من هذه التفاصيل . ولفتت حبيبته نظره ! وتنبه الرجل ! نظر إليها نظرة فاحصة ليكتشف أن أنفها لم يعد مقوسا . وصدرها لم يعد صغيرا .. وثار صرخ فيها : أنا أحبك لشخصيتك لا لأنف أو صدر .. ومعنى هذا انك لم تكونى واثقة من جمالك أو حبى يوما .

أين الخطأ ؟

ويقول لى إحسان عبدالقدوس وهو يشعل السيجار الكوبى ويرسم بقلم رصاص دوائر فوق ورق أبيض : وصدقنى ، فتر الحب وأصبح فى الطريق إلى

الزوال .

قلت لاحسان عبدالقدوس : ما خطأ هذا الحب ؟

قال بسرعة : سؤالك يفجر قضية هامة . أن ما يضعف الثقة بين حبيبين هو أن ترى مثلا امرأة تحب رجلا لشيء واحد . ربما كان هذا الشيء . ثراءه . خفة دمه . شطارته . فلو كان غنيا وأصبح فقيرا ، اهتز الحب . ولو كان خفيف الدم وأصبح ثقيلا لأى ظروف ، اهتز الحب . ولو كان شاطرا وأصابته الخيبة . اهتز الحب . وفى كل مرة يهتز الحب ، تضعف الثقة . فالحب المحصور فى نقطة واحدة مصيره ضعيف الثقة . ومن ثم الزوال .. ونفس الشيء بالنسبة للرجل ، فإذا أحب امرأة ما لجمالها فقط فإنه بعد قليل سيفقد إحساسه بهذا الجمال ويصبح شيئا عاديا . ولأن الحب فى هذه الحالة محصور فى عنصر الجمال وحده ، فإنه يهتز . ويفقد الوهج . أنا أحب امرأة بكل ما فيها . أحب ذكاءها وشطارتها وخيبتها ! وهذا حب لا يفتر ولا يختل لأنه قائم على حب الشخصية كلها وليس من أجل « ميزة » واحدة .

فإذا وقع رجل أو امرأة فى حب من النوع الذى ذكرته حب « الميزة الواحدة » وضعفت الثقة واختل الحب . وسأل نفسه ، لماذا ذهب البريق وضاعت اللهفة ، عرف السبب ، وبطل العجب !

الشعراء والمفكرون والفلاسفة وصفوا « الحب » بكلمات كثيرة . أحفظ من هذه الكلمات عن ظهر قلب عبارة لا أذكر من قالها وهى « الحب هو أن يسير اثنان فى خط واحد » واحفظ عبارة ثانية تقول « الحب هو صداقة تصل إلى حد البكاء بعيون الآخرين » . واحفظ عبارة ثالثة تقول « الحب هو المسرات الحميمة التى تجعلنا نحس بذاتنا » . واحفظ عبارة رابعة قالتها غادة السمان « الحب كسر لصقيع الوحدة والغربة » .

واحسان عبدالقدوس ، كيف يرى الحب ؟ طرحت عليه السؤال .

قال إحسان عبدالقدوس : « الحب عندى اكتفاء ومسئولية » . وهذا تعبير واقعى عن حالة منتهى الحب وليس الحب العادى . فى حالة « منتهى الحب » يكون كل من الرجل أو المرأة « مكتفيا » بالآخر اكتفاء مطلقا . والاكتفاء ليس اكتفاء مظهريا ، إنما هو قائم على « الشبع النفسى » . والاعجاب بامرأة ما ، ليس ضد الاكتفاء . فالاعجاب « حالة نفسية » . تذوق للجمال الذى خلقه الله . والمسئولية هى الشعور بالحب لا بالواجب . فالمسئولية المبنية على الواجب مسئولية جافة روتينية ، والمسئولية المبنية على الحب ، مسئولية متجددة ، الرجل المحب لا يتردد فى حمل المسئولية . يحملها بحب وبعشق دون أن يشعر انها واجب مفروض . مسئولية الحب نابعة من الانسان نفسه . سعادة حبيبته هى سعادته وهو مسئول عن تحقيق هذه السعادة .

سألت إحسان عبدالقدوس : كيف أتأكد من حبى ؟

قال : عندما تشعر انك « مكتف » بامرأة واحدة هى حبيبتك ، وتشعر انك فى حالة شبع نفسى لوجودها فى حياتك ، وتحس إنك مسئول عنها بحب وعشق

وليس مجرد واجب تنفذه آليا !

قلت لاحسان : يغنى الموسيقار على لسان رامى « الشك يحيى الغرام » هل هذا حقيقى ؟

قال إحسان : أنا أختلف مع هذا الرأى . أنا أرى أن الشك يضعف الغرام وربما يقتله ! فالشك جرثومة خطرة . الشك أخطر وأصعب من البلاء نفسه . لأن المصيبة عندما تقع تكون قد حددت الأمر . أما الشك فلا يقبل التحديد . الشك يزرع ألف سؤال . الشك غابة من العذاب . الشك يعذب أكثر من أقسى الوقائع . الشك حالة مستمرة تنتهى بالقتل النفسى . والشك يبدأ عندما يهتز الحب ! عندما أحب إنسانة ما . فأنا لا أشك فيها مهما غابت . بالعكس ، إننى أبرر لها هذا الغياب . فإذا اهتز الحب ، فإن أقل تصرف أخذه بالشك ويعذبنى الشك حتى ولو كان على غير أساس . الحب الكامل السليم لا يتطرق إليه الشك مطلقا . لقد أحببت زوجتى ٤٠ عاما ولم أشك فيها مطلقا . هناك بالطبع أحاسيس صغيرة وليست شكا . كأن يقول رجل فى سهرة تضمنى أنا وزوجتى كلاما لا يصح أن يقوله . فهذا يحتاج للدفاع . ان ثورتى هنا للدفاع عن احترامى لامرأة أحبها . لذلك ارفض القول بأن الشك يحيى الغرام . اننى أرى الشك كالسوس ينخر فى شجرة الحب حتى يقتلها وينقل الحب من حركة « الدفاع عن النفس » لحركة .. الهجوم . فى بعض قصصى ، انتصر لرجل يقاوم الشك ، أنصحه أن يقطع علاقته بهذه المرأة .. قائلا : أنا أشك فيك .. ولن أراك بعد اليوم !

نعم ، لأن الشك هو « العذاب المستمر الفتاك للنفس » . ربما تسألنى الآن متى أشعر بالشك فى حبى والأجابة : إذا اختل الحب وضعف ، طفا الشك على السطح . والحل الأمثل أن تقطع العلاقة إذا تسرب إليها الشك .. إلا إذا كنت تتلذذ من عذاب الشك وهذه حكاية أخرى !

سألت إحسان عبدالقدوس : ماذا يعطى الحب للرجل ؟

قال الحب يعطى للرجل اكتفاء ويعطى للمرأة انسجاما وتوازنا . الحب الكامل استمرار . استمرار للعلاقة بشكل فيه بناء وفيه حافز لقد اعطتنى أمى يوما ما الطريق للكتابة ولكن كل مجد حصلت عليه . كان شهادة أقدمها لزوجتى لتفخر بى أكثر . من هذه العلاقة السليمة جاء أولادى « محمد وأحمد » ثم تزوج أولادى . وأصبح لى « أحفاد » .. وأحفادى أهم ما فى حياتى الآن ! أحفادى استمرار لحبى ولارتباطى ولكيانى كله . الحب يعطى المرأة الانسجام مع نفسها . المرأة ـ فى الحب ـ تبدو جميلة . تتألق . وعندما تحرم المرأة من الجمال ، تبدو صفراء وكالحة ! الحب هو الحالة النفسية التى تعطى كلا من الرجل والمرأة إحساس الجمال بالحياة والتكيف معها . الحب حافز كبير يدفعنا أن نعبر كل المتاريس ونقفز فوق المستحيلات . الحب يجعلك أقل وزنا يجعلك فراشة هائمة ..!

وقال إحسان ضاحكا : عندما تنظر للحياة بمنظار شاعر . وتكتشف إنك تتكيف مع صعوبات الحياة وتحس إنك فراشة ، فأنت فى حالة حب !

قلت لاحسان عبدالقدوس: قرأت مرة أن الحب كالنبات الأخضر، لكي ينمو.. لابد له من الماء والهواء. وبمعنى آخر، يحتاج الحب للرعاية والحنان وإلا ذبل ومات!

فأجاب: لايوجد حب يولد كاملا. الحب يولد كالطفل. يبدأ بالاعجاب. ولذلك أقول أن الاعجاب يساوى «وأوأة الطفل». هذا الاعجاب يكبر. وينمو ويتكلم. ثم يستكمل الحب عناصره. لهذا لا أومن مطلقا بالزواج من غير حب. فالزواج من غير حب صدمة. كأن حبا نريده أن يولد صناعيا. بيد أن الحب «نموه» بالضبط كالطفل ولهذا يعجبنى فى بعض المجتمعات المتحضرة الاعتماد على اختيار الولد للبنت.. واختيار البنت للولد. ذلك يتم أمام الأهل، فى النور. والشرع نفسه اعترف به فى صورة الخطبة. الخطوبة تجربة شخصية لولادة حب بين ولد وبنت. فهما - شرعا - يحاولان أن يصلا بالحب إلى الاكتمال، ويحققا نظرية «الحب واقع، قانون الزواج» الحب هنا، ليس لعبا، ولا شهوة ولا تسلية ومن هنا تنجح هذه الزيجات. واعترف لك أن أولادى تزوجوا بهذه الطريقة.

عن الاحترام فى الحب، سألت إحسان عبدالقدوس؟

فقال لى الاحترام أساس الحب. انت أولا تحترم امرأة ما، وتعجب بها، وهى أيضا تحترمك وقد تبادلك الاعجاب. ثم يولد الحب.. وينمو فالاحترام فى الحب هو أساسا احترام ذاتى. إنك تحترم حبيبتك وكأنك تحترم ذاتك.

قلت: وفى الخصام والخلاف، هل تقف مع «الكبرياء»؟

قال إحسان: الكبرياء من سمات الشخصية والكبرياء موقف وليس «عنطزة» أو عنادا. الكبرياء الذى يعيد «وصل الحب»، كبرياء أقف معه لأنه يعيد الحب - بعد الخلاف - إلى صفاء فيه احترام، ولذلك لا أقف مع «العناد» لأنه يدمر الحب ويقتله. تسألنى، متى تستخدم كبرياءك فى الحب؟ الإجابة: عندما يستدعى الأمر موقفا محددا من هذه العلاقة!

قلت لاحسان: هل الحب فن أم إنه أحاسيس تلقائية؟

قال: أنا مع التلقائية ولست مع الافتعال. أنا مع ذكاء العقل المنطلق. أسخف ما فى الحب التخطيط والافتعال. أنا لا أتصور الحب «بمكياج»! لابد أن ترانى حبيبتى فى أسوأ حالاتى وأراها فى أسوأ حالاتها. فإذا تأثر الحب، كان ضحلا! نعم، أن مقياس الحب هو تحمل الأخطاء والعيوب. فإذا لم تحتملك حبيبتك أو العكس، فالحب بينكما ليس كاملا. انه حب قائم على «المكياج» فلما زال «المكياج» لم يحتمل أحد الطرفين الآخر! وأنا لست مع التلقائية الساذجة. أنا انتصر هنا، لتلقائية «ذكاء القلب». إن بطلاتى مثلا يتصرفن بعفوية شديدة. وهذا يجعلهن مرغوبات فى نظر الأبطال الرجال. وعندما يتصرف «أحد» أبطالى بتخطيط محكم. فإن بطلتى تكتشفه وتجعله يحس أن التخطيط فى الاحساس لا يجدى. ومن هنا، فانا لا أؤمن أن الحب فن له قواعد. الحب حالة، تزورك أو لا تزورك! تسألنى: كيف أعرف بالزيارة؟.. أقول لك: تجد نفسك متحمسا للحياة، متكيفا معها، تفكر كطفل

وتتحدث كشاعر وتهيم كفراشة !

سألت إحسان عبدالقدوس عن « الغيرة » !

فقال إنها ضعف بشرى وارد فى الحب . فالحب فى صورته العليا عطاء . وفى صورته الواقعية أخذ وعطاء . ومن هنا ، تولد الانانية ، فإذا اعجبت حبيبتك مثلا بمطرب . فلهذا الاعجاب حدود . فإذا وصل هذا الاعجاب الى حد تخشاه . فهنا تندلع الغيرة .. وتنهش فيك ! المهم هنا أن تضع حبيبتك اعجابها فى اطار . لا يثيرك . وأحيانا تتعمد المرأة أن تثير رجلها ليغار عليها . ذلك يحدث حين تدخل معه معركة ، تشعر مثلا أنه معجب بامرأة ما ، فترد على هذا الشعور بادعاء الاعجاب برجل آخر ! وإذا كانت « الغيرة » مشاعر ضعف واردة ، فإن « قليلها » يفيد العلاقة ، وكثيرها يدمرها عن آخرها .. حين تصبح الغيرة مشاعر مرضية شرسة !

والغيرة فى هذه الحالة تجعل من البيت معركة ضارية . والحب المتكامل هو لقاء جميل للتخلص من الوحدة ولتحمل المسئولية المشتركة . والرجل الذى يعيش فى بيت تديره زوجة يحبها وتحبه ، مختلف تماما عمن يعيش فى بيت تنشب فيه « المعارك » لأسباب تافهة فى أى وقت .

قلت لاحسان عبدالقدوس : هل يموت الحب ؟

قال ببساطة لا تخلو من دهشة : الحب مثل أى شىء حى فى الحياة . فربما كان فى منتهى العافية ثم تقتله مفاجأة ما !

سألته : كيف يتغلب رجل وامرأة على « الصدمة العاطفية » ؟

قال : بالصلابة وقوة التحمل . الصدمة العاطفية ليست نهاية كوارث الدنيا .

قد يفكر الرجل فى قتل حبيبته الخائنة مثلا . وقد ينتحر ولكن بتفكير واقعى لابد أن يرفض هذا المنطق . سيقول لنفسه : سأتعذب ستة أشهر وبعدها أعود إلى نفسى متحررا من هذه المرأة . هذا يعتمد على قوة التحمل وحسن استخدام العقل .

قلت لاحسان عبدالقدوس : ماذا أردت أن تقول فى قصتك الشهيرة ، « ونسيت أنى امرأة » ؟

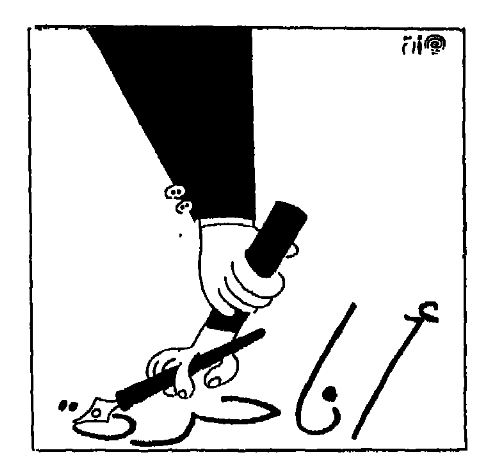
قال : أردت أن أقول ان المرأة تطغى عليها أحيانا أهدافها الشخصية وطموحاتها . فتهمل أنوثتها بل تتجاهلها وربما تنساها . إنها تحلم مثلا أن تكون صاحبة أكبر محلات ملابس أطفال مثلا . وتستغرقها هذه الطموحات مما ينسيها مطالب أنوثتها . فالرجل بالنسبة لها « أداة عمل » يمكن أن تشغله عندها أو تشاركه ، كل همها هو طموحها . ويصبح إحساسها كأنثى ، طارىء ! وفى لحظة ما ، تتكشف أمامها الحقيقة . وربما يأتى هذا الاكتشاف متأخرا . وفى قصتى استغرقت البطلة فى طموحاتها السياسية والاجتماعية حتى جفت كامرأة . ولم تعد تتفرغ لأنوثتها . وكأنها تعادى الطبيعة ! أما الزوجة التى ليس فى ذهنها غير زوجها ، فاحساسها الدائم بأنوثتها ، لا يفتر !

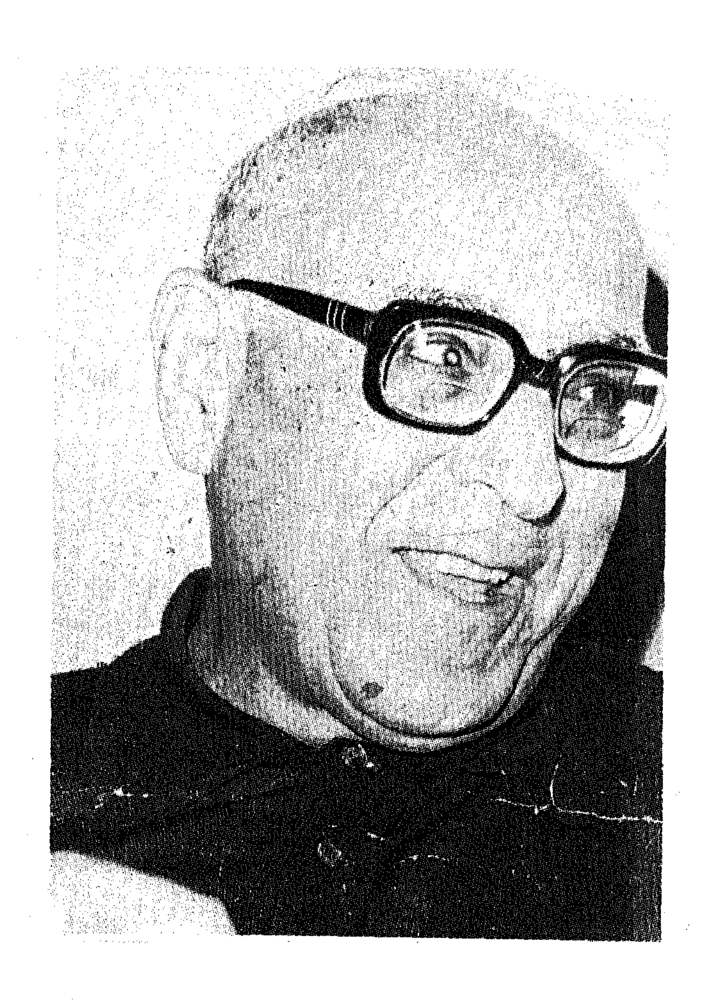
سألت إحسان عبدالقدوس: هل تعجبك « المرأة الآلية » التى تصورها المسلسلات الأمريكية على أنها قادرة على كل شيء؟

قال الكاتب الكبير: أجمل ما فى المرأة ضعفها. وفى ضعفها الأنثوى تكمن قوتها. والمرأة الآلية. مجرد تصور ليس واقعيا. وأنا أكتب فى الحب مثلما أكتب فى السياسة بمنتهى الواقعية.

وصمت إحسان عبدالقدوس.

ويبدو أنه نزل إلى أعماق آبار المرأة مرة أخرى ليزداد معرفة بمجاهل عالمها، وربما طرقت بابه فكرة ما فى قصته الجديدة. وهو لا يستطيع الاعتذار عن فتح بابه لفكرة. « والفكرة » أنثى !!





جيل الطغاة

د. زكى نجيب محمود

« .. أنا أعرف عددا لا بأس به ظفروا بقمم فى دنيا ثقافتنا دون وجه حق .. ! »

من المهم أن ننصت لشهادة هذا الرجل !

● القضية : ثقافتنا .. على الدرب .

المتهم : لا أحد يدرى على وجه التحديد ، أهى الدولة ، أم المثقفون أم أجهزة الثقافة ؟

● الشاهد : مناضل منذ الثلاثينيات حول محور واحد لم تفتر جذوته : « أن ينكمش الوجدان ويترك مكانه للعقل فى المواقف الحضارية » .

● الشاهد : لتقتربوا منه أكثر - رجل - عاش سنوات عمره « طالب علم » ويموت كما مات الجاحظ وعلى صدره كتاب !

رجل : يرتفع برأسه عن أسفلت الطريق محلقا فى هموم أكبر وكأنه سقراط يصيح « لست أثينيا ولا يونانيا ، انما وطنى هو العالم » .

رجل : سعادته ولذاته الكبرى كما رآها الغزالى « لا تنال إلا بالعلم والعمل » .

● الشاهد .. د. زكى نجيب محمود .

لا أريد أن ابدو فارسا يضع درعا على خواء لا فروسية فيه ، كما كان يقول أبو العلاء المعرى . ولا أريد أن أكون متشائما اتحدث إليك من محارة يأس .

أريد أن أدلى لك بشهادتى بغير استعلاء . فلست أسكن برجا ، والثقافة عندى نسيج حياة .

● ....

كأن الدكتور زكى نجيب محمود يؤدى « القسم » قبل .. الشهادة

● ....

عاد يقول ببصيرة قوية وان ضعف بصره .. من حسنات الحياة الثقافية التى لا تنكر انه يكاد لا يعطى وزنا إلا للابداع الثقافى . لمن يكتب قصة ولمن يخرج علينا برواية ولمن ينسج قصيدة شعر . المهم من يفرز ابداعا جديدا . أما من ينقل كتابا ، يجد اصغاء لكنه ليس الاصغاء . انهم يضعونه فى المرتبة الثانية .

أضف إلى هذا ان مكافآت الدولة صارت للمبدعين دون غيرهم . لم يكن هذا سائدا فى الجيل الماضى . جيل العمالقة ، طه حسين والعقاد ولطفى السيد وهيكل . كان قدر الابداع أقل بكثير من حجم العرض الثقافى !

● ....

هل يستعد د. زكى نجيب محمود ليفجر قضية هامة تخص جيل العمالقة ؟

● ....

يقول الشاهد : نعم ، لقد كانت مهمة جيل العمالقة أن يعرضوا علينا بضاعة ثقافية ليست لهم فى الأصل . كانت لهم قدرة قادرة على الاستيعاب والهضم ثم اعادة العرض . وكانت البضاعة الثقافية المعروضة ذات مصدرين !

بضاعة العرب الأقدمين وبضاعة أوربا . ما من واحد من هؤلاء إلا وتعمق فى فكر الأقدمين أو فكر أوربا .

ولذلك أقول ان طه حسين والعقاد وهيكل وغيرهم كانت لهم اليد البيضاء علينا فى أن فتحوا لنا نوافذ العالم الفكرية وبوابات العرب الاقدمين ، ولكنهم لم « يبدعوا » بقدر ما عرضوا . أنا لا أنكر أن لكل منهم ابداعه الخاص ولكن أهميتهم تنبع من انهم كانوا أشبه بصاحب مطعم يقدم الأطباق فقط وهو لم يصنع شيئا منها . لقد قام بدور « الطاهى » لتكون فى أحسن صورة وألذ طعم ! ونعم ، أتفق معك فى أنهم كما تقول كانوا « جيل طهاة » . كانوا بالفعل يطهون نوعين من الطعام . طعام شرقى وآخر غربى ومهارتهم فى الطهو ليست محل جدل ! الخلاصة ان مساحة الابداع عند جيل العمالقة كانت أقل !!

كانت السمة الغالبة على انتاجهم « النقل » قبل « الابداع » !

قام د. زكى محمود وأغلق النافذة (يسكن الدور الثانى عشر من عمارة تطل على كوبرى الجامعة) .

قال ضاحكا : تأتيك الضوضاء من كل اتجاه . تحاصرك . كأنها تحول بينك وبين أن يصل صوتك للآخرين !

بعد قليل جاءت د. منيرة حلمي زوجة المفكر وفي يدها صينية فضية فوقها فنجانان من القهوة قدمتها لنا بعذوبة المرأة التي تحيا في ظل فيلسوف رغم انها استاذة في علم النفس. شاركتنا الجلسة بصمت زوجة يابانية صمت واع وأدب جم عاد يقول لي د. زكي نجيب محمود:

أبناء هذا الجيل، قدرتهم محدودة في فهم ما قاله العرب ومحدودة جدا في فهم ما تقوله أوربا! وأصارحك أكثر. انهم لا يحسنون العربية ولا يحسنون لغة أجنبية. لكنهم لجأوا - وأقصد الموهوبين - الى الابداع. الى التعبير عن أنفسهم. لجأوا الى القصة والرواية والقصيدة والمسرحية واللوحة، ولحسن حظهم أن الاتجاهات الجديدة كما يسمعون عنها لا كما يدرسونها أعطتهم الفرصة للهروب من القوالب. فليس هناك «معايير» محددة للذوق.

فالذي يرسم لوحة، يعبر عن نفسه كما يهوى ويشاء. والذي يكتب قصيدة. لا يتقيد بوزن. وكتابة قصيدة لها وزن معناها التعمق في قراءة الشعر القديم وهم لا يقرأون وهم لا يحسنون بموسيقى الشعر!

من حسن حظ أبناء هذا الجيل ان من لا قدرة له يستطيع أن يدعى انه يبدع، مع ان هذا الابداع لا يستند الى قواعد متفق عليها. وصارت «هيصة»!

● ....

كنت أنصت بشدة لهذا «التشريح» لأبناء هذا الجيل من د. زكي نجيب محمود! لقد قال فيهم كلمته: قدرتهم محدودة في فهم ما قاله العرب وما تقوله أوربا! لا يحسنون اللغة العربية أو أي لغة أجنبية! لا يقرأون! لا يحسون! يدعون! صارت المسألة هيصة! هكذا لخص الموقف. شهادة قاسية!

● ....

يقول لي «الشاهد»: لنذهب بعيدا. الى أمهات القضايا. لنعبر الشكل وندلف الى المضمون. ما الذي جعل حياتنا الثقافية تنتكس. هذا هو بيت القصيد. وليس تعيين «وزير» للثقافة أو تشكيل «مجلس أعلى للثقافة» أو غيره من الصيغ المقترحة موضوع الحديث والجدل! بيت القصيد هو التعليم والأمية، كيف يسير التعليم في بلادنا؟ وكيف مازالت الأمية تنشب أظافرها في عنقها؟ وإليك شهادتي.

١ - التعليم سيىء. بحكم الأعداد الغفيرة والضيق الاقتصادى الناتج عن حروب دخلناها!

٢ - كانت نتيجة التعليم - على أحسن الفروض - انه يقدم لنا خريجا ضحلا يعرف بضعة أسطر.

٣ - التلاميذ - في عصرنا - يذاكرون مذكرات أعدتها لهم السوق. ان معلوماتهم نتاج الملخصات التجارية، وهي تتبخر بعد الامتحان مباشرة! وصار كتاب المدرسة في خبر كان، وأصبح التفوق رخيصا. فمن يتقن حفظ الملخصات السريعة، يحقق أعلى الدرجات!

٤ - أعطانا التعليم بصورته المخزية، إنسانا بلا رأى. بلا رؤية. بلا ابداع ذاتي! أليس من المهم ونحن نناقش قضايا الثقافة أن ننفذ الى الأصل والجذور أم نظل ندور في دوائر مفرغة؟ أليس من المهم أن نعيد - مرة أخرى وبجدية شديدة -

قراءة ورقة التعليم . محتواه ، هدفه ، أبعاده ، هل أبالغ فى الأمر ؟!

● ....

أبدا . يا سيدى . أنت لا تبالغ . أنت تضع يدك على « الجرح » وتطالبنا أن نعرف سره قبل أن نضمده !

● ....

يقول د. زكى نجيب محمود بهدوء المفكر : من ضحالة التعليم يتفرع كل ما نراه الآن من ضحالة فى أمورنا الثقافية . أنت تخرج لى من الجامعة خريجا لا يستطيع أن يقرأ فعلا صفحة واحدة باللغة العربية أو بضعة سطور باللغة الأجنبية . صحيح عنده الاستعداد .. ولكنه عاجز ! فى أى ساحة يوظف هذا الاستعداد ؟ هو لا يستطيع أن يقرأ أيضا ما قاله الأولون . ولا ما تقوله أوربا ! هو مضطر أن يصب استعداده أو موهبته فى .. ضحالة ! يكتب قصة أو مسرحية أو قصيدة ليس وراءها شىء من الفكر ! من السهل جدا لمثل هذا « المتعلم » أن يقاد وأن يقال له أكتب لنا كذا .. فيكتب ! انه غير قادر على التمييز . وهنا الطامة الكبرى . أتذكر بيتا من الشعر القديم لا أعرف من الشعراء من قائله . كان خصمه يقول « أنا عندى أن الرأى هو .. » فقال الشاعر ساخرا : اسمعوا .. كأن له « عنده » يقول عندى .. من أين جاء له ما عنده ؟!

أصارحك أن انتاج اليوم أغلبه : « موهبة نابعة من خلاء » ! وأصارحك أن أغلبه تفاهة فى التصورات خصوصا فى السينما والمسرح والتليفزيون أليس هناك ما يحرك الذهن ويجعله يتساءل تساؤلا غير مباشر . انها « سلبية المتلقى » . وهذه كارثة !

ان هذه السلبية ، تجعل المثقف ، عاجزا عن الرأى والمعارضة المستنيرة . اننا فى قضية كالاشتراكية مثلا ، لا نعرف ميزانها الحقيقى الذى نحكم به . هل نجعل « الرحمة » قبل « القدرة والتنافس » ؟! ان أفكارا كثيرة فى الحياة تحتاج للتمييز . تحتاج لمثقف قادر على رؤية الظلال ، وهذا هو الذى يعطى الحياة طعمها وعمقها .

خذ مثلا فكرة « الديمقراطية » . ان المثقف الواعى يتساءل أى ديمقراطية تحكمنا ؟ ان التعليم الضحل يقدم لنا الانسان السلبى . اعداد القطيع .. التى تخلق الطغاة ! لهذا دعوت فى كتابى تجديد العقل العربى الى صحوتنا !

● ....

قبل اللقاء بالدكتور زكى نجيب محمود ، كنت قد قرأت كتابه الذى خرجت منه بثلاث نقاط رئيسية :

الأولى أن « الرأى » نأخذه من غيرنا ، فنحن « اتباع » لا أصحاب آراء مستقلة .

النقطة الثانية ان الحاكم المستبد الذى يصادر الرأى يصادر فى نفس الوقت حرية التعبير فى كل صورها .

النقطة الثالثة ، ان قامة المرأة قصيرة مهما ادعينا انها طويلة ونالت حقوقها ! انه يهز القيم الموجعة للعقل !

● ....

د. زكى نجيب محفوظ لا يدخن أنه يمتص رحيق الحياة من خلال التأمل .

مسح الشاهد زجاج نظارته، نظر الى ساعته، عبث بشعره الأبيض. أسند ذقنه على يده وتكلم، فأعطيته كل الاصغاء.

□ شـــهادة مفـــكر على عصـــره

هناك قضية اسمها غلاء مصادر المعرفة أو انسدادها. نحن نريد أن نتصل بالعالم. لا نريد كمثقفين أن ننعزل. نريد أن نعرف ماذا يقول الفكر الأوربى. أريد الكتاب. من أين أشتريه لو وجد؟ لقد مرت علينا فترة طويلة أطلق عليها التعقيم الثقافى. السؤال الثانى: لو وجد الكتاب، بكم أشتريه؟ لقد سألت مرة ناشرا: أين تكتلات القراء؟ فقال لى: أكثرهم مدرسو المدارس الأولية وهؤلاء غير قادرين على الشراء! انها أيضا قضية اقتصادية.

نأتى لنقطة أخرى أنت تثيرها وهى أجهزة الثقافة فى الدولة. أقول لك فيها شهادتى.

● الدولة معذورة إذا قالت أنا أخدم دافع الضرائب: الجمهور العريض!

● الدولة معذورة إذا عبرت فى خدماتها الثقافية مجتمع النصف فى المائة أى مجتمع الصفوة!

● تكون النتيجة ان هذه الأدوات الطاغية (الراديو والتليفزيون) قد قامت بدورها الوحيد: التسلية!

● الثقافة فى التليفزيون، مضحكة. فالموضوع الواحد يتمزق بين عدد من المتحدثين فى وقت غير كاف دائما. وأخرج بلا شىء!

● مصدر الثقافة الأساسى عندى هو: الكتاب. وقد بدأ ينحسر دوره!

● الأجهزة الثقافية حتمية. فهذا عصر له أدواته. ما كان من المفروض أن تطغى هذه الأدوات على الكتاب. وما كان من المفروض أيضا أن تنسى فريق الصفوة لأنهم هم «المنتجون» لهذا الجمهور العريض فى نهاية الأمر!

● أذكر لكاتب فرنسى رأيا بارعا يدلل كم أصابنا «الأذى» من وراء سيطرة الأدوات الطاغية. يقول: عندما نهض العرب الأقدمون نقلوا الثقافة اليونانية. ولنفترض ان ثقافة اليونان هذه كانت عدة أشرطة اذاعية وتليفزيونية. وجاءت حضارة جديدة وثقافة جديدة وأرادت أن تزود نفسها بفكر اليونان. ماذا تجد لتنقله؟ ان الصورة تتجسم حقا فى هذا المثل!

ولكن لأن هذه الحضارة وجدت الكتاب، فقد وجدت «المنهل» الحقيقى. خذ مثلا، الأزهر فى القرون الثانى عشر والثالث عشر والرابع عشر. فى مصر كان التراث العربى الاسلامى على وشك الضياع. فماذا فعل؟ لقد قام بدور عبقرى. انصرف طيلة قرنين ليجمع الثقافة العربية قبل ضياعها. فتجد «موسوعات ثقافية» مثل صبح الأعشى، وكتبا مستفيضة فى قواعد النحو. وبهذه الكتب، تشير بأصبعك: هذا هو التراث العربى والاسلامى.

أصارحك، أنه اذا كان عصرنا هذا سيجعل الركيزة الأولى فى ثقافتنا هى الأشرطة الاذاعية والتليفزيونية، ستمضى الأيام ويأتى قرن جديد يبحث عن تراثنا، فلن يجد سوى «ثقافة هوائية»، وهذه كارثة!

● أما أن يدير أمور الثقافة القطاع العام أو القطاع الخاص، فهذه جزئيات. أنا لا أميل الى تقسيم البشر تقسيمات صيدلية. لا يوجد شىء اسمه شبح قطاع عام أو

شبح قطاع خاص . المهم : المناخ الذى يتيح لى ان أكتب الرواية والقصيدة والمسرحية ففى نهاية الأمر . أنا الزبون . أنا الكاتب . أنا المؤلف ! خطر واحد فقط ، أحذر منه هو أن القطاع العام فى الجهاز الثقافى قد « يكلفنى » بكتابة كتاب لا أؤمن به ! ومن الوجهة العملية الصرفة لم يحدث هذا !

● ....

أشعر انه كلما طرحت قضية ما على محدثى الفيلسوف ، انه يعبر سطحها البراق وينفذ إلى أعماقها . ومن هنا ، فهو لا ، يحزن ، وقد عرف أصل السبب . ومن هنا فاحساسه بالشقاء أقل . أهى الحكمة ، تجعله ينجو من الشقاء الذى يصيب الانسان العادى ؟ والسؤال يقفز فوق لسانى : هل هناك ما يشقى د. زكى نجيب محمود ؟!

● ....

نعم تشقينى أشياء كثيرة .. رغم كل ما قلت !

يشقينى فقدان العدل عند المفاضلة . يشقينى كل الشقاء عندما أنظر الى دنيا الثقافة فى مصر فأجد ان الذين يعملون ليسوا هم الذين يكافأون .. والعكس صحيح . الذين يكافأون . كثيرا جدا ما يكونون من غير العاملين ! والسؤال : كيف يكافأون ؟ والاجابة : بالفهلوة ! يكفى أن يسمع صوته بأن يقول : أنا هنا ! وبأى طريقة . وأنا أعرف عددا لا بأس به ظفروا بقمم فى دنيا ثقافتنا ربما يكونون بغير انتاج على الاطلاق ! ولكن الخيال لم يعد يتصور غيابهم ! انهم الأعلى .. صوتا !

● ....

ولكن الخيال ، لم يعد يتصور غيابهم ! أردد العبارة لأنها هزتنى وتكشف المأساة التى تشقى مفكرا معطاء كزكى نجيب محمود !

● ....

عاد يقول الشاهد : أضيق بهذه الصورة على هذا النحو ! اننى أعد هذا اختلالا فى التقدير وظلما ! ربما يظن واحد انه كاتب كبير ، ولكن أحدا لم يسلط عليه نقدا ! . ماذا يفعل ؟ لا شىء . لماذا ؟ لأن الزفة كبيرة ، والطبل أكبر ! معظم الناس يقيمون تقديراتهم فى حياتنا الثقافية على أساس الضجيج لا البحث أو التحرى ! وفى غياب الناقد النزيه والقادر .. تختل معايير كثيرة ! يشقينى هذا للغاية !

● ....

أريد أن أسأل الشاهد عن الأدباء والشعراء والروائيين .

أريد أن أسأله عن توفيق الحكيم ونجيب محفوظ وحسين فوزى وصلاح عبدالصبور . د. زكى نجيب محمود ، فيلسوف « يخون » الفلسفة مع الأدب . و« يخون » الأدب مع الفلسفة . وهى خيانة يمارسها بشرعية !

وأتذكر أن العقاد أهدى ذات مرة احدى عبقرياته للدكتور زكى نجيب محمود وكتب فى الاهداء عبارة استعارها من « أبو حيان التوحيدى » . إذ قال « الى فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة » . فهو يمزج فى اهتماماته بين الفلسفة والأدب . الفلسفة هى مرتزقه ولكنها أيضا حبه وهواه .

وعندما يتكلم زكى نجيب محمود مع الفلاسفة ، تأتى النبرة مختلفة . يتصاعد

منها رائحة الأدب ونكهته العذبة . وعندما يتكلم مع الأدباء ، يبدو فى النبرة طعم الفكر الفلسفى .

١ ـ هذه شهادتى عن نجيب محفوظ روائيا ، مادمت تسألنى عنه . نجيب محفوظ سار على الصورة التقليدية التى يريدها نقاد القصة فى الغرب مدة طويلة .

الآن ، ألاحظ عليه منذ روايته (الحرافيش) انه جنح جنوحا قد لا يرضى الناقد الأوربى ولكن ليس عليه من بأس فى ذلك لانه يخيل لى انه يريد أن يعيد تقليدا قديما هو اسلوب « الراوى » . ليس شرطا ان تكون هناك حبكة ! القصة الجديدة صارت تفتقد العناصر الأساسية . اذا ضمنت للناقد حبكة صحيحة وشخصيات مرسومة صح ، يعطيه جواز السفر .

نجيب محفوظ راعى فى « الثلاثية » هذه القواعد ثم صارت رواياته الجديدة تصور مجاميع أكثر منها « اشخاصا » . صار مهتما بالنمط الحياتى أكثر من بناء الشخصية . كما لو كان يضع فى مسرح روايته « مخبارا » يقيس به شيئا ايريد أن يصل الى « كيمياء » العلاقات الانسانية فى هذا المكان ! وربما كنت مخطئا !

٢ ـ تسألنى عن انتاج توفيق الحكيم الأخير ، أقول لك شهادتى : ان توفيق الحكيم الأول ، المديد الذى امتد من أواخر العشرينات والثلاثينيات والأربعينيات ونقول والخمسينيات .

ولكن توفيق الحكيم ـ الآن ـ مثل ٩٩٪ من الموهوبين فى دنيا الأدب ، يجىء يوم ، تنفد قضاياهم خذ مثلا طه حسين فى العشر سنوات الأخيرة من حياته ، ماذا قال ؟! خذ العقاد ، لو طرحت على يومياته فى الأخبار التى كان يكتبها فى سنواته الأخيرة . هل هذه هى العقاد ؟! بالقطع لا ! لكن العقاد هو العبقريات ثم انتهى فى أواخر الخمسينيات !

كذلك توفيق الحكيم لم ينته ، ولكنه يخرج علينا برؤوس موضوعات . هى رؤوس موضوعات لها قيمتها وتحرك الذهن كأنها شهب . كنجوم تلمع وتسقط ولا تستقر ! ان توفيق الحكيم مجموعة شهب ، الآن !

٣ ـ تسألنى عن د. حسين فوزى ، أقول لك بصراحة شهادتى : الحقيقة انه لا يمكن تأريخ ثقافتنا المعاصرة بغيره ! الذى يبقى من الأديب أو الكاتب فى نهاية الأمر هو مقدار تأثره فى حساسية الجمهور . استعدادهم للقبول أو الرفض . د. حسين فوزى له جهد لا ينكر فى اعداد الحساسية الخاصة التى تتقبل ثقافة الغرب برضا وتذوق . وهذا الدور مطلوب .

٤ ـ تسألنى عن صلاح عبد الصبور شاعرا . اننى أراه فى « الحلاج » وربما جف نبع صلاح عبد الصبور ! ولا يلام ! كم من فنان أو شاعر ينتهى بعد فترة مركزة . ان للقضايا عمرا فى ذهن الشاعر أو المفكر . انها تستنفد بعد حين ، وربما اكتسب الشاعر مكانته من حلوله الجديدة للقضايا . ان للخصوبة .. عمرا !! ومازلت أقول ان صلاح عبد الصبور هو الذى يلفت نظرى بما كتبه منذ حين . ففيه ولاشك اللغة الجديدة وصدق الشعور والمعاصرة ولا أعرف سواه يلفت نظرى . لقد كان محمود حسن اسماعيل حاد الوجدان ولكنه لا يمثل عصرا جديدا وان كان ينتمى لجيل أسبق !

اننى من المؤمنين بأخذ حضارة هذا العصر بأهم ما فيها . ولست من القائلين اننى « أنخل » حضارة العصر ، استفيد بالجيد واستبعد السيىء . هذا تقسيم خاطىء . أريد أن أضيف الى ثقافة بلدى اضافة عضوية .. وصوتى خفيض .

هناك أسس لا يمكن أن استغنى عنها من ثقافتى العربية والاسلامية . حضارة العصر لا يؤذيها أن تتكلم لغتك . لا يؤذيها أن تنظم حياتك على أساس تشريعك . يؤذيها ان تقف وقفة غير علمية . يؤذيها أن تقف وقفة غير تعاونية . يؤذيها أن تقف وقفة سلبية . أنا لا أضحك ـ مثلا ـ مثل الكثيرين على « الهيبز » لأن اطالة الشعر ليس معناها السلبية واللامبالاة . هذه نظرة بأفق ضيق . اذهب لتر هذا الهيبز وهو يؤدى عمله . ستراه جادا . المهم عندى الانتاج لا الاستهلاك ! المهم أن افخر بما قدمت وأنتجت ، فليس الفخر هو قدرتى على الانفاق !

اننى أعد ـ ردا على سؤالك ـ « مسز كاسجل » من أهم وابرز الروائيات الانجليزيات فى القرن التاسع عشر . أهميتها عندى انها صورت فى الحياة الانجليزية عبر قصصها : النفاق ! ذلك الذى يضع حائطا سميكا بين حقيقة الشخص و .. مظهره ! اننا نريد أن نضع أصبعنا على الفارق الشديد بين قدرتنا الحقيقية الانتاجية .. ومظهرنا الانفاقى . سواء كان ذلك على مستوى الفرد أو الدولة . تلك هى الراية التى احملها ، وأناضل ، منذ الثلاثينيات الى يومنا هذا !

● ....

و .. صمت الشاهد !

شرد د. زكى نجيب محمود . ربما فاجأته « صحوة قلقة » أو « حيرة ما مؤرقة » . ان ذهنه خارج حدود الجمجمة !

قطعت ذلك الشرود الواعى :

● **هل لديك « أقوال » أخرى ؟**

قال فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة مبتسما :

ـ نعم .. عندى ! فالانسان ليس اقوالا فقط . انما افعال وسلوك قد تثير عليه مشاكل .

قلت همسا كل فعل انسانى يحمل مشكلة أو يؤدى الى مشكلة . والموت وحده ـ كما يقول زوربا اليونانى ـ هو الذى لا مشكلة فيه !

* * *



فتحى غانم

« تحدى الإنسان الدائم للموت ، يشغلنى ! »

لا أحد يكره الأحاديث الصحفية مثل الكاتب الروائي فتحي غانم انه يعتبرها « مضيعة للوقت » ! وقد حاولت اقناعه ان القارىء الذى يحتفى به ويقبل بنهم وشغف على مؤلفاته يهمه أن يعرف فتحي غانم ، الانسان وأفكاره ومكونات وجدانه وشيئا ما عن حياته الشخصية . ورفض فتحي غانم هذا المبرر لاجراء حديث صحفي معه قائلا ان هذا يشبه. كما يقولون .الباعث على مقابلة « أوزه » والحديث معها لأنى مثلا أحب فطيرة من كبد الأوز !

وعندما قلت لفتحي غانم انه من الضرورى أن يتعرف الناس على رؤاك الأدبية . قال بسرعة : « انها في رواياتي . والحديث الصحفي لن يكون بأى حال .. الجدار النهائي لأفكارى » .

وأردت أن استفز فتحي غانم ، فربما كانت هذه وسيلة للوصول الى اتفاق معه على المقابلة . فقلت ان الأديب الايطالي الكبير « البروتو مورافيا » يعتبر المقابلات الصحفية والأدبية مع الكتاب والروائيين جزءا مكملا لأعمالهم الأدبية وضوءا كاشفا لشخصيات رواياتهم .. بل انه قال ذات مرة « ان المعارك الصحفية والهجمات النقدية تنعشنى » . وصمت فتحي غانم ثم انطلق يضحك وقال :

« بيد انها لا تنعشنى أنا » .. واستطرد يقول : ان ما ينعشنى حقا هو دراسة نقدية يجريها ناقد جاد بمعزل عنى . ان هذا بمثابة اعادة اكتشاف لى ولفنى الروائي .

عدت أقول لفتحي غانم : ربما أخطأت في العرض . ان ما أريده ليس حديثا صحفيا يصحبنى فيه مصور صحفي شاهرا عدساته في وجهك . انه أبعد من هذا أريد أن أتحاور معك .

أريد أن أتقاسم معك « حوارا » . فإنا وهذه ملاحظة شخصية ، قد عملت معك وتحت رئاستك ، وعرفتك قليل البوح . نادر الكلام ، أقرب ما تكون الى الغموض !

قال بسرعة .. هل هى محاولة اذن لازاحة الغموض عنى ؟

قلت : بل هى محاولة للتعرف عليك أكثر . للرحلة الحميمة في أعماقك أكثر . للتريض معك ومع شخصياتك الروائية أكثر !

ويبدو انني نجحت في اقناع فتحي غانم بصيغة الحوار معه لأنه ضحك وقال « حدد الوقت وأنا مستعد » !

قالها بطريقة لاعب الشطرنج الماهر الذى يعلن عن قبوله للدخول فى مباراة مع « هاو » .. مثلى !

وعصر أحد الأيام ، وكان الجو باردا .. قلت لفتحى غانم وأنا حريص على استرساله وعدم مقاطعته :

انك تستخدم عقلك فى رواياتك ببعض من الخبث !

□ أنا أمهد لشخصيات رواياتى بمكر

قال فتحى غانم : ربما استريح أكثر لكلمة « المكر » وهذا حقيقى ! أنا أرى ان الروائى لا يجب أن يعبر عما يريد بطريقة مباشرة وإلا صار ما يكتبه مقالا ! الروائى يجب أن يعرف أصول اللعبة . لابد أن يجيد التحضير بمكر لشخصياته لابد أن يعرف كيف يمهد للمواقف القادمة . أنه فن الصنعة عند من كان قدرهم الرواية . ففى أى موقف ، حيث تبرز الأزمة أمامك ، كقارىء لرواية ما ، يكون الروائى قد استخدم « المكر » فلا هو يكشف لك أبعاد الموقف بوضوح ولا هو « يعتم » عليك الصورة . لكنه يخلق فيه حالة من الحيرة تدعوك للاشتراك مع الأبطال فى أزمتهم . هذا هو العقل ودوره فى فن الرواية . فإذا كان الفنان يمضى فى رحلته مستكشفا شواطئه وبحاره ، فإن بوصلته هى العقل . العقل المكار ، كعقول الأطفال . إذ بدون هذا « المكر » تفقد الطبخة ، طعم الملح !

قلت للروائى الكبير : فى أولى رواياتك .. كان الموضوع بالنسبة لى غامضا . اخترت مسرحا غريبا قرية القرنه فى الأقصر .. هناك فى صعيد مصر . ولكنى شعرت انك « فى أعماقك » تصمم المكان وتتصوره قرية ما ، تحت أى سماء ماذا قصدت برواية الجبل طالما ان العقل شريك للفنان ؟

قال فتحى غانم : رواية الجبل ، هى أولى رواياتى . وقد طرحت فيها موضوعا كان يحيرنى وهو الرغبة فى الاصلاح . انها عملية تحتاج لوقفة موضوعية . فى شرقنا العربى عموما ، نأخذ الرغبة فى الاصلاح بعاطفة مشبوبه وبحماس رنان وأحيانا نتشنج ونصرخ « يجب الاصلاح فورا . الاصلاح ضرورة . الاصلاح أولا » . ندخل فى منطقة الشعارات وننسى ان الاصلاح قضية معنوية لا تتم بين يوم وليلة . انها عملية استيعاب لعادات نفسية وذهنية .. ثم تغييرها ببطء وعلى مدى بعيد .. دون انتظار سريع للعائد ، الاصلاح باسلوب يجب . يجب . يجب ، ينتهى الى مسار آخر غير ما نبغيه منذ البداية .

هناك ظروف مجتمع . فكيف نتعامل انسانيا مع ظروف مجتمعنا . ذلك ما كان يسيطر على وأنا أكتب الجبل . ان التخطيط لمشاريع اجتماعية يحتاج فى الواقع الى فهم كامل للأرض والناس والدواب التى ستكون حقل التجربة . ان عدم ادراك هذا فى عملية الاصلاح الاجتماعى يجلب .. الصدمات . وهذه حقيقة ! وفى رواية « الجبل » تعرضت لعملية قرية نموذجية جاءت لتبيد عادات أهلها وقيمهم السائدة . لقد شاركوا فى بناء القرية بدلا من الكهوف التى كانوا يعيشون فيها .. ليس من أجل التغيير ولكن من أجل « الأجور » التى تقاضوها عن جهد البناء . ثم اكتشفوا ان هذا البناء الجديد يعاديهم ويعادى مفاهيمهم ، ويبعد عنهم الحيوانات التى يستأنسون بقربها منهم .

فماذا فعلوا فى النهاية ؟ حرقوا القرية الجديدة .. وظلوا فى الكهوف ربما حتى

الآن . هذا هو « مضمون » رواية الجبل .

قلت لفتحي غانم : انه مضمون أردت أن تعبر عنه برواية . أليس هذا من واجب عالم الاجتماع أكثر من الروائي ؟!

استفـز السؤال فتحي غانم . فصمت ثم ضحـك وقال : وسيلتي مختلفـة . أنا أطرح قضية باسلوب روائي ولكني لا أتعرض لنظريات أو أقف كالخطيب . أو ألقي محاضرة . كلنا ـ في نهاية الأمر ـ نعبر أنا برواية ، وعالم الاجتماع بدراسـة . انها رؤية ، يراها الفنان والعالم كل على حدة من زاوية .

كان الدفء الذي أحس به . هو ذلك اللقاء الحميم من النقاش الساخن والبارد أحيانا .. مع الكاتب الروائي فتحي غانم كمباراة شطرنج ، كان الحوار . انه لا يـرد على « لعبتي » إلا بتأن شديد وفهم كبير . لا يتهور . وإذا تحمس ، فمن باب اتقانه . وإذا صمت ، فهو يفكـر . وإذا ضحك فهو يفكر أيضا ولكن بـاسلوب آخر . وليس من الضـروري ان يعبر هذا الضحك عن سعادته ! ان مفـردات سعادته أو تعاستـه . مفردات خاصة به !

وقد كان من الضروري ان أتسلل اليه ، فهو لا يحب البدايات المحددة . لقد اعترف لي مرة انه يعشق « اللعب بالاسلوب » .

قال مرة « أحب أن أوجد في قلب مباراة لم أتفق مع خصمي على اللقاء » . ولكن كيف أبدأ المباراة بدون صفارة الحكم .

ان تجربة الحوار مع فتحي غانم ، مغامرة . ولكن كان من الضروري أن أمضي في الشوط الى آخره .

قلت لفتحي غانم وكأني أفكر بصوت عال أشعر ان الرواية عندك أشبه ما تكون بمعمار فني دقيق . وأحس انك مهندس تتميز أعمالك بالرقي والنضج والعالمية انك تعبر في رواياتك الحدود الجغرافية ، وتمد جسورا الى العالم ، ربما لأن بطلك هو الانسان دائما .. في أي أرض وتحت أي سماء .. ودعني أقول انك فنان يستخدم عقله بذكاء . ويحيرني سؤال : هل الفن عملة يسيطر عليها العقل ؟ هل يضبط الفنان شطحاته ـ ان صح التعبير ـ على ساعة العقل وعقاربها المحددة بالدقيقة والثانية ؟

استوعب فتحي غانم السؤال جيدا وقال : هكذا أتصور الأمر .

ان العقـل مطلوب دائما ، انه شريك الفنان . والعمـل الفني أشبه مـا يكـون برحلة . الغريب في هذه الرحلة انـك تحدد الهـدف . ولكن الاتجاه الـذي تفكر فيـه ـ أثناء هذه الرحلة الفنية ـ يتغير . فهي ـ في نهاية الأمـر ـ معركـة مع العقـل ومع العواطف ومع النفس ، مع الآخرين مع التجارب ، مع الذكريات ، مع الظروف مـع الـورقة والقلم . لأنـك حين تمسـك بالقلم وتجلس لتكتب ، فـإن هذا دون ان تحس وسيلة من وسائل المعرفة . للدقة أكثر ، وسيلة من وسائل الاستبصـار . ان ظـروف الكتابة نفسها قد تملي على الكاتب نمطا من الكلمات والتعبيرات . ان منـاخ الكتابـة يـدخل في كيميـاء العلاقـة بين الكـاتب وما يكتب . وأحيـانـا ـ وهـذا ينطبق عـلى الروائي ـ يجد نفسه يرتاد مناطق لم يفكر فيها من قبل . ويذهب في بـراري لم تخطر لـه على بـال . وبأسلـوب الروايـة ، ويمشي في سكك لم يخططلهـا من البدايـة ، ان الكتابة مغامرة يحـرسها العقـل وإلا كانت عبثـا وفوضى . وأنـا كروائي ، عـلى أن

أتحمل مفاجآت المغامرة بما فيها بل وأخطرها مفاجآت نفسى! لقد أفاجأ من داخلى بأصوات وذكريات وبمواقف وبمشاعر تفرض نفسها. وتقوم معركة بين ما «أتصوره» بعقلى وبين هذه الأصوات الداخلية الملحة ونتيجة هذا الصراع هى التى تحدد «مسار» الرواية.

قلت للروائى المكار وأنا استخدم اسلوبه فى الحوار.. ماذا كانت رؤاك فى رواية الساخن والبارد؟

أخذ يجتر- فيما أظن -شخوص هذه الرواية، لأنه أجاب بعد قليل. وقال: فى «الساخن والبارد»، طرحت قيمة لقاء الشرق بالغرب. والفرق بين الانفعال العاطفى والصدق العاطفى مقابلة بين حضارة من الشرق وتقاليد من الغرب. امتحان للقيم فى الشرق وامتحان للطبائع فى الغرب.

قلت لفتحى غانم: ولكنك لم ترس على شاطىء. طرحت القضية وعقدت الامتحان.. ولم نصل معك الى قاعدة.

دعنى أسألك، هل الرواية، عمل فنى يجب أن يتحرر من الأحكام؟

قال فتحى غانم: أنا شخصيا، لا أميل الى الأحكام القاطعة فى الفن. الأحكام فى الفن كالأحكام فى الحياة. فالحياة مستمرة وهناك متغيرات ولا أظن ان هناك عاقلا يقف جامدا عند أحكام بعينها. فالأمر نسبى. المهم أن نفهم أنفسنا فى ظروف معينة ومناخ معين. ونعرف ان ما يصدر عنا من أحكام فى هذه الظروف ليس خالدا بالضرورة. انه متغير.. كالحياة تماما. وأنا أعتقد انه ليس من مهمة الفنان اصدار أحكام قاطعة ونهائية.

شعرت اننى فتحت شهية فتحى غانم للحوار. كان يصغى لتساؤلاتى بشدة ويسمح لى بمقاطعته أحيانا ويوافق بهز رأسه على بعض ملاحظاتى ويدخن بسعادة. كنت أراه فى أحسن حالاته. كأنه يكتب فصلا من رواية جديدة. كأنه يلعب مباراة شطرنج بصفاء ذهنى كبير.

قلت له: أريد أن أقترب منك أكثر وأفهم الأرضية الذهنية التى ترتكز عليها كروائى. اننى أحس ان الانسان هو بطل مسرحك الذهنى. انك تضع «أبطالك» أمامك وتحركهم كقطع الشطرنج. انك تختار «أقدارهم» ومسارهم!

شرد منى فتحى غانم.. شرود من يريد تجميع أفكاره وصارحنى بأنه لأول مرة يفاجأ بهذا السؤال: «الأرضية الذهنية التى يرتكز عليها». قال وقد انخفض صوته.. أصبح الايقاع أبطأ:

الحياة كمعركة فى مواجهة الفناء.. الموت. قدرة الانسان على أن يحيا. حياة الانسان هى وجه للحياة ووجه آخر للموت. كلما انغمس الانسان فى الحياة انغمس فى الموت. تحقيق الحياة بخصوبة وفاعلية هو تعرض للموت. القدرة على الصمود والاستمرار هو التحدى فى كل لحظة للموت. بلوغ ذروة النضج فى الحياة هو الوصول الى الحكمة التى تجعل الانسان قويا فى مواجهة الموت وقادرا على استقباله. هذه المعانى تشغلنى! لا تحددنى فى اطار. لا تحبسنى فى أقوال. أطلق يدى!

قلت لفتحى غانم: فى روايتك «الرجل الذى فقد ظله» تقترب فى الاسلوب من

□ اكبر مغامرة للكاتب مفاجآت نفسه فى الكتابة

□ لا أميل فى الفن للاحكام القاطعة.. انها عبث

□ تحدى الانسان الدائم للموت.. يشغلنى

« رباعية الاسكندرية » .. هل أخطأت !

قال بلا مبالاة : ربما ! (لا مبالاة فتحى غانم عفوية أحيانا ومرسومة كثيرا)
ثم اعتدل فتحى غانم فى جلسته وقال : الاسلوب عندى يحقق لى متعة ، وأنا أحب اللعب ! أحب أن أجرب فى كل مرة أمسك بقلم . مغامرة فى الاسلوب ! أحيانا أتلذذ كثيرا بتصوير الأحداث من خلال منولوج داخلى . أحيانا أتوقف عن اصدار أى أحكام حتى على انفعالات الأبطال والشخصيات فى الروايات واعتبر نفسى كاميرا تصور تصويرا باردا وأرقب ما سوف يحدث ! أحيانا أتأمل العلاقة بين موقف خاص جدا وقضية عامة فى كل مرة أبحث عن زوايا فى الحياة واستخدم « الاسلوب » الذى يناسب . فالاسلوب هنا ، وسيلة وليس غاية .

قلت للروائى : ان عدسة الصحفى ـ مثلى ـ مفتوحة دائما .. فهل عدسة الروائى ـ مثلك ـ مفتوحة بنفس الزاوية ؟!

أجاب : الاحساس بصور الحياة ومواقفها وانفعالاتها لا يتوقف أبدا . هناك دائما « ردود فعل » تؤثر فى أعصاب الانسان وقد تعطله عن التفكير . أنا اعترف لك ان جهازى العصبى من النوع المشتعل الذى يستقبل الأشياء بحدة وان لم يظهر ذلك امامك ! احيانا أسمع انسانا يقول : أمضيت وقتا مريحا ودخنت سيجارة .. ويسترسل فى وصف لحظات هنائه .. اعترف لك اننى لا أعرف هذه المشاعر ولا أظن اننى أقضى مع الناس وقتا مريحا . هل هناك خلل ما فى جهازى العصبى ؟ لا أدرى !

قلت لفتحى غانم : لو قمت بزيارة مكتبك .. فمن سأقابله ؟

ضحك وقال : سوف يستقبلك بالنيابة عنى أرسطو . ان كتابه « الأخلاق » مهم جدا بالنسبة لى . ان كتب أرسطو تحتل مكانا فى مكتبتى . وأرسطو ، يمثل لى ان العقل الانسانى عقل ناضج منذ زمن بعيد وعلينا ألا نضيع وقتنا فى قضايا فكر فيها غيرنا ووصلوا فيها الى أحكام عميقة وحققوا بتجاربهم الانسانية نتائج وليتنا نتعامل مع المعانى التى تركوها فتوفر لنا الوقت .. والجهد !

قلت لفتحى غانم : لمحت شعاعا من السعادة ، ترجمه وميض فى عينيك .. ولم أفهم سره المفاجىء !

ظل يضحك على ملاحظتى وقال ان درجة قوة الملاحظة عندى تصل الى ما فوق المائة . وهى مرهقة لنفسى وللآخرين ثم أجاب وقال سر سعادتى المفاجئة ، لقد كنت أقرأ قبل أن أقابلك اعترافا عالميا بمحاولاتى الأدبية . كنت اقرأ المقال الرئيسى للناقد الأدبى للصاندى تايمز اللندنية . كان يقارن بين الرجل الذى فقد ظله ورباعية الاسكندرية لداريل . ربما كان هذا الناقد رقم ثلاثين من العالم الذى تصدى لأعمالى بالاحتفاء والنقد والدراسة . كان هذا بمثابة مدرسة لى ، وأرى فيها نفسى على مستوى عالمى . لقد تجاوزت حدودى المحلية وأصبح لى قارىء ـ بعد ترجمة مؤلفاتى ـ على المستوى العالمى . وهذا يشيع فى نفسى السعادة ويريحنى .

سألت فتحى غانم وأنا أحافظ على شعاع السعادة الذى كان لايزال واقعا تحت تأثيره .

□ روائي عربي اعترف نقاد العالم بأدبه

ـ لماذا لم تتواصل الأجيال الأدبية بعد جيلكم الذى يمكن وصفه بجيل الوسط ؟

ويبدو ان كلمة « تتواصل » لم تعجب فتحى غانم ، لأنه كشر عندما ذكرتها .. وأشعل سيجارة وقال فى وصلة صراحة :

أحب أن أقول لك ان حكاية « تواصل » الأجيال الأدبية ، مجرد انشاء لغوى . فنحن لم نتسلم الرسالة من جيل العمالقة الذى سبقنا . ولن نسلم الرسالة للجيل الذى يأتى بعدنا ! اننى أفتح لك قلبى وأحدثك بصراحة شديدة ! لقد أخذ جيلنا مكانه من جيل العمالقة بالدراع ! لقد فتحنا عيوننا نحن ـ جيل الوسط ـ كما تصفه ، فوجدنا : عميد الأدب د. طه حسين والأستاذ توفيق الحكيم والكاتب الكبير عباس العقاد والأستاذ محمود تيمور والأستاذ عبدالقادر المازنى . عالم منفصل عنا تماما . وقد كانت لى ظروف خاصة عرفت فيها العقاد عن طريق والدى رحمه الله . فقد كان صديقا للعقاد .. وذكر العقاد اسمى فى كتابه « عابر سبيل » وهو يرثى والدى .

لقد خطر ببالى ان نتصدى لهؤلاء العمالقة ولا ننتظر منهم المن والسلوى . فماذا فعلت ؟! قررت أن أفكر بشكل عملى وأتساءل : لماذا جئت أنا كأديب . وما هو دورى ؟ ربما أملى علىّ هذا التفكير ما قرأته لبرناردشو يومئذ « يوم هاجمت شكسبير ، ولد لى قلم بأسنان كاملة » !

كنت قد قررت أن.أهاجم طه حسين ! كتبت سلسلة مقالات فى الخمسينات . بعنوان « طه حسين عقبة كبيرة أمام القصة » وأذكر أن د. طه حسين استدعانى ليعرف هل أكتب عن « فهلوة » أم قناعة . وذهبت اليه فى بيته بفيلا راماتان بشارع الهرم .. وقلت له بثقة شديدة كل ما أريد . يومئذ ، من الممكن أن أقول ، لقد ولد لى قلم بأنياب ! وتحركت البحيرة الراكدة أكثر عندما أصدرت أنا والدكتور رشاد رشدى بيانا عن القصة القصيرة وكيف ينبغى أن تكون . وغضب يومها الراحل يوسف السباعى واعتبرها اهانة أدبية سليطة ! وبعد قليل هاجمنا يوسف السباعى فى مجلة مسامرات الجيب وأطلق علينا أنا ورشاد رشدى « ليز » و« لين » . نسبه الى راقصتين شهيرتين فى ذلك الوقت !!! وكان عنوان مقاله : ليز ولين القصة المصرية !

أردت أن أذكر لك هذه القصة لأدلل ، كيف تسللت الى شارع الأدب الذى يسيطر عليه الأساتذة والدكاترة الكبار . كان ذلك .. بالدراع ! وفى اعتقادى أن الجديد الموهوب لا يجب أن ينتظر ، فسوف يطول انتظاره بدون جدوى ، عليه أن يتصدى .. للمعركة . عليه أن « يتكلم » ليحفر بأظافره مكانا لنفسه . على الأديب الشاب أن يعبر عن نفسه بدون خوف فإما أن يكون أو لا يكون !

صمت ـ فجأة ـ فتحى غانم . طال الصمت ، فشعرت أنه دخل «محارة» نفسه ان الفنان يحس أحيانا أنه أقام خارج نفسه . وقتا ربما أطول مما ينبغى ، فيعود على الفور ، وكأنه يلوذ بهذه النفس من صخب العالم . «يرتد الى ذاته» كما يقول برتراند رسل ! فهل انقطع الحوار بينى وبينه ؟

لا أظن .. اننى أحاول أن أجعل من الجلسة مباراة شطرنج وهى الشىء الوحيد ـ بعد الرواية ـ الذى يستغرقه تماما.

□ جيلنا انتزع مكانه من العمالقة .. بالدراع

□ افتعلت معركة مع طه حسين وهاجمته لأشهر

وكان اخراج فتحي غانم من محارته عملية صعبة .. ومع ذلك التقطت منه بعض الملامح التي كان لابد منها لاستكمال الصورة.

●● « في تلك الأيام » ، قصدت أن أقول انه لا جدوى من الارهاب السياسي . في قصتي « الرجل الذي فقد ظله » ، كنت أركز على ان الحقيقة لها أربعة وجوه . وفي قصتي « زينب والعرش » قصدت أن عرش الانسان هو ارادته وزمام نفسه .

●● « أنا أكتب في أي وقت وقلمي هو الذي يخطولست انا . واكبر مغامرة لكاتب . هي لحظة العلاقة بين القلم والورقة !» .

●● « الشطرنج ، لعبة مرهقة وجادة ، وهي رياضة عقلية تتطلب جهدا وجدا وجلدا » .

●● اهتمامي الشديد بالموسيقى الكلاسيك أبعدني عن الطرب الشرقي . فهل أفسدت ذوقي ؟!» .

●● « الرحلة في المكان تساوي عندي رحلة في الزمان . فإذا قطعت مائة كيلو ، معناها انني امضيت عاما كاملا » .

●● « أنا امتداد في السلوك الخاص ومعاملة نفسي بالكاتب عباس العقاد . ان له في نفسي صورة الكاتب . وقد بهرني توفيق الحكيم وأخذت منه حلاوة الجملة وتركيزها وغموضها أحيانا وأناقتها والتعرف على العالم الغربي وأشكاله المعمارية . قد تعلمت من د. طه حسين دقة اللغة وتقديس الكلمة وترديدها وتكرارها بأنغام موسيقية » .

وفي العمل الصحفي ، تتلمذت على يد على أمين ومحمد التابعي .

●● تاثرت بكتابات همينجواي . لقد فرحت بأسلوبه المحدد ، الخالي من التشبيهات والاستعارات . تابعت أيضا كتابات القصاصة الانجليزية « كاترين مانسفيلد » ونبهني القصاص الفنان سعد مكاوي الى « البير كامي » فشرعت اقرأ كل ما كتبه كامي بلذة غامرة .

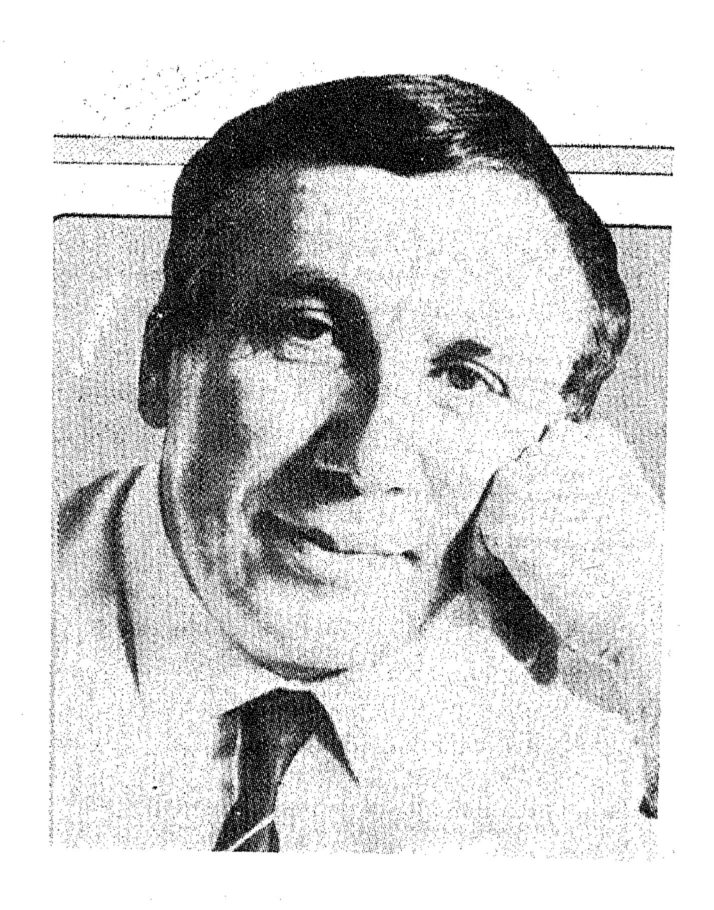
و ..

ولم يكن الحوار مع فتحي غانم ، مجرد « جلسة حميمة » للنشر فيما بعد .. بقدر ما كانت عملية « تعارف » تتم ببساطة ودون افتعال . عملية تعارف بين كاتب وقرائه الأحياء .

وكنت أنا .. الجسر !

ومازلت وأنا أنقل وقائع اللقاء بالكاتب الروائي فتحي غانم ، أذكر كلماته . « أنا كاتب معركة الكلمة . نعم حملتني الكلمة لأقاصي صعيد مصر وكتبت . حملتني الى القطب الشمالي وكتبت . حملتني الى أعماق نفسي وكتبت . ولاتزال الكلمة هي المغامرة . والمغامرة هي الكلمة » .

* * *



نزار قبانى

« لا أعترف بقصيدة لى
لا تفتح ثقبا فى غلاف الأوزون »

لهذا الحديث ، حكاية !

منذ أسابيع كنت فى زيارة خاطفة للعاصمة الرمادية لندن . وكنت قد رتبت موعدا مع الشاعر الكبير نـزار قبانى . وذهبت إليـه فى شقته الأنيقـة فى « سلون سكوير » أحمل معى مسجلا وتساؤلات . وتهادى نهـر الحوار بيننا فى أمسية جميلة ، وكانت مضيفتنا ابنتـه التى تقيم معـه الآن . وفجـأة تحشـرج صـوت نـزار وأشار لى أن أوقف المسجـل . وقـال وهـو يتكلم بصعـوبـة : إنهـا آلام « الدسك » ، عذاب فقرات الظهر ! وجمعت أوراقى ولكنـه سألنى : هـل تبقى الكثيـر من أسئلتك ؟ وقلت وأنـا أشفق عليـه : هنـاك ٧ أسئلة فقط ! قـال نـزار : أتركها لى وسوف أجيبك بصـوتى على شـريط مسجل . ومـرت أسابيـع أخرى ووصلتنى رسالة نـزار الصوتيـة ومعها خطاب رقيق حملتـه شقيقـة زوجتـه الـراحلة بلقيس ، وهى سيدة عـراقيـة فـاضلة . وإذ أنـا أستعد لاعـداد الحـديث فاجأتنى آلام الرئة ، وكـان ما كـان . وبعد شهـر كامـل قضيته فى فـرنسا بين آلام وعـلاج ونقـاهـة ، شعـرت ان حـديث نـزار « يتملمـل » فى المظـروف الأصفـر ، فأفرجت عنه !

● أنت الآن تسكن في لندن بعد طول رحيل ، ماذا تعني لك هذه المدينة ؟ كيف ترسم لنا علاقتك معها ؟

نـزار : لندن علمتني كيف أحب اللـون الرمـادى . حين دخلتهـا عـام ٥٢ كـان جسدى مغطى بالغبار الصحراوى ، وعندما اصطدمت بأول غمامة رمادية ، تحول الغبـار في داخلى إلى مـاء ، ومثلما اصطـدم الشاعـر العربى ببسـاتـين الأنـدلس وأشجـارها ونـوافير مـائها ، فتغـير هو وتغـيرت لغته وتغـيرت صياغتـه وأشكالـه الشعرية ، اصطدمت أنا بـالريف البـريطانى فتغـير خطابى الشعـرى وأصبحت أكتب باللون الرمادى وأعشق باللون الرمادى.في لنـدن تخليت عن بداوتى وركضت كطفل مبهور على أعشاب هايدبارك ، وهولاند بارك وكانت حصيلة اقامتى اللندنيـة الأولى عام ٥٢ ـ ١٩٥٥ ، مجموعة شعرية بعنوان قصائد أعتبرها من أهم أعمـالى الشعرية . علمتنى لندن أيضا ، كيف أتحرر من صداع الجنس وكيف أنادى المرأة (يا صديقتى) بـدلا من (يا عشيقتى) وكيف أذهب مـع امرأة إلى المسرح أو إلى المطعم أو إلى الكونشيرتو دون أن أستعمل أظافرى وأسنـانى . تعلمت ـ يا أخى ـ كيف أتـأمل بطـة سابحـة فى بحيرة أو زهـرة سابحـة بعبيرهـا أو شجـرة مـزهـوة بكبريائها .

● ما الفرق بين المرأة الانجليزية والمرأة الفرنسية في عين الشاعر ؟

نزار : الفرنسية فضيحة معلنة . وأنا (ما باحب الفضائح المعلنة) أنا أحب أن اكتشف المـرأة لا أحب امـرأة تعطى كـل شىء من اللحظـات الأولى . مـع المـرأة الانجليزية ستارة ولا ينكسر بينك وبينها أى شىء ويبقى الوهم . وأنا أصر على كلمة الوهم . نحن نصنع جمـال المرأة وفتنتهـا ونشكلها بـوهمنا . أنـا أحب المرأة التى أصنعها مثل بجماليون !

● أنت محاط في هذه المدينة بأباطرة الموضة والأزياء .. هل هى صدفة ، أم هذا اختيار شاعر ؟

نزار : لم أكن أعرف سلفـا قيمة هـذا الشارع ، فـإذا بى اكتشف فى كل خطـوة أمشيهـا ، انى أمام فتـرينة لمصمم عـالمى شهير من مصممى فـرنسا . جميـل أن يتوضأ الإنسان بالجمال أو يتغرغر بالجمال صباح مساء . وهذا اضـافة إلى عمـلى الشعرى ، فعندما تلبس المرأة بشكل جميل وحضارى تزهو القصيدة ببطلتها !

● وبيروت (ست الدنيا) كما تقول عنها في احدى قصائـدك ، هل تفكـر أن تعود إليها إذا عادت ؟

نزار : لو لم تسألنى عن بيروت لاخترعت حديثـا عنها ، ولكنى أثق فى أن بـيروت التى أحببتها أنت يا مفيد وجمعتنا رحلة ، لن تسقط سهوا منك . أنا لا أؤمن بـأن الأشياء الجميلة تكرر نفسها . بيروت مثل الطفـولة ومثـل الأنوثـة ومثل القصيـدة ومثل رسائل الحب الأولى ، لا يمكن أن تعود بذات الزخم والايقاع . بيروت فـراشة ربيعية طارت فى سماء البحر الأبيض المتوسط من الأربعينات إلى السبعينيـات ، ثم احترقت ! كان جمال بيروت أكبـر من قدرتنـا على الاستيعـاب . ولأن بيروت كـانت جميلة جدا وحضارية جدا ، وليبرالية جدا فقد قتلناهـا ، لأننا فى المنطقـة العربيـة نكره المرأة الجميلة والمدن الجميلة والكلمات الجميلة . بيروت كانت مدينـة الحريـة

بلا منازع ، ولأننا نكره الحرية والأحرار ، فقد ذبحناها من الوريد إلى الوريد .. واسترحنا .

● **يبدو انك كنت بحاجة للاطار العائلي . ها أنت وابنتك معا في بيت واحد .. ألازلت تشعر بوحدة ؟**

نزار : كنت بحاجة لهذا الاطار العائلي كما قلت . ابنتي الثانية متزوجة وتقيم في لندن على مقربة مني . لقد قطعت سنوات طويلة متوحدا مع شعري ، وأنا لا أنكر أهمية الوحدة للشاعر . في جنيف كنت متوحدا أنا وبحيرة وبطة وعصافير وأوراق . اختنقت ، وكان لابد أن استنشق بعض الهواء العائلي . فكانت زينب تدرس في لوس انجلوس (الفاشيون ديزاين) تصميم الأزياء وأنهت دراستها وجاءت إلى لندن لتعيش معي . وابني عمر يدرس الكمبيوتر في بوسطن وسينهي دراسته بعد عامين وسوف يأتي لينضم إلينا .

● **يأتي السؤال عن بلقيس طبيعيا في سيناريو الحوار . أسألك ، بلقيس الزوجة والرفيقة والشهيدة الحاضرة الغائبة ، كيف تستحضرها بعد عشر سنوات من رحيلها ؟**

نزار : توقعت منك السؤال خصوصا بعد أن « فرشت » بسؤال سابق عن الاطار العائلي . متعة الحوار معك انه (لوحة منسوجة) وأعود لسؤالك . بلقيس جزء من عمر ومن عيش مشترك ومن تاريخ . انها نموذج نسائي لا يتكرر بسهولة . أهم ما فيها هو عقلها وكبرياؤها ، وأنا لا أعترف بأية امرأة لا عقل لها ، ولا كبرياء لها . كانت صديقة شعري قبل أن تكون صديقتي ، وكانت تقتسم الحياة معي نصفين واللقمة نصفين والقصيدة نصفين . لم تكن تغار من أحلامي ومن أوراقي ودفاتري ، ولم تكن تعتبر قصيدتي « ضرة » لها ، بل كانت جزءا من مجدها الشعري .

● **هل عشت حبا تعطشت إليه . هل لديك حنين ما بتعرف لمين ؟**

نزار : أنا في حالة حب لا ينتهي ، وليس بالضرورة أن يكون حبا نسائيا . أنت تستطيع أن تحب كل الأشياء الجميلة . كانت المرأة دائما حبيبتي وسوف تبقى دائما حبيبتي ، لكنني أضفت اليها (ضرة جديدة) تدعى الوطن . وأنا خلصت إلى عدة حقائق مع المرأة . فالرجل العربي يمضغ الطعام بسرعة ويمضغ النساء بسرعة ، ولذلك فهو مصاب بقرحتين ! والجنس لدى المرأة استيطان ولدى الرجل سفر ! والمرأة والقطة لهما قضية واحدة لا تحل إلا بالأظافر ! وحرية المرأة ليست مكياجا تضعه على وجهها للتجميل ، بل هي (كوريدا) أسبانية ، لابد في آخرها من قتل الثور ! وأدركت اننا لن ندخل إلى نادي المتحضرين ما لم تتحول المرأة لدينا من شريحة لحم إلى معرض أزهار . نعم جسد الرجل يحمل جواز سفر دبلوماسيا وجسد المرأة يحمل تذكرة مرور صالحة لسفرة واحدة !

● **يا عزيزي نزار ، أظن أن أمسيات المربد العراقي لم تكن لوجه الشعر ؟ انني أسألك بعد أن طال صمتك !**

نزار : والله لم نكن نعرف هذا . كنا نذهب وكنا نفرح . ما كان أحد يتصور أن تنقلب الأمور إلى عكسها . كنا نذهب ــ من منظورنا ــ لوجه الشعر لا لوجه الحاكم

ولا لمديحه . وأنا في حياتي لم ألق قصيدة في المربد ولا في غير المربد أمدح فيها حاكم البلد الذي أزوره . أنا أقرأ قصائدي العنيفة والجارحة والصارخة وأحزم حقائبي وأمشي . المربد كان عبارة عن موسم من المواسم الثقافية ، وكنا نجتمع فيه بأصدقاء وشعراء من كل الدول العربية وربما كان هذا هو الربح الوحيد . أما فيما يتعلق بي ، فلم تكن قصائدي منبرية ولا تكلمت في العنتريات ولا احترفت الكذب ولا لبس الأقنعة .

لم أرفع قبعتي لأي حاكم مهما كان شأنه ، لذلك إذا كان المربد تحول إلى شيء آخر أو هيىء ليجمع أصوات شعراء فهذا لم يكن في الحسبان ، حسبان أحد وأنا هنا أدافع عن جميع الشعراء ولا أدافع عن نفسي فقط . أعلنها لك : كل الذين ذهبوا للمربد بما فيهم أنا ، ذهبوا لوجه الشعر !

□ الذيـــن ذهبوا إلى المربد العــراقي كان خافيا عليـهم طموحات النظام السياســية !

● **لماذا لم تكتب شعرا خلال حرب الخليج ، في حين كان الناس ينتظرون سماع صوتك ؟**

نزار : هذا سؤال جيد توقعت أن تبدأ به حوارك ، ولكني أحفظ طريقتك ! انك توحي بأسئلتك الأولى بالطمأنينة لمن تحاوره ، ثم بهدوء شديد تدخل إلى بيت القصيد ! السؤال لماذا لم أكتب شعرا خلال حرب الخليج ؟ لأن قصيدة الشعر ليست غسالة أوتوماتيكية تغسل وتعصر وتنشف خلال نصف ساعة ! العمل الشعري عمل مسئول يتطلب الشغل الطويل والصبر الطويل حتى يصل إلى مرحلة الاختمار والنضج . أنا ضد الأعمال الانفعالية المسلوقة في الفن ، والقصيدة ليست صراخا في مظاهرة أو اعلانا انتخابيا أو تعليقا صحفيا سريعا في جريدة يومية ، انها عمل ثقافي وتاريخي مسئول ، وأنا لا يمكن أن أخون تاريخي ! كل الثورات التي مرت في العالم لم تظهر آثارها على الورق إلا بعد سنين . خذ بيكاسو ، عندما رسم لوحته المشهورة عن الحرب الأهلية الأسبانية عام ٣٢ رسمها في باريس في الخمسينيات أو الستينيات ، بعد مرور ٣٠ سنة على انتهاء الحرب الأسبانية .

● **هناك بعض المفردات التي تداولتها الألسنة خلال حرب الخليج ومنها كلمة (اختراق) وقيل بوضوح أن هناك اختراقا لبعض الأدباء وبعض الشعراء وبعض المثقفين الذين انحازوا إلى الجانب العراقي وآثروا الصمت ! هل ... ؟!**

نزار : تسألني هل تعتقد أن الأديب أو الشاعر أو المثقف يمكن اختراقه . والله هذا يتوقف على الجهاز العصبي للكاتب وعلى جلده ، فإذا كان جلده من الرقة والشفافية والأنوثة أمكن اختراقه وهذا لا يستحق كلمة أديب . الأديب رجل له عقل وإرادة وتماسك ولا يجوز بأي حال (اختراقه) ومن تحدثوا عن غزو ثقافي وأننا مهزومون ثقافيا ، غير صحيح . لا أحد يستطيع أن يغزو أمة أو عقلا أو قلبا أو فكرا إلا إذا كان هذا الفكر (منبطحا) أي انبطاحيا كما يقولون أو راغبا أو سريع العطب . لذلك لا أفهم أن يتطوع أحد ويقول انهم (اخترقوني) لأني آثرت الصمت لأن القصيدة ليست عملا مسلوقا !

وأعود مرة أخرى للمربد . لقد كان سوقا ثقافية كَكل أسواق العرب التاريخية كسوق عكاظ الشهير . كنا نذهب ببراءة وطفولة . لم يكن أحد منا يفكر بأن الجهاز الاعلامي سوف يستغله أو يبتزه أو يجنده لخدمة طموحات النظام السياسية

وباستثناء قلة من الشعراء ، احترفت مديح الخليفة العباسي واحراق البخور له ، فإن الشعراء الذين يحترمون أسماءهم وتاريخهم الشعري ، لم يتورطوا في عملية تجميل النظام بل دخلوا إلى المربد وخرجوا منه وهم يحتفظون بكبريائهم وكبرياء الشعر .

● قصيدة مايا ، عرضتني للهجوم . البعض قالوا : كيف تنشر عملا جنسيا ؟

نزار (بغضب) : هؤلاء لم يقرأوا القصيدة . مايا ، عبارة عن وردة جميلة سمحت لنفسي أن آخذ كاميرا تصوير وأصورها بكل فتنتها وكل أنوثتها دون اسفاف ودون هبوط . مايا قصيدة حضارية ١٠٠٪ . الحقيقة أنا صورت مايا ولم أخجل من تصويري ، لأنني لم أخجل أمام الجماهير ولا مايا اختلجت من التصوير ! مايا – كما قلت لك – وردة جميلة ، وكل الورود تحب أن تتعطر وأن تتكحل وأن تلبس خواتمها وأساورها وهل تتصور انه ليس هناك امرأة في العالم لا تريد أن يكون لها صورة جميلة .

□ « مايا » وردة سمحت لنفسي ان اصورها بكل فتنتها دون اسفاف أو هبوط

□ النقاد كانوا في طريقي مسامير وأكياس رمل ليس إلا !

● هل تعتقد أن الشعراء يصنعون الديكتاتور ؟

نزار : نعم . لأن قصائد المديح والتبخير والتطبيل والتزمير تساعد كثيرا على صناعة الأوثان . وكم من وثن صنعناه بالشعر وبالصحافة وبالأدب دعني أقولها بصراحة يجب ألا نبرئ أنفسنا ككتاب من صياغة أو صناعة الديكتاتور . الديكتاتور نرجسي ويحب ذاته ويعتبر نفسه الأجمل والأعدل كما قلت في قصيدتي السياف العربي يعتبر نفسه سيدنا يوسف عليه السلام . كل ديكتاتور لا يصدق إلا كلمة المديح ، وحينما تقول له : لا ، فاقرأ السلام على روحك . جزء كبير من المسئولية يقع على الشعوب وعلى الكتاب الذين هم طليعة ثقافية ، فعندما يشترك المثقفون في الكورس يتحولون إلى نقابة للشحاذين !

● بعد خمسين عاما من رحلة الشعر ، هل تتصور أن فن النقد كان على مستوى الشعر العربي ؟ وهل استفدت من نقد ناقديك ؟

نزار : بكل صدق أقول لك ان النقاد لم يعلموني شيئا . لم يكونوا لافتة تدلني على الطريق ، انما كانوا حاجزا مليئا بالأشواك والمسامير وأكياس الرمل على الطريق ، طريقي ! ان النقد العربي كالسلوك العربي ، قائم على العصبية والتوتر والانفعال . انه نقد « غرائزي » يستعمل الأنياب والأظافر في التعامل مع الشعر . اننا لا نقرأ النص الشعري بحضارة وموضوعية وروح علمية ، انما نهجم على حياة الشاعر وخصوصياته بالهراوات والسكاكين حتى تتحول القصيدة بين أيدينا إلى جثة ! وباستثناء بعض النقاد المنهجيين ، فإن فن النقد لدينا تحول إلى حفلة ملاكمة يابانية ، وأعتقد ان الصحافة اليومية غير المتخصصة لعبت دورا سلبيا في تسطيح الشعر حتى جعلته مرتبطا بدواليب المطبعة وأرقام التوزيع وحصان السياسة والايديولوجيات !

● ماذا يبرر كتاباتك النثرية « مائة رسالة حب » ، هل هذا نهاية حتمية للشكل ؟

نزار : لا أعتبر ان النثر هو الشكل النهائي للشعر . وانا لا أؤمن أصلا ان هناك نهايات مطلقة للشعر . انا ضد الوثنية الشكلية بكل أنواعها ، وانا أرى أن المبدعين الحقيقيين بتجاوزاتهم اليومية لانفسهم يستطيعون أن يهربوا من

□ الشعر يتوجه للمستقبل بالانقضاض وكسر الساعات الرملية !

□ الكتاب والشعراء تزورهم الجلطات لانهم يدفعون ضريبة الابداع !

فخ الشكلية . بالنسبة لى ، فإننى منذ عام ١٩٦٦ ، وعلى وجه التحديد منذ أن أصدرت مجموعتى الشعرية « الرسم بالكلمات » أدركت اننى أنهيت دورة شعرية كاملة ، وأن كل تحرك منى على المحور ذاته سيكون فيه مقتلى .. وبدأت القلق وبدأت أخاف أن يسقط المسرح من تحتى ، وبدأت أبحث وأشتغل على معادلات شعرية جديدة تنقذنى من قطار الشعر العثمانى المتدهور . أول محاولة للخروج من قطار الأشباح ، كان « كتاب الحب » وفيه حاولت أن أقص جميع النتوءات اللغوية فى بلاغتنا العربية ، ثم كما أشرت كانت تجربة « مائة رسالة حب » . باختصار ان يدى ـ دوما ـ موجودة فى الصلصال الساخن ، وأجد نفسى محاطا بتحولات تاريخية حضارية تدفعنى إلى ان اغير جلدى اليومى وأغير أصابعى إذا اقتضى الأمر وإلا سقطت تحت عجلات التاريخ !

● **كيف يمكن للشعر أن يتوجه إلى المستقبل ؟**

نزار : بالانقضاض والتجاوز وكسر الساعات الرملية التى حبست الزمن الشعرى العربى فى اطارات ومربعات ودوائر تشبه نقوش القيشانى المرسومة على حيطان حمامات دمشق . بالحرية وحدها ، نخرج من مرحلة القيشانى ونكتب على جدران العصر ، وبالحرية ندخل إلى أرض الدهشة والمفاجآت حيث الجبال تتحرك باستمرار والأشجار تطول وتقصر على كيفها والاحجار تغير شكلها فى كل ثانية والأرض تضجر من كرويتها ، والأرض حبلى بملايين الاحتمالات !

● **هل يستطيع الشاعر أن يكتب كوكبا أو قوس قزح أو قاع بحر ؟!**

نزار : نعم ، يستطيع ! الا تشم فى « المقبرة البحرية » لفاليرى رائحة الأعماق ؟ وفى شعر لوركا ألا تسمع هفيف مراوح الأسبانيات ؟ وفى شعر ووردز وورث الا يغلفك ضباب الجزيرة البريطانية وسماواتها الرمادية ؟ و(عيون الزا) اليس قوس قزح رسمه أراغون بأجمل الوان اللهفة ؟

● **هل ترحب بأن تحكمنا النساء ؟**

نزار : ولماذا نرفض أن تحكمنا النساء ؟ أليست صوفيا لورين أجمل وأعدل وأكثر ديمقراطية من الرفيق تشاوتشيسكو ؟ أليست ميلينا ميركورى أكثر ثقافة من الرفيق ستالين ؟!

● **قل لى لماذا الكتاب والشعراء والمفكرون تدق عليهم « الجلطة » .. وتزورهم وقد تقيم فى صدورهم أو قلوبهم أو عقولهم ؟**

نزار : نحن ندفع ضريبة الابداع ، ليس هناك شىء بدون ثمن فى هذه الحياة . الشاعر أو الكاتب الحساس أو الروائى عبارة عن رجل انتحارى ، ينتحر يوميا على ورقة الكتابة حتى لا يبقى سوى رماده . حين أصبت بالذبحة القلبية عام ٧٤ قلت انى لست غاضبا فلابد أن أصاب بذبحة قلبية لأنى لست بقالا ولا موظفا ولا بائعا ولا قومسيونجيا ولا صرافا . هؤلاء ليس لهم هموم ولا يصابون أصلا بذبحة قلبية . أما حين أعيش فوق قنبلة موقوتة وأعيش على طرف زلزال فلا استغرب زيارة الجلطة !

الابداع هو حريق ، مثلما يحترق الهندى على الطريقة البوذية ويدخل

النار ، نحن ندخل فى القصيدة أو فى الرواية أو فى الكتابة ونختفى ، لذلك فأنا أحب أن أتحول إلى رماد . الشاعر لا يكتب أصلا فى الغرف المكيفة الهواء . الشعر يكتب فوق خط الاستواء . الكلمة يا سيدى عندما تخرج من بين أصابعنا يخرج معها على الأقل ١٪ من عمرنا . الكاتب المبدع يشيخ مع كل كلمة يكتبها . أنا أشعر انى مع كل قصيدة أكتبها تروح من خلايا دماغى بليون خلية ، هذا ثمن عادل جدا لمن يريد أن يكتب !

□ أنا ضرة المرأة القبيحة فهى لا تتحملنى وانا أتكلم عن الجمال والضوء والنهود

● **هل يحبك كل النساء لأنك تقود ثورة تصحيح مسار باسمهن ؟!**

نزار : ليس كل النساء ! هناك نساء مستريحات لأوضاعهن كحريم يتعاملن مع الرجل بالأظافر والأسنان . ولكنى أعترف لك لم يكرهنى إلا القبيحات . كل امرأة قبيحة كنت غريمها . أنا أتكلم عن الجمال والضوء والنهود ، والمرأة القبيحة لا تحتمل ، فأنا ضرتها ، الذباب عندما يسلطون عليه روائح زكية يموت ، مثلما أسلط الشعر الجميل على القبيحات . أنا لا أتصور أن هناك فراشة معقدة ، ولكنى أتصور وجود خنفسة معقدة .

● **تعشق الجميلات ؟**

نزار : ليس هناك قانون للجمال . أكره ملكات الجمال فى العالم . انهن لسن ملكى . لقد خلقوا لكل العالم . والمرأة التى أحبها ، لى وحدى . ملكة الجمال مقاس خصرها ٣٢ وعرض صدرها ٩٠ ، هذه مقاييس للمهندسين فى بناء البنايات . كل ملكات الجمال ، بتقرير لجنة حكام مثل لجان ترقية الموظفين ! ما يلفت نظرى لامرأة ما ، انها تحبنى وتشعرنى برجولتى وأهميتى وتصادق قصائدى ولا تغار منها !

....

وقلت للشاعر نزار قبانى : كيف استقبلت قصيدتك « أسألك الرحيلا » .. وأين كنت ؟!

وزفر نزار زفرة حادة .. وتكلم !



الفرق بين السياسى والشاعر، كبير!

فالشاعر أخلد من السياسى، لأن الفن أبقى من السياسة. وعندما أحاور رجل سياسة أرتدى مثله أقنعة لأنى أعرف انى أدخل فى مباراة. من يكسب فيها، ذلك الذى يحمل وجه مقامر وجها باردا خاليا من أى انفعال. أما الشاعر حين أحاوره. أخلع كل الأقنعة وأشعر اننا نجلس فوق ربوة على كتف نهر! وحين كنت أشارك نزار قبانى تلك الأمسية اللندنية، كنت أشعر أن الحروف حولنا تتراقص، فهذا مهرجان الكلمة! ومثلما اللوحة بحاجة الى من يراها والتمثال بحاجة الى من يلمسه والسيمفونية بحاجة الى من يسمعها، كذلك القصيدة بحاجة الى الاحتضان، ربما لأن الشعر أكثر الفنون حاجة الى الانسان لانه مشتبك بلحم الانسان وبفمه، بحنجرته. وأظن ان الشعر تقدم تاريخيا على كل الفنون الأخرى. فقبل أن يتمكن الانسان من تهذيب الحجر وتركيب الوتر، استطاع أن يجد الصلة بين ليله الطويل وبين شعر حبيبته فى أول قصيدة غزل!

رحلة نزار منذ أدمن السفر تغرينى بكتاب يضم حوارا واحدا معه وليس حديثا صحفيا فى بضع صفحات. منذ أحب نزار السفر وعرف دوار البحر صارت سطوح المراكب سريره ومقاعد الطائرات وطنه. وصار قلبه مليئا كحقيبة امرأة، وكرويا كالأرض ومزدحما كمدن الصين!

ولو قدر لى يوما أن أقنعه بفكرة الحوار الطويل الطويل، لقمت معه داخل رأسه من شمس القاهرة الى مآذن استنبول الى أمطار هونج كونج الى نافورات روما الى شحوب لندن الى مرتفعات اسكتلندا الى ثلوج موسكو الى معابد تايلاند الى حائط الصين الى نبيذ الراين الى مقاهى الرصيف فى سان جرمان الى ملاعب مصارعة الثيران فى أسبانيا الى كهوف الغجريات فى غرناطة الى حقول التوليب فى هولندا الى كريستال البحيرات السويسرية الى المظلات الملونة على رمال نيس.. الى قراميد البيوت اللبنانية الحمراء.. ولا أظن أن قاموس نزار قبانى الشعرى له جنسية، فهو ليس مصريا ولا دمشقيا ولا لبنانيا. انه ينتمى لدولة الانسان، حيث عاصمتها المشاعر وقراها الأحاسيس! ونزار (مُنْشد) يطلق (أرغوله) بين الشرايين والأوردة. وأحيانا تقيم قصائده تحت جفن أو تنام على ساعد ولا يريد نزار أن نقرأ قصائده ونقتنى دواوينه، انما يريد اصغاءنا لشعره فوق شفاه عبدالحليم حافظ أو نجاة الصغيرة، مُغَنًّى!

اســـألك الرحيلا، عمل فـني مـات لحظة ولادته !

● **لهذا سألت الشاعر عن إحدى بناته (أسألك الرحيلا) المغناة كيف استقبلت ميلادها .. و ..**

ولم يجعلني نزار أكمل عبارتي بل تغيرت نبرته واكتست بالغضب :

- لم أكن أنتظر ان عملا كأسألك الرحيلا يمكن أن ينتظر ثلاث أو أربع سنوات ليرى النور . صار عندى احباط وهبوط . تنقلت القصيدة بين الملحنين واقفلت عليها الأدراج واقيمت عليها الدعاوى . ثم جاء ميلادها فى وقت ميت . كيف فات على عبدالوهاب أستاذ التوقيت ، الافراج عن القصيدة أثناء حرب الخليج ؟! كان الأمر كارثة كبرى ! لا الوقت كان وقت طرب ولا وقت شعر ولا وقت غناء ! فالعمل لم يأخذ مساحته ولم يظهر فى الوقت الذى كان ينبغى أن يظهر فيه . أنا اقارن بين عملين من اعمالى . قصيدة (أيظن) عام ٦٠ التى فجرت الدنيا العربية من المحيط الى الخليج ، جاءت فى وقت كان العصر الذهبى لها . كانت حادثة شعرية لم يسبق لها مثيل . أما أسألك الرحيلا ، فقد ولدت ميتة !

● **وأسأل نزار (هل ظهر صوت بعد عبدالحليم حافظ يحرضك على أن تعطيه قصيدة ؟)**

قال بسرعة : بكل صراحة لا . أنا افتقدت عبدالحليم الانسان ربما أكثر من المغنى . يا أخى عبدالحليم فنان ، وشاعر . لم يستطع أحد سوى عبدالحليم أن يلتقط الأشياء الصغيرة والرقيقة والحميمة فى شعرى مثلما استطاع هذا الرجل أن يلتقطها ، لذلك هو الذى أشار على القصيدتين (قارئة الفنجان ، ورسالة من تحت الماء) منذ أن قرأ أعمالى الشعرية التى قدمتها أنت له فى أحد أعياد ميلاده باعتباركما كما علمت أبناء برج واحد هو الجوزاء ! ولم تظهر لى أعمال أكثر بهجة وجمالا من هاتين القصيدتين . لقد رأيت عبدالحليم وهو يغنى قارئة الفنجان قبل أن يموت . كان يغنى بجهازه العصبى ، بعينيه ، بقلبه ، بشرايينه ، لم يبق شىء منه إلا وتحول الى رماد وهو يغنى . لذلك سيمر وقت طويل طويل ، وأؤكد على كلمة طويل قبل أن يأتى مغن مثل هذا (الشاعر) !

● **قلت لنزار: أنت أستاذ من أساتذة العشق ، فهل تعتقد أن العاشق الذكى هو الذى يعرف الرحيل فى الوقت المناسب حتى لا يتحول الحب إلى وظيفة أو نوع من أنواع الخدمة العسكرية ؟**

ضحك نزار للتشبيه الأخير وقال : بدون تردد أقول (نعم) . فالعاشق الناجح هو الذى يتقن حساب المسافات والمرأة الذكية هى التى تعرف أن تقول لحبيبها وهى فى ذروة أشواقها (أسألك الرحيلا) .

قلت همسا : الالتصاق الطويل ، يقتل الحب ؟!

قال يكمل عبارتى : لأن العناق المستمر يخنق الأنفاس !

لا أظن أن الأمر يحتاج الى تكتيك واجازة عاطفية .

قال نزار صائحا : الاجازة العاطفية هى بيت القصيد . انها ضرورية كالاجازة الادارية والاجازة الصحية واجازة الولادة التى تأخذها المرأة الحامل لتريح جسدها وأعصابها من رائحة الرجل ومن غلاظاته !

ثم اعتدل نزار فى جلسته وتنحنح مثلما يفعل عبدالوهاب وقال : اسمع ماذا اقول فى قصيدتى (النساء والمسافات) انها تصوير دقيق لهذا الموقف .

اتركينى .. حتى افكر فيك
وابعدى خطوتين كى اشتهيك
لا تكونى حبيبتى رغم انفى
فالبقاء الطويل لا يبقيك
ما تمنيت أن أحيلك زرا
فى قميصى او معطفا ارتديك
انهضى عن تنفسى لحظات
فالحصار العقيم لا يجديك
انت مثل النبيذ يحتسى برفق
فلماذا بلحظة انهيك

□ قلت لها : اتركينى حتى افكر فيك وابعدى خطوتين كى أشتهيك !

□ لولا محمد عبدالوهاب .. لبقيت قصائد شوقى على رصيف سور الأزبكية !

● **قلت لنزار : أنت الآن فى مرحلة النضج الرجولى ولعلك بعد ٥٠ عاما من الشعر فهمت المرأة ..**

أجاب الشاعر : أولا ، أنا لم افهم المرأة ولا أظن انه مطلوب من الشاعر ان يفهم المرأة ، يجب أن تظل وهما جميلا يغلفها غموض جميل . وأنا الآن مثلما تفضلت فى مرحلة نضج وصرت أشد حكمة وأكثر حضارة . انا الآن اكثر تفهما لطبيعة الأشياء . انتهى عصر الانفعال السريع والانبهار السريع ولم أعد أؤمن بجمال يبهرنى للحظة الأولى . انا الآن يبهرنى الحضور الانثوى ، الفكر الانثوى ، الذكاء الانثوى ، المرأة العربية ـ صدقنى ـ بحاجة إلى أن تقدم نفسها للرجل العربى تقديما جديدا . المرأة ليست فستانا ، وأنا قلت مرة ان أسوأ مصادر الشعر هى عارضات الأزياء . انا لا أبحث عن موديل او ملكة جمال . ابحث عن امرأة تقيم معى حوارا حضاريا . اليوم وأنا اكتب عن عاشقين فى كافيتريا لابد أن يعبر بينهما صاروخ سكود أو باتريوت . كيف نستطيع أن نهرب من التاريخ . بعض النساء يعتبرن الكوافير هو وزارة ثقافتهن .. والكتاب الأجمل عندهن : زجاجة عطر .

● **قلت لنزار قبانى : أعطاك عبدالحليم حافظ الشهرة أكثر حين غنى قصائدك .**

رد نزار وقال : عندى رأى لا أخاف أن أعلنه !

● **قلت : كلى اصغاء !**

قال نزار : الموسيقار محمد عبدالوهاب هو الذى جعل أمير الشعراء احمد شوقى شهيرا ومقروءا على امتداد الوطن العربى ، وليس العكس !

(ظهر على وجهى علامة دهشة) .

عبرها نزار واستطرد يقول : لولا محمد عبدالوهاب لبقيت (يا جارة الوادى) او(علموه كيف يجفو فجفا) و(ردت الروح على المضنى معك) و(ياناعما رقدت جفونه) و(مضناك جفاه مرقده) و(ياشراعا وراء دجله) مطروحة مع الوف الدواوين على سور حديقة الأزبكية !

(ظهرت علامة تعجب على وجهى) .

عبرها نزار واستطرد يقدم حيثيات رأيه . لقد كان شوقى يشعر فى أعماقه أن شعره (المكتوب) سيكون جزءا من تراث عصر النهضة ، ولكنه كان يتطلع إلى ما بعد عصر النهضة ، بل كان يريد أن يكون موجودا فى كل العصور . وعندما استمع أمير الشعراء للمرة الأولى إلى صوت محمد عبد الوهاب الجميل ، الجديد ، الواعد ، أدرك بنبوءة الشاعر ان هذا الصوت سيكون جسره إلى الجماهير ومفتاحه إلى الأزمنة القادمة .. انها صفقة تاريخية مدهشة .. ربح فيها محمد عبد الوهاب كنزا من القصائد وثروة شعرية لا تقدر بثمن .. وضمن فيها أمير الشعراء أحمد شوقى كرسيا دائما فى كل العصور !

● **قلت لنزار : أريد أن أعرف الفرق بين الشاعر والزعيم ؟ لقد رأيتك فى أمسيات شعرية وعندما دخلت القاعة احتفت بك الأكف تصفيقا وكأنى أرى زعيما أمامى !**

قال الشاعر : الزعماء يأتون ويذهبون ، أما الشاعر فهو باق على هذه الكرة الأرضية ما بقيت تدور . هل تظن ان المتنبى مات ؟هل تظن أن شكسبير مات ؟هل تظن أن اللورد بايرون مات ؟ أنا اقرأ المتنبى الآن وأشعر انه لايزال فى كل مجلس . نحن نستشهد بشعر المتنبى وجارسيا لوركا وعمر الخيام وغيرهم هادول ــ مفيد ــ محفورين فى شرايين الأرض وجذورها . كلما طلع الربيع ، يطلعون معه !

● **سألت نزار : مدرسو اللغة العربية وآدابها يلعبون دورا خطيرا فى فتح شهية الطلاب الأدبية أو سدها . فربما جعلها ساعة تعذيب وربما حول النصوص الجامدة إلى نزهة فى ضوء القمر . أنت ماذا كان نصيبك ؟**

قال نزار : اننى أدين لمدرس اللغة العربية الأول خليل مردم بك بهذا المخزون الشعرى الراقى الذى تركه على طبقات عقلى الباطن . وإذا كان الذوق الشعرى عجينة تتشكل بما نراه ونسمعه ونقرؤه فى طفولتنا ، فإن خليل مردم كان له الفضل العظيم فى زرع وردة الشعر تحت جلدى وفى تهيئة الخمائر التى كونت خلاياى وأنسجتى الشعرية !

● **وقبل أن أبدأ فى اللقاء تساؤل جديد ، بادرنى نزار بسؤال لم أتوقعه . (وأنت ماذا فعل بك مدرس اللغة العربية ؟!)**

وقلت على استحياء : لست شاعرا وإن حاولت وأنا تلميذ فى مدرسة بنى سويف الابتدائية أن أكتب شيئا أقرب إلى الشعر فقال (السيد أفندى عبدالله مدرس اللغة العربية ، أتذكر الاسم جيدا) أمام الفصل (شعرك ركيك واسلوبك وخطك أكثر ركاكة) واستطردت ونزار يصغى (وأظن أن هذه العبارة القاسية التى أدمتنى هى التى صرفتنى أن اقرأ بنهم ويكون لى أسلوب مقبول ثم بذلت جهدا مضنيا لأحسن خطى السيىء !)

وضحك نزار وقال : (لقد أردت أن تبعث لسيد أفندى انك تجاوزت العقدة) وأومأت برأسى وهمست لنفسى (أين سيد أفندى الآن) ؟ جاءت أكواب الشاى الانجليزى الجميل الايرل جراى الذى أفضله ، وبدأنا نرشفه فى هدوء .

● **عدت أسأل : كيف (تنحت) كلماتك ؟ من أين تأتى مفرداتك الشعرية . ان أبجدية نزار قبانى صارت محفوظة ، ولغتك تتسلق الأصابع وتتسلل للحناجر وتنام على أرفف المكتبات !**

□ أستقطب هموم الجمهور وانفعالاته وأقف على أرض التوقع والنبوءة

□ كيف يتزوج البرق من البرق ؟ النتيجة : حرائق وحطام !

قال نزار : انا لا اعرف من أين تأتى مفرداتى الشعرية ! لا أعرف ! انا مثل راكب الدراجة ، من الصعب أن اشرح لك كيف اركبها . نحن نؤدى عمليات الابداع بشكل عفوى ولا نعرف . يعنى انا لو فكرت كيف تأتى القصيدة ، ما كنت كتبت شيئا . انها خلطة كيميائية نفسية تاريخية ، وأحيانا اقول لست وحدى أكتب القصيدة !

● قاطعت نزار بسؤال : هل يشاركك جمهورك في كتابة قصيدتك ؟

قال نزار بسرعة : إذا كنت تعنى بالمشاركة ان هذا الجمهور يجلس على أصابعى عندما أكتب ، فهذا غير صحيح ، أما إذا كنت تعنى بالمشاركة انى استقطب هموم هذا الجمهور وانفعالاته وأتحسس بها كما تشم الخيول رائحة المطر قبل سقوطه فهذا صحيح . أنا أقف على أرض التوقع والنبوءة ! انا أشعر ان العصور كلها تكتب معى . فانا حامل تراشاق أعماقى بالاضافة الى تجربتى الشخصية . انا أشعر ان هذه الخلطة الابداعية مجهولة المنبع ! كل الذى أفهمه أن وظيفة الشاعر أن يحرق خيمة أهل الكهف ويزرع الألغام تحت قطار عصر الانحطاط . ولعل من أهم انجازاتى انى قلبت طاولة اللغة وجعلت الشعر جمهورية شعبية ديمقراطية .

● قلت لنزار : انك شاعر تصادمى !

قال : هذا صحيح إذا لم أجد من (اتخانق) معه ، تخانقت مع ورق الكتابة .

● قلت : قصائدك السياسية منها ، قصائد انتحارية ؟

ابتسم نزار وقال : خلال ٥٠ عاما ، كتبت الوف القصائد الانتحارية ولم افكر أن أؤمن على أصابعى لدى أية شركة تأمين . لا قيمة لشاعر لا يحدث شغبا داخل اللغة وشغبا في قشرة مجتمع التخلف ! يا أخى أصبح عرب المنفى أكثر من عرب الداخل ، حتى صار يحق لهم أن يحصلوا على مقعد في هيئة الأمم المتحدة ! انا منقلب على كل شيء حتى على لون عينى وفصيلة دمى ! والشاعر - ياسيدى - الذى يقبل أن يدخل بيت الطاعة ، يخسر بكارته وبكارة الشعر .

قلت لنزار : كشف لى الشاعر محمود درويش وأنا أحاوره مرة في عمان عن شيء خاص في حياته قال (يا عزيزى مفيد حياة الشاعر مع شاعرة في بيت واحد كارثة كبرى) !

رد نزار : هذا صحيح . لا يمكن أن تضع النار على النار وتطلب أن يتقطر منها الماء . الشاعر برق والمرأة الزوجة الشاعرة برق فتصور حين يتزوج البرق من البرق ، لن يكون أولادك سوى حرائق ، وأنا مع محمود درويش تماما . فقد كانت بلقيس تصادق قصائدى .. وتدللهنى ! كانت بلقيس تعرف جيدا انه حين يطلب إلى أن أختار بين المرأة والقصيدة ، أختار القصيدة بدون تردد !

● قلت لنزار : هل سقطت بيروت منك سهوا ؟

قال بغضب : لا يسقط الزمن الجميل منى مطلقا ! ولكن الوقت احترق وأوراقنا احترقت ، وضفائر حبيباتنا احترقت ، حتى الماء احترق في بيروت . لا يوم في بيروت . هناك (ثوان) في بيروت . اليوم التوقيتى الذى تعارفوا عليه .. انكسر . الزمن اللبنانى ، انكسر .

● قلت لنزار : لك ثلاث قصائد تحمل ثلاثة أسماء ، عبدالناصر وتوفيق وقصيدة

بلقيس .

قال نزار : القصائد تتجاوز الأشخاص . القصائد صارت (حزب معارضة) صارت (قضية) .

● قلت مرة - يا أستاذ نزار - في احدى قصائدك :

سيدتي
عندي في الدفتر
ترقص آلاف الكلمات
واحدة .. في ثوب أصفر
واحدة .. في ثوب أحمر
يحرق أطراف الصفحات
أنا لست وحيدا في الدنيا
عائلتي .. حزمة أبيات !
ألم تعرف طعم الوحدة أبدا ؟

قال نزار : عرفت الوحدة بعد أن رقد جثمان بلقيس تحت الحطام .

● قلت لنزار : نكسة يونيو هزت الانسان العربي وفجرت نغما في أبجديتك وأحدثت فيما أتصور زلزالا على دفاترك وانطلقت قصائدك تحمل لغة بمستوى الألم تتدفق منها رائحة الحرائق .

قال نزار : من تحت خرائبنا النفسية خرج أدب حزيراني .. من حناجرنا الممتلئة بالملح والخيبة خرج . من عظامنا المطحونة وأحلامنا المطعونة وشفاهنا التي شققها العطش خرج !

● سألت نزار عن قصيدته (السيرة الذاتية لسياف عربي) فانطلق ينشد .

أيها الناس .
أنا الحجاج .. إنْ أنزع قناعي تعرفوني
وأنا جنكيز خان ، جئتكم
بحرابي وكلابي وسجوني
لا تضيقوا أيها الناس ببطشي
فأنا أقتل ، كي لا تقتلوني
وأنا أشنق ، كي لا تشنقوني
وأنا أدفنكم في ذلك القبر الجماعي
حتى لا تدفنوني

ثم رشف نزار من كوب ماء أمامه رشفة واستطرد (يغني)

أيها الناس
أنا المسئول عن أحلامكم ، إذ تحلمون
وأنا المسئول عن كل رغيف تأكلون
وعن الشعر الذي - من خلف ظهري - تقرأون
فجهاز الأمن في قصري يوافيني
بأخبار العصافير وأخبار السنابل

ويوافينى ، بما يحدث فى بطن الحامل !

قال نزار : الكلمة ملكة ، ولكن بعض الانظمة تريدها (شغالة) وأنا - ياسيدى - لا أشتغل عند أى سلطان ، فكل السلاطين يشتغلون موظفين لدى شعرى ! ماذا يبقى من الكاتب حين يصير عضوا فى نقابة الشحاذين ؟! أنا شاعر لا أعترف بقصيدة لى ، لا تفتح ثقبا فى غلاف الأوزون !

□ الكلمة ملكة ولكن للأسف بعض الانظمة تريدها شغالة !

● **قلت لنزار قبانى : عندما أنظر فى شعر رأسك الثلجى اللون ، أحس أنك عرفت أكثر من غيرك - أشياء منظورة وأخرى غير منظورة بحكم سباحتك ضد التيار . فأنت الذى بعثت الحياة فى أوصال الحروف ، فتبعتها صبية تضج بالحياة ، وأنت الذى برهنت لنا على قدرة لغتنا للنماء والتطور واستيعاب كل التجارب الانسانية التى يموج بها عالمنا الداخلى . قل لى خلاصة التجربة مع المرأة ؟!**

قال نزار : المرأة تتزوج الغول بعد أن تستشير النجوم والأبراج وفناجين القهوة ، وبعد أن يأكلها الغول ، تخرج من بين أضراسه لتتزوجه مرة ثانية !

● **قلت : خلاصة التجربة مع الكتابة ؟**

قال نزار : ان رضى الكاتب أن يكون مرة دجاجة .تعاشر الديوك أو تبيض .. أو تنام فاقرأ على الكتابة ، السلام !

● **سألت نزار قبانى : هل تشعر بالزهو لأنك شاعر مقروء ومسموع ومرئى ؟**

قال (بزهو) : إذا كان جورباتشوف قد نادى منذ سنوات بالبريسترويكا السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، فإن التغييرات التى أحدثتها فى لغة الشعر منذ خمسين عاما هى أيضا بريسترويكا نزارية !





طفولة سعاد الصباح

« البصرة كانت بساط طفولتي الأخضر » !

العزف على آلام إنسان ، مهمة صعبة .

وعندما يكون هذا الانسان شاعرا ، تغدو المهمة أكثر صعوبة . وعندما يكون الشاعر امرأة ، يصبح الحوار سكينا فى مكان الجرح ، وعندما تكون الشاعرة قد سرقوا وطنها وهم نيام وسرقوا نخيله واعتقلوا نجومه ، يصير النزف من المسام والعيون .

وذات مرة قرأت لنجيب محفوظ عبارة تقول اننا نتحرر من عذاباتنا عندما نحكيها ، إن العذاب لحظتها يرحل من الضلوع . فهل كنت أساعد الشاعرة الكويتية الكبيرة سعاد الصباح على التحرر من عذاب مكتوم يلون قاع عينيها ؟ هل كان حوارى معها ، حوار محاور يبحث عن الحقيقة بين شرايين قلب موجوع ، أم تلذذا برفرفة طير مذبوح ؟!

□ العـــراق يبقى العراق بشعبه ومروءاته

● **سألت موجوعة القلب : كنت تحملين دائما ابتسامتك ..**

قاطعتنى : صرت أحمل اليوم ملف أحزانى وأحزان الوطن الكويتى المقهور ، الملف الذى أحمله ليس ملفا شخصيا وإنما هو ملف وطن صغير هو فى طريقه إلى المحو والاستئصال بحجة انه خطأ تاريخى وجغرافى !

● **قلت همسا وكأنى لا أريد أن أكشف الجراح : تمنيت يوما يا سيدتى أن تتزوجى سيفا عراقيا ..**

قالت الشاعرة بقلب مكلوم : النظام العراقى مع الأسف الشديد أرسل إلينا عقد الزواج والمأذون على ظهر دبابة ، لذلك كفر الكويتيون بهذا الزواج السياسى الفظ وهربوا من بيت الزوجية تاركين وراءهم الجهاز الذى وضع العريس يده عليه وشحنه إلى بغداد .

● **قلت لسعاد الصباح : هل ندمت على هذا الهوى للعراق ؟**

تمتمت بأسى : كنت دائما متهمة بأنى عراقية الهوى وأن كتاباتى شعرا ونثرا مبللة بأمطار العراق ورطوبة أنهاره ونضارة بساتينه ، وكنت أفاخر بهذه التهمة الجميلة . لأنى كنت أعتبر العراق الجناح العربى القومى الذى يغطينا ، ورغم الحزن الكبير الذى يعتصر أعماقى ورغم الخراب العظيم الذى يتراكم فى صدرى وفوق أوراقى . فأنا أعتبر نفسى ابنة الكويت حتى آخر العمر .

● **قلت : لك ذكريات خضراء فى البصرة ..**

شدت خيط الحديث قائلة : كانت البصرة هى البساط الأخضر الذى ألتجىء إليه كما يلتجىء كل إنسان لمراعى الطفولة .. وطفولتنا هى البحر الذى نسبح فيه ، وعندما تغرقنا أمواج الحزن نحتمى بها .

تنهدت الشاعرة ، وأضافت : ولدت فى البصرة ولى فيها ذكريات وصديقات ، على أرض البصرة ، عبثت الريح بضفائرى ، على أرض البصرة اختلط اللون الأزرق باللون الأخضر .. وتعانق التمر بأشجار النخيل ، وما جرى لا يغير موقفى من العراق ، فالعراق يبقى العراق بشعبه ، بفضائله بمروءاته ، النظام العراقى وليس العراق هو الذى ارتكب هذا الخطأ الفادح .

● **سألت الشاعرة : من أين اكتسبت حريتك فى التعبير ؟**

أجابت باعتداد امرأة عربية : اكتسبت حريتى من أفق الصحراء ، هذا المدى اللانهائى ، الأفق فى الكويت والبحر فى الكويت ، الأفق مفتوح ، والبحر مفتوح ، وجاءت المعادلة : جموح الصحراء وهدوء النهر وصبر النخلة فى العراق .

● **قلت : يأخذ عليك البعض انخراطك فى حب العراق ..**

دافعت عن نفسها بحرارة : ربما كنت مخدوعة أو مغرورة أو رومانسية حتى اندفعت بكل عاطفتى فى تأييد نظام كان يخطط فى الظلام لإبادتى وإلغاء وجودى ، وأود أن أقول لهؤلاء البعض ان مواقف الإنسان ليست أسمنتية بل مصنوعة من الدم واللحم والأعصاب .. الشاعر برق ورعد ومطر وسماء دائمة التحولات .

بين مهنة المحاور الصحفى والجراح ، خيط ما من التشابه ، فالجراح يبتر .. وأسئلة المحاور لها نفس الخاصية !

□ الوطن انتماء مهما بعدنا جغرافيا

□ بكيت موت ابني ونكسة ٦٧ ورحيل عبدالناصر وسرقة الكويت

● **سألت سعاد الصباح : لا تذكرين صدام حسين فى قصائدك أو مقالاتك، ترددين دائما عبارة (النظام العراقى) .**

أجابت : ما أردت يوما أن أتدنى إلى مستوى الشتائم ، فأنا أخاطب العقل العربى ، صفوته وعامته ، ولا يحتاج هذا لتشنج ، وعندما أقول النظام العراقى ، فأنا أقصد صدام حسين ، أنا لا أشتم لأن قضية بلدى واضحة وضوح شمس استوائية ، وأنا - بالمناسبة - ضد الشتائم حين يكون الحق منطقيا ، ماذا تفيد الشتيمة إذا جاءت على لسان كاتب أو شاعر ، لن تفيد لا سلبا ولا ايجابا ، قلمى ، قلم حضارى ينطلق من موضوعية ليصل إلى العقل ، أنا لا أحرك مشاعر الناس لدقائق وبعدها ينسون لب القضية .

● **قلت للشاعرة : آخر مرة قابلت فيها الرئيس العراقى ، متى ؟**

قالت تمسح الغبار الأسود عن ذاكرتها : كان ذلك فى المؤتمر الشعبى الذى كان حاشدا لكل الفئات الشعبية ، كنا أكثر من ألفى شخصية عربية تقف فى خندق العراق وتؤيده بعد تهديدات إسرائيل ، وبعد أن قال الرئيس العراقى انه سيحرق نصف إسرائيل ، فإذا به بعد قليل أحدث شرخا فى الأمة العربية شعوبها وأنظمتها .

● **قلت لسعاد الصباح معتذرا عن سؤالى الذى بدا وكأنه سهم أرشقه فى وجدانها : بعض الناس ، يا سيدتى ، يقولون باعتبارك الصوت الأقوى فى معركة استرداد وطنك المسروق ، انك لا تعيشين إلا جزءا يسيرا من حياتك داخل الكويت وبقية العام فى أوروبا فكيف شعرت بوطأة ما جرى ؟**

قالت الشاعرة بصلابة : الإنسان انتماء ، فلا تعتذر عن سؤالك ، ومن المهم أن أعرف ما يتردد ، أنا أحب المرايا الصادقة ، الوطن بداخلنا أينما ذهبنا ، كما نفارق الأب والأم جغرافيا ، ولم نفارقهما داخلنا ولو ثانية واحدة ! عندما حدث الغزو صرخت بأعلى صوتى ليصل إلى مساحة أكبر ، الوطن داخلنا مشتبك بأعصابنا ولحمنا ودمنا ، داخل الكويت أو خارجها ، لم يغب أفقها الممتد عن بالى ، داخل الكويت أو خارجها ، للإنسان هوية واحدة ، داخل الكويت أو خارجها ، همومها تسكن القلب وتدميه أحيانا !

● **قلت لسعاد الصباح : متى بكيت كامرأة .. ولستِ كشاعرة مثقفة .. بكاء مرا ؟!**

قالت والدمعة تلمع فى عينيها : يوم مات عمى بعد أن سمع نبأ الغزو ، كانت الثالثة صباحا ، والجثة هامدة ساكنة أمامى مغطاة على السرير بملاءة بيضاء ، عشت الكارثة بكل أبعادها ، اجتياح لوطن ، وفقد عزيز هو بمثابة والدى ، أين أذهب بالجثة وهو الذى حلفنى بكل المقدسات أن يدفن فى الكويت ، وقفت أصلى فى الفجر ، تشاركنى دموعى ، دموع حارة موجعة ، لا أملك مهما وصفت لك ، طعم مرارتها ، ساعات مريرة وأنا أنتظر فى المستشفى حتى يطلع الصباح ، بكيت كثيرا بكيت فقد ابنى ، بكيت نكسة ٦٧ انكسارنا القومى ، بكيت رحيل عبد الناصر ، بكيت عندما شعرت انه حتى القبور سرقوها ولا يعطوننا تأشيرة مرور إلى أرضنا لندفن موتانا .

● قلت للشاعرة : تحولت كمثقفة إلى رمز ..

قالت الشاعرة : الثقافة بمعناها الشمولى هى موقف من الإنسان فى صراعه من أجل الحق والعدل والحرية ، والثقافة لا يمكن أن تكون محايدة فى قضية كبرى كالحرية ، لا يمكن للمثقف أن يقف فى نقطة الوسط بين الحرية والعبودية وإلا صار لاعبا فى سيرك ، وبكل أسف دعنى أقول لك ان أحداث الخليج كشفت عن أكثر من مهرج ثقافى وأكثر من متذبذب . وثمة مثقفون آخرون اختبأوا فى جحورهم وامتنعوا عن الكتابة والادلاء بأى تصريح بانتظار نتيجة المعركة ، ان سوق النفاق الثقافى فى ذروة ازدهارها فى هذه الأيام .

استطردت تقول : كرست قلمى لأفضح ممارسات النظام العراقى حتى لا تتكرر المأساة وحتى يبقى هناك اتساق بين ما نؤمن به وبين ما هو قائم وموجود ! مواقفى الشعرية لم تتغير ، كنت مع الفلسطينيين عندما ضربوا فى بيروت ، وكنت مع المصريين فى عام ٦٧ وحرب ٧٣ ، كنت فى تونس عندما ضربت ، وكنت فى ليبيا حين ضربت ، كان قلمى مجندا فى كل القضايا العربية كنت أدافع عن الحق العربى الذى كان يمثله الجيش العراقى .

● سألت سعاد الصباح : ماذا جرى لبيتك فى الكويت ؟

قالت بشرود : بيتى ؟ بيتى شىء جزئى ، بل أقل الجزئيات ، ما حل بوطنى أهم مما حل ببيتى . وطنى هو بيتى وما حل بوطنى كارثة كبيرة .

قلت : ماذا قال لك أولادك ؟

قالت سعاد الصباح الأم : من فرط الذهول لم يصدقوا . سألونى هل هذا صحيح ؟!

●سألت الشاعرة : ما هذه المزاعم التاريخية عن حق العراق ؟

قالت بغضب : مزاعم واهية . أرض الكويت ظلت أيام مبارك الصباح دولة قوية ولم تخضع للنظام العثمانى والتاريخ موجود . أنا لا أدافع لأنى « صباحية » ، أنا أدافع عن واقع . حكم الصباح على امتداد أكثر من ٣٠٠ سنة . الحكم فى الكويت قبل الحكم فى العراق . العراق عام ١٩٢١ جاءوا بالملك فيصل من سوريا وتوجوه ملكا على العراق .

● قلت لسعاد الصباح : هذا الاجتياح ، كيف تبلورين أسبابه ؟

سرحت قليلا ثم قالت : هل هو نتاج أزمة اقتصادية طاحنة فى العراق . لم لا ؟! هل هى تداعيات عنفوان السلطة فى العراق . لم لا ؟! هل هى الآلة العسكرية الجهنمية فى العراق . لم لا ؟! لا أجد تفسيرا يرضى به المنطق !

●قلت للشاعرة : كيف وجدت المعارضة العراقية فى لندن ؟

قالت : لها صوت وتستطيع أن تتحرك وتؤثر .

● قلت : كيف مات الشهيد فهد الأحمد فى المقاومة ؟

قالت : تركوه ينزف .. فمات فى بركة دمائه ، وعندما عرف الضابط العراقى ان الذى قتله هو الشيخ فهد ، أخذ يبكى ! المقاومة الكويتية ـ بالمناسبة ـ تصدت للغزو منذ اللحظة الأولى . ونحن الكويتيين ـ كما قلت ـ لا تخيفنا مفاجآت البحر أو زمجرة الرياح ، فنحن عشنا دائما فى داخل الإعصار !

□ أن للكويتي أن يغير عاداته القديمة !

● **قلت للشاعرة « المكسورة ، المقهورة ، الذاهلة » التى قذفت الخيبة أحلامها يمينا ويسارا :**

تحلمين بصورة كويت جديدة ؟

قالت سعاد الصباح : لابد للكويتى من الخروج من مرحلة الاسترخاء والقيلولة ، فقد دخل السيف فى خاصرة الكويتيين دون أن يتوقعوه أو يحسبوا حسابه أو يستعدوا له وأمام هذا الواقع التراجيدى الجديد آن للكويتى أن يغير عاداته القديمة ويفكر فى نفسه وسلوكه ويفهم أحوال الكون ولعبة الأمم . الكويت الجديدة ، هى كويت الحرية والديمقراطية واحترام حقوق الإنسان . أهم محاورها ، التركيبة السكانية . لابد أن تكون تركيبة عربية حتى يبقى للكويت وجهها العربى . الزلزال الذى حدث أعطانا الحل من أجل كويت جديدة معاصرة . لا نريد ثقوبا فى نسيجنا الاجتماعى !

● **قلت لسعاد الصباح : نقص وزنك ـ عفوا ـ بشكل ملحوظ . القضية هاجسك فى صحوك ونومك ..**

قالت موجوعة القلب النازفة الوجدان : المهم أن نبقى دائما وراء قضيتنا حتى لا تتحول إلى قضية تاريخية مزمنة كعشرات القضايا الأخرى التى نسيها العالم . علينا ـ والجرح طازج ـ ان نبقى مستنفرين مجندين مزروعين على الخطوط الأولى ليلا ونهارا .

● **سألت الشاعرة الكويتية : الثقافة العربية .. و**

وقاطعتنى : أى ثقافة عربية ؟ لقد تحولت إلى سوبر ماركت كبير . يباع فيه المسيح بثلاثين من الفضة والمبادىء الثورية بنسبة مئوية من واردات النفط الكويتية ، ويباع فيها كارل ماركس بكيلو سمك (مسقوف) ويباع فيها الكلاشينكوف مع الكوفية والعقال لقاء وعد بتحويل دولة الكويت إلى وطن موعود لأبى عمار .

● **قلت : هل مازال هناك وقت أمام النظام العراقى قبل الخيار العسكرى ؟**

قالت ابنة الكويت : مازال هناك وقت للعقل ، ولن يخذل صاحبه فالخيار العسكرى هو « الموت الأسود » كما يقولون !

بايقاع أسرع من ايقاع أحداث الخليج سألت الشاعرة الكويتية المحاربة بالكلمة ، المقاومة بالحرف :

● **علاقتك بقلمك ؟**

علاقة ثورة بكل معانيها .

● **هل يستدعيك دائما ؟**

أنا موظفة عند هذا القلم ، يستدعينى ليلا ونهارا كجندى تحت السلاح . قلمى مستنفر ليلا ونهارا .

● **أوراقك ؟**

الأفق الذى أكتب عليه .

● **تخاذل بعض المثقفين من قضية الاجتياح ؟**

جبن لن يغفره الشارع العربى .

● **موقف مصر من الأزمة ؟**

مهما قلت فالكلمات أصغر من قامة مصر .

●**هل مازلت مؤمنة بالتضامن العربى أم صار وهما عربيا ؟**

قناعتى الداخلية ، رغم كل الدمار ، أنا مؤمنة بحتميته .

●**هل هبت عليك رياح التشاؤم لحظة ؟**

كثيرا ما دق على بابى ، ولم أفتح ، وظل على الباب يترصدنى !

● **قناعتك بدورك ، قناعة كويتية أم قناعة امرأة مثقفة ؟**

قلبى مع حب الوطن ، والعقل بعدالة قضيته . قناعتى قناعة امرأة نشلوا كحل وطنها من عيونها ..

● **تحملين صلابة الرجال ، وقوة تحملهم ؟**

الصلابة ، كلمة أنثى . وان كانت لا تفرق بين رجل وامرأة .

● **حلم فى منامك .. يتكرر كثيرا ؟**

عودة الكويت .

●**أقوى ما فى المقاومة الكويتية الآن ؟**

العصيان المدنى .. لم يتعاون موظف كويتى مع السلطات العراقية .

● **من يستفزك ؟**

يستفزنى العاطلون عن العمل فى مقهى الوحدة العربية والمغلق حتى (اشعار آخر) .. يستفزنى بعض المثقفين الذين يظنون ان دم جيفارا أكثر نقاء من دم الشهداء الكويتيين الذين سقطوا تحت جنازير الدبابات العراقية .

● **سألت الشاعرة الكويتية الكبيرة سعاد الصباح السؤال الأخير لأنهى حالة العزف ـ بالحوار ـ على الآلام و .. لتلتقط أنفاسها اللاهثة ..**

هل يندمل الجرح ؟

قالت كسيرة الفؤاد ، الصلبة كالرمح : لا يندمل إلا .. بالزمن !

□ **أي كلمات أصغر من قامة مصر**

***



أحد أضلاع مثلث الرواية العربية

الطيب صالح

« أهرب من الكتابة، تصور!!»

« بالمناسبة ، يجب أن أعترف لك ككاتب بأن الاهتمام يسعدني ، أنا مش زاهد في الشهرة . فالصحفي هو الجسر بين أفكار الكاتب والناس . وأنتم تقومون بمهمة أعتقد أنها موازية للانتاج الفكري والأدبي . وأنا في أحاديثي الصحفية مقل إلى حد الشح كما تقول . بالمناسبة معك كبريت ؟ الآن تذكرت أنك لا تدخن . قلت لي مرة في الدوحة إنك تختال لأنك لم تقع أسيرا للتدخين .

أعود وأقول لك إني أحس بأن أفكاري لم أنته فيها إلى قناعات . وحين تسألني عن رأيي مثلا في الأزمة الفكرية أو الثقافية للعالم العربي ، سأقول ما يخطر لي على عناته دون سابق « فكر أو تدبير » لن أعطى . كما يقول الانجليز . المنطوق السليم فأنا أزيف الأمور على نحو ما . بالمناسبة أنت تنجح في إخراجي من صمتي . اكتشفت ان لاصغائك وظيفة أخرى غير الاستماع لمحدثك . إن اصغاءك ، أرض مطار تهبط عليها طائرة البوح . بالمناسبة لكاتب انجليزي عملاق رأي يقول : إنك في اللحظة التي تضع فيها كاتبا وضع (المفتي) أي أنك تسأله رأيه في أمور شتى ، فهو مزيف إلى حد ما . لأن الأدب تعامل مع الصدق الكامل . تذكر معي مسرحية لشكسبير . أظن أني نسيت الآن . ذاكرتي صدت أيوه تذكرت . إنها مسرحية الملك لير . يقول على لسان شخصية ما « علينا أن نقول ما نؤمن به وليس ما يطلب منا قوله » .

مزاجه الشخصي

١ ـ أحب ساعات النهار إليه ساعة الضحى . في إحدى رواياته يصف فتاة بقوله: (كانت ذهبية اللون مثل حقل الحنطة ساعة ضحى ، قبل الحصاد) .

٢ ـ حبذا لو جلست معه على الأرض كما يفعل مع ناسه في السودان . لحظتها يكون في اكتماله ويفصح عما بداخله . وتكاد تسمع عبر حديثه « زغرودة طويلة للحياة » والوصف للدكتور على الراعي .

٣ ـ يجب أن أبطىء من إيقاعي اللاهث معه ـ أنا أومن ـ هكذا يقول الطيب صالح بمثل عربي هو (... والمليح يبطىء) ، فالسرعة والايقاع الديناميكي ليسا من صفاتي . خصلتان يحبهما الله ورسوله : « الحلم والأناة » .

أول مرة عرفته ، كانت تسبقه بضع كلمات عنه عبر « كارت بوستال » يحمل طابع بريد لندن من صديقتي غادة السمان . كتبت غادة تقول لي : « لأني أعرف إبحارك في الأدباء والمفكرين وأعرف أنك تفتش في بحارهم عن الأصداف واللآلىء . سوف تلتقي في القاهرة بوجه أبنوسي قلما يظهر في حفلات الكوكتيل في السفارات أوالندوات التليفزيونية أو الاذاعية وليتك تقنعه بالحوار معك . إنه لا يدري كم هو مبدع . الطيب صالح ، متواضع كالعشب . ولا تزال في ضحكته تلك البراءة الطفولية التي نجدها في قاع العباقرة عادة . أعرف أنه قد يعتذر عن عدم الحديث معك وأنا أفهم دوافعه . فهو مثلي من المؤمنين بقول جوته (عالم الفن شاسع لكن حياتنا قصيرة) إنه ـ بدلا من الكلام ـ ينصرف للقراءة والمعرفة . إنه أديب مقل فالانتاج الأدبي ليس كولادة القطة (سبع في بطن واحدة) ! وليس من المفروض أن نطالب الأديب بما يطالب به الزوج الشرقي زوجته » !!

□ أتمنى أن أعيش على سطح الحياة كسائر الناس

و .. التقينا ـ الطيب صالح وأنا ـ وأحببت « زوربا السودانى » تقابلنا فى الدوحة ، والرياض ، ولندن ، والقاهرة ، وعمان وبعد أكثر من عشرين لقاء وافق على أن نتقاسم الحديث ! سألته ـ بفضول ـ عن حيثيات قبوله مبدأ الحوار معه ، فضحك بصفاء وقال : « مفيش حيثيات يا راجل . أنا شعرت ـ كما يقول الانجليز ـ بالثمرة الناضجة المشتهاة . وبالمناسبة أنا يعجبنى انك لست بالمحاور التقليدى . فالتقليدية تهدم جسور التواصل . والحوار الصحى ، ثمرة يأكلها اثنان » وقلت له ونحن نتفق على الموعد « لقد يئست من استنطاقك حتى ظننت إنك فقدت شهيتك للكلام » .

وقال الطيب صالح ـ بتواضع له رائحة كالعطر ـ « أو تظن عندى ما له أهمية ؟ أو اتعتقد انى بلغت أوج الحقيقة ؟ أنا مازلت أقف على أبواب الأسئلة ! » .

وقلت للطيب صالح وهو اسم على مسمى « إنك كاتب له بصمة يحاول أن يقلل من شأنها وهذا يذهلنى وكأنك ترى أن الأدب عبث . والفن عبث . والحياة كلها عبث » !!

قال الطيب بطيبة شديدة : « أنا من ذلك النوع الذى يضطر للكتابة بيد أنى أريد أن أعيش على سطح الحياة كسائر الناس » .

قلت : ألا تخشى الجحيم ، أى عيون الآخرين ؟

قال بسرعة خالفت إيقاعه البطىء المتمهل : « ربما يكون الجحيم داخليا فى نفس الإنسان » !

قلت : أليس عندك ـ فى صدرك ـ ما تجرؤ على إعلانه ..؟

قال الطيب صالح : أفضل عدم التجرؤ دون داع !

رؤيـــة

الطيب صالح ليس كغيره من الفنانين الخلص الذين يحرصون على الوفاء بكافة أبعاد العمل الفنى من نسج متقن للعبارات وتصوير دقيق للشخصيات وخلق للحكاية الشيقة التى تشد الأنفاس حتى النهاية . وبذلك يتحول الفن فى أيديهم إلى حلى زخرفية تثير العجب ببراعتها ولكن لا معايشة فيها للواقع . إنما هو فنان مفكر أو هو كاتب يجمع بين الفكر والفن بحيث يصدر فى أدبه عن خلفية فكرية عميقة ويشكل بهذا الأدب موقفا حضاريا أكثر عمقا وأبعد مدى .

« الناقد جلال العشرى »

اشعل الطيب صالح سيجارته وقال لى : « بالمناسبة انت ذكرت لى اسم غادة السمان وأنا أعترف لك انى اكن لها إعجابا بلا حدود . أنا معجب بفنها لأنها نذرت نفسها لهذا الفن ، وأنا استخدم كلمة « النذر » بالمعنى الصحيح . لقد ضحت بكل شىء تقريبا وحولت حياتها هى نفسها شخصيا إلى بوتقة لصنع الفن فهى بكتاباتها ـ كاتبة مهمة ـ فى تقديرى إلى جانب أنها إنسانة ودود ومحبة .

قلت لزوربا السودانى : « أنت لا تتكلم عن نفسك وكأنك نذرت أن تظل محارة مغلقة » !

قال الطيب صالح : « إذا اعتبرتنى كاتبا فأنت تضعنى فى نفس المجموعة التى فيها الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد الكاتب والعقاد وطه حسين وهذا ادعاء كبير !

وإذا قلت عنى أنى كاتب بالمعنى العالمى ، فمعناه أنى وضعت نفسى مع ديستوفسكى وتولستوى وتشارلز ديكنز وبروست وتوماس مان . أنا - بالمناسبة - لا أحاول أن أبالغ فى قيمة نفسى وأنا فى النهاية بشر ويطربنى الثناء ثم لماذا تنسى أنى سودانى .

□ مفاجأة زوربا السودانى الطيب صالح : أهرب من الكتابة !

قاطعته بأدب « هل الجغرافية بُعد نفسى » ؟

قال الطيب صالح : « عبارتك دقيقة . ولا يمكن أن تفصلنى كإنسان عن نشأتى وأين ؟! نحن عادة فى السودان نبدو أقل مما نحن إذا قستنا ببعض الشعوب العربية المقتحمة . نحن ربينا على أن نبدو أقل مما نحن . تسألنى هل فيها طعم الحياء ؟ أقول لك نعم . لا تنس أيضا تأثرى بالأدب الانجليزى . فأنت عندما تقارن الانجليز بالفرنسيين تكتشف أن الفرنسى يقول أكثر مما يعنى والانجليزى يقول أقل مما يعنى . بحيث أنك تترك فراغا للطرف الآخر - المتلقى ليقرر هل ما تقوله له معنى أم لا ؟!

قلت للطيب صالح : أنت - عفوا - تقرأ ، ربما أكثر مما تكتب . وأكاد أشعر أن أصدقاءك الصامتين ، يعطونك مع المتعة ، الأمان .

ضحك ضحكة مجلجلة وقال : « كأنك تقرؤنى » .

ثم استطرد الطيب يقول : « هناك من كتبوا أفضل منى وأنا أعيش معهم فى عوالم بهيجة . أطل عليهم دون أن أبذل جهدا والقراءة أمتع من الكتابة بالنسبة لى . هناك كاتب يعشق الكتابة ولكن يدهشك أن الكتابة عندى من همومى . وقد أسوفها لأتفه سبب .

قلت : الناس - فيما أظن - هم مادتك كروائى . وأنت تقضى مع أصدقائك الصامتين أكثر مما تخالط الناس إلا فيما ندر . هل الرواية عندك اهتمام أم حب أم عشق أم صدفة ؟

أجاب بتمهل شديد « أخذت من التجربة ما يكفينى إلى نهاية العمر فلست فى حاجة إلى أن أخالط أجواء كثيرة . لعله يدهشك أنت أن تعرف طريقتى فى الكتابة . أنا يهمنى نصف جملة أسمعها فى الشارع أكثر مما أجلس مع شخص وأتحدث معه . أحيانا وأنا أسير تلتقط أذناى عبارة (وبعدين يا سيدى الراجل راح .....) مين الراجل وراح فين وليه . أنا أصنع ميثولوجيا وهى تقوم على أنصاف الحقائق وليست بالحقائق .. الميثولوجيا تقوم على شىء يشبه الوهم لأن هذا يعطى لخيالى الفرصة أن أتمم بقية الجملة وتستطيع أن تقول إن الأدب هو إتمام بقية الجملة .

تنوير

شمال السودان هو المادة التى يختار الطيب نماذجه الانسانية منها وشخوصه من الرجال والنساء الذين يحفل بهم هذا الجزء من التراب السودانى وهو ابن التمازج الحضارى العربى الافريقى . وهو باحث دوما عن الذات الافريقية .

« سعيد محمدية »

قلت : تبدو دائما « الزاهد صالح » وليس الطيب صالح !

ضحك هذه الضحكة التى تصدر عن أنقياء القلب .

وقال : لو نظرنا إلى تراثنا فى وادى النيل فنحن قوم زهاد . حضارتنا قائمة على الاستعداد للعالم الآخر . ثم إننا كمسلمين ومسيحيين فى هذه المنطقة ديننا يعلمنا أن الحياة عرض زائل . ولو استسلمنا لهذا الإحساس لما فعلنا شيئا لهذا يجب أن نوازن بين الأمور . وأنا يعجبنى فى الدين الإسلامى التصوف . لأن فيه شحنة وجدانية لا أجدها فى الناحية العقائدية فى الدين ولذلك أنفر من التزمت . نحن فى السودان ، وأعود مرة أخرى لجغرافيا النفس « عودونا يا أخى ألا نطلب الكثير » . أذكر أنى قلت فى موسم الهجرة إلى الشمال أصف الجد : إنه مثل شجر السيال وهو شجر صحراوى . ينمو فى صحارى السودان ، سميك اللحى ، حاد الأشواك ، لا يهاب الموت لأنه لا يسرف فى الحياة ؟"

أعجبتنى العبارة والمعنى الكامن فيها، فوجدت نفسى أرددها بلا وعى (لا يهاب الموت لأنه لا يسرف فى الحياة).

عاد الطيب صالح يقول . "هذه الأشجار حية ومليئة بالحياة ولكنها منطوية على ذاتها . ليست كأشجار البلوط مثلا أو السنديانة التى منت عليها الطبيعة بالمياه والخصب . فى بيئتنا ، لما الواحد يكون أحسن حالا من الآخرين يقلل من هذا ولا يظهر ثراءه للناس ، أنا أحب أن أكون الزاهد صالح كما أطلقت علىّ ، ولو أنى لست كذلك !

سألت الطيب صالح : هل لك رؤية للموت ؟

أجاب : فى أعمالى . عبرت عن هذه الرؤية . قلت فى موسم الهجرة (فى ليلة مثل هذه تحس كأنك تستطيع أن ترقى إلى السماء على سلم من الحبال ..) وهذا يرد على أبى العلاء . إذ يقول أبو العلاء : وكيف صعودى بلا سلم ؟ فأنا المسكين الفقير إلى الله أتطاول على أبى العلاء المعرى وأقول له تستطيع يا أبا العلاء أن ترقى إلى السماء على سلم من الحبال . وفى (حنو البيت) يقول الراوى إنه فى ليلة مقمرة جميلة أحس أن العالم متناسق ومتماسك وكأن الموت وجه من وجوه الحياة لا أكثر .

□ لا أهـــاب الموت لأنى لا أســـرف فى الحيـــاة

□ أغربل الحقائق وأقـــف على أبواب الأسئلة

بقعة ضوء

الطيب صالح نشأ فى بيئة قدرية ومطالبه الشخصية قليلة . تنتابه رعشة خوف بالنسبة للموت والمستقبل، لكن الخوف لا يلازمه .

« الجمعية النفسية السودانية »

سألت الطيب صالح : « ألازلت تقف على أبواب الأسئلة »؟

أجاب : أعتقد أنى بمعنى من المعانى مخلوق عقلانى ، أغربل الحقائق وأقف ـ حتى هذه اللحظة ـ على أبواب الأسئلة . وأحاول أن أفعل ما يسميه الانجليز (حالة التجرد الموضوعى التام ، والنظر من بعيد) .

قلت للطيب : البعض قالوا مرة إنك تستخدم الجنس بطريقة مثيرة فى بعض رواياتك . وأنا لا أحب أن يتحول هذا إلى سؤال، إنها ملاحظة أسوقها فقط أمامك ..

□ لست كاتبا جنسيا ولا أكتب للاثارة

□ كلنا بدو بالمعنى المعاصر

ضحك الطيب صالح وقال : إذا كانت العبارات قد صدمت طالبات قسم اللغة الفرنسية فى موسم الهجرة إلى الشمال فكيف بالله عليك سوف يقرأن كوست وبلزاك . أنا يا سيدى لست كاتبا جنسيا ولا أكتب للإثارة . والعبارات الجنسية محدودة جداً . وهذه العبارات ترد على ألسنة شخصيات تعَدُوا السبعين . وهم يجلسون على حافة الموت . نحن ننظر إلى الأمور بمقاييس مختلة . الكاتب فى السياق الدرامى يستخدم الجنس كوسيلة للتعبير . ومن هنا لا فحش . نحن كعرب عندنا قيود .. أما الكاتب الأوروبى فلا قيد عليه سوى قيود موهبته . يقف حيث تنتهى الموهبة . لكن الكاتب العربى تنتصب أمامه المعوقات ولذلك ما نكتبه دائما أقل مما نستطيع أن نقوله . كى أتحدث عن الخير لابد من المرور بقناة الشر . هؤلاء الناس - ضيقو النظرة - يريدون يوتوبيات ، ويحلمون بأدب تقريرى مثل نشرات الأخبار .

قلت للطيب صالح : حياتك الشخصية ، لغز مجهول مفتاحه معك .

ضحك زوربا السودانى وقال بلهجة حميمة : (يا أخى أنا راجل مش شايف إنه فيه شىء يثير الانتباه عنى أكثر من ناس كثيرين . فأنا مثلا ، متزوج من سيدة اسكتلندية . هل هذه المعلومة مثيرة للاهتمام ؟! لقد عشت فى لندن سنوات شبابى وتزوجت من المجتمع الذى عرفته ، وهى سيدة طيبة وزوجة وإنسانة ولى منها ثلاث بنات كبراهن زينب وهى تدرس الألمانية واللاتينية فى اسكتلندا .. وابنتى الوسطى سارة فى جامعة اكسفورد والصغرى سميرة عبرت عامها السادس عشر . أنا أعيش بين عالمين مختلفين . أنا من قرية فى شمال السودان وشاءت الأقدار أن أسير فى مرحلة تنتهى بى إلى عالم آخر مختلف . يعنى أنا أستطيع أن أسافر من لندن ، وخلال يومين أكون عند ناسى فى السودان وأعود إلى طبيعتى ثم انتقل وأجىء إلى لندن وأبقى شخصا مختلفا إلى حد ما وهذا مصير الإنسان المعاصر . يمكن كلنا ننتقل ونرحل فى المكان والزمان « كلنا بدو » بالمعنى المعاصر) .

قلت للطيب صالح : ماذا يصالحك على نفسك ؟ أنا مثلا تصالحنى فيروز على نفسى . والسؤال - بدقة - ما هى ملذات الطيب صالح ؟ إننى أحاول أن أقترب من الصفة البشرية للطيب الكاتب !

جاء الرد من خلال لفائف الدخان .

- حلوة عبارتك « التصالح مع الذات » أنا أعتقد فى رحلة العمر لو نتصالح مع ذواتنا نكون كسبنا شيئا جديدا . أنا بالمناسبة استعملت كلمة التصالح فى

شهادة

الطيب صالح ، فى الرواية شاعر كبير أدواته الفنية فى منتهى الطاعة لرؤاه الفنية الفياضة . وأدبه نموذج للحوار الفصيح الذى يحمل الكثير من الروح الشعبية بل حتى من الصياغات الشعبية بعد قليل من الصقل والتعديل .

« رجاء النقاش »

عرس الزين وأنشأت فيها مجتمعا متصالحا مع نفسه وبهذا المعنى فإن رواية عرس الزين لا تزال رواية للمستقبل والنقاد لم ينتبهوا لها بما يكفى وأنا أحب فيروز مثلك ولكن ما يصالحنى على ذاتى هوالفن الجيد النفاذ . وليس لى ملذات بالمعنى المباشر لكلمة ملذات . ورغم أنى زاهد فأنا أعترف لك بأن هناك جانبا حسياً لا أنكره فالمرأة مثلا من حيث إنها تسعدنى وتشقينى وهذا مفهوم فرويدى !

□ نعم لندن أسكنها وتسكنني

وسألت الطيب صالح : أشعر أن لندن الرمادية لها ظل عليك وأشعر . لست أدرى. هل تسكن لندن أو هى التى تسكنك ؟

قال وهو يسرح وكأنه يجتر أيامه فى لندن :

ـ فى بدايات العشرين من عمرى ذهبت إلى لندن . وأدين لها بالكثير . صداقات العمر بدأت فى لندن . عرفت مصر فى لندن قبل ذلك لم أكن قد قابلت مصريا غير الأستاذ ميلاد مدرس الرياضيات فى مدرسة وادى سينا الثانوية . سكنت فى لندن مع صديق عزيز هو عبدالرحيم الرفاعى . تعلمت منه الكثير عن مصر وعرفت مذاق اللهجة المصرية . لندن ـ مثلما تفضلت ـ أسكنها وتسكننى .

إشادة

فى روايته (موسم الهجرة إلى الشمال) جعل الطيب صالح بطله مصطفى السعيد حين جاء إلى القاهرة ، رآها من خلال عيون رجل انجليزى وزوجته اسمه مستر روبرتسون . رآها خلال عيون أوروبية .

قلت للطيب صالح : الشاب فى السادسة عشرة يتحرك باتجاه رائحة الأنوثة نحو المرأة. وفى الخامسة والعشرين يرصد زينتها وأناقتها.. وفى الأربعين ؟

جاءت كلماته وسط ضحكاته :

ـ أظن أن الرجل فى محطة الأربعين وما بعدها يتوقف عن الاهتمام بتكوين المرأة الجسدى ليهتم بتكوينها العقلى .

قلت : هل تعبر عن نفسك ؟

قال : حديث الرجل هو الرجل نفسه . هو مرآة النفس والسلوك هو باختصار شاشة الروح !

إضاءة

ولد الطيب صالح فى شمال السودان وعاش طفولته وفتوته فيه ثم انتقل إلى الخرطوم وأكمل دراسته الجامعية فيها وحصل على بكالوريوس فى العلوم ثم انتقل إلى لندن وأكمل تحصيله العالى فى الشئون الدولية ثم عمل فى الاذاعة البريطانية ورأس قسم الدراما فيها .وعاد إلى السودان وعمل مديرا للاذاعة ثم طلب إليه أن يكون مديراللاعلام أو وكيلا للوزارة فاعتذر وعاد إلى لندن . تزوج من انجليزية شديدة الحساسية والذكاء . انتقل إلى قطر وعمل فيها مدة وجيزة ثم استقر فيها ممثلا لليونسكو.

« عبقرى الرواية العربية .. دار العودة »

قلت : أنا أرى الحب صمتا محموما !

رد الطيب صالح : المهم أن تجسده الأيام فى سلوك بناء .. قد يصير بيتا أو صداقة !

سألته : لماذا تحب الجلوس مع ناس السودان على الأرض تتسامرون فى الليالى القمرية ؟..

قال بسرعة : كواحد منهم . تسقط هنا الأقنعة ويأخذ الحب مساحته . إنهم ناسى وخلانى كما تقولون فى مصر . وكلهم أبطال رواياتى .

قلت للطيب صالح : أعرف انك لا تحب « الثرثرة » عن الآخرين.
وأعلم أنك ترى أن كل أديب أو كاتب هو نسيج خاص جداً ولا تحب التنظير فيه أو فى أعماله. وأعلم أنك تهرب من الحديث عن رفاق القلم. لكنى أدعوك للحديث عن نجيب محفوظ. وعن يوسف إدريس وعن حنا مينا وعن يحيى حقى وعن محمد مزالى المفكر التونسى. مثلما سمعتك تتحدث عن غادة السمان بحرية وتبثها مشاعرك ، أريد أن تحدثنى عن هؤلاء.

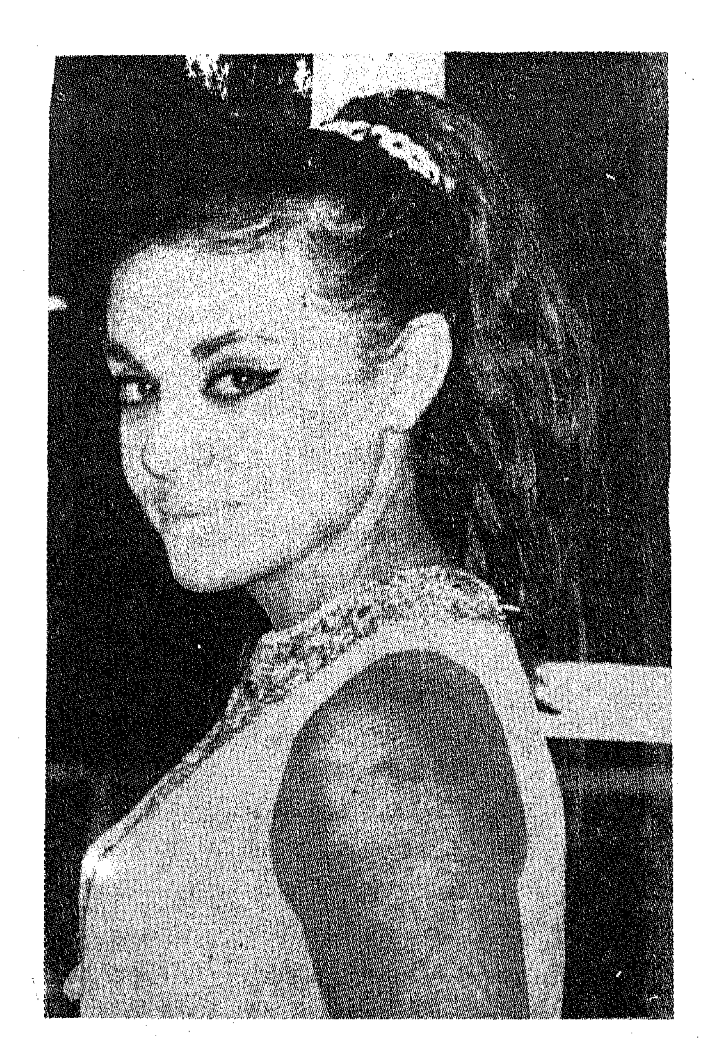
ويبدو أن الطيب صالح استفزته عبارة (مثلما تكلمت عن غادة السمان)
فقال لى : لست مغرما بفرقعة الآراء ..



ملاحظة

إن أدب الطيب أنشودة حب يرتفع بها صوت فنان كبير القلب بقدر ما هو كبير المعرفة .

« د. على الراعى »



غــــادة الســـمان

« حيــاتى كلهــا كانـــت حربـــا ، بشـــكل ما ! »

غادة السمان ، ما دخلت ذاكرة ، إلا وتغلغلت في أعماقها ، ما دخلت قلبا ، إلا ولامسته بأهدابها وهمساتها الدافئة ، فهي للحظة تقطف الأشياء الجميلة وتغزو سماء المستحيل !

وغادة تحترف « الحياة » أكثر مما تحترف « الكتابة »، ومنذ فجر مشوارها ، وهي تعانق الضباب وتتنشق عطر الأشياء وتقف وقفة رومانسية أمام عالم ينكسر ويسقط !

لقد كان الشعر « جسر » غادة إلى النثر ، فالكتابة عندها خلق مستمر ، كما القصيدة تماما . لقد سكنت غادة طموحاتنا وتمددت عبر أحلامنا ، فالمشردون يجدون عندها دفء الأرصفة ، والمسافرون يسمعون صهيل المرافىء !

غادة السمان كما تصفها أديبة عربية ، رفضت ذكر اسمها ، هي « الوقاحة » ان أرادت ، والشراسة ان انفجرت ، والحرية أن حلمت !

● هل أنت كذلك ياغادة ؟ سؤال ألقيته ؟

قالت : نعم ، ربما لخصت عالمى فى تسع كلمات ، الجميع يتوقف عند الهوس المجنون بالسفر ، فأنا لا أعيش إلا بين طائرة وأخرى وبين حقيبة سفر ووسادة فندق ، والسفر يعلم الوقاحة ان أردت ، والشراسة أن انفجرت !

بيد ان للسفر وجها غير قبيح ، فالرحيل دائما يعطينى مزيدا من الاقتراب من العناصر الأساسية فى النفس الانسانية . الرحيل « يعرينى » من مخدرات الحياة اليومية المستقرة الآمنة ، الرحيل « يفقأ » بالونات الوهم فى الرأس ويستعيد الانسان حجمه الحقيقى فى مواجهة الوجود .

□ أنا أصادق الرجال لانهم اكثر خبرة بالحياة

□ الرجل فى حياتى لم أطالبه بأن يكون قديسا !

● قلت لغادة : لأن كتاباتك نموذج لأدب البوح العاطفى دون أن تسقطى فى السوقية أو المثالية ، أسمح لنفسى أن أوجه لك أسئلة قد تضطرم النار فى حروفها . وأذكر اننا توقفنا عند سؤال : إذا كان لكل امرأة تاريخ فهل من الأمانة أن تبوح به لرجل ما تحبه فتتحرر من عبء ثقيل فوق أكتافها أو تمضى مع تاريخها إلى القبر ، لأن الرجل الشرقى . مهما تحضر . لا يحتمل هذا البوح ؟!

قالت غادة : الماضى المندثر يستطيع أن يرقد فى أكفان النسيان . الفعل الماضى (الناقص) يمكن القفز عنه ، أما الفعل (الماضى الحاضر) فقد يتحول إلى (فعل مستقبل) مأساوى ، ليس المهم مصارحة الطرف الآخر بل الأهم مصارحة الذات واتخاذ موقف صارم سلبا أو ايجابا ، إن أمكن !

● قلت : هل تفضلين الرجل الانسان على المرأة . أغامر بالسؤال وأنا أعرف رأيك فى الرجل « انه درب متسع وشاق » .

أجابت غادة : من حيث المبدأ ـ يا صديقى ـ لا يمكن أن أفضل انسانا على آخر انطلاقا من المواصفات الجسدية بما فيها « الذكورة » و« الأنوثة » . من حيث التجربة لا أستطيع الانكار بأنى صرت أميل إلى مصادقة الرجال أكثر من النساء .

ولا أظن ان ذلك مرده إلى صفات فطرية فى الرجل تجعله أكثر انسانية وعمقا وانما إلى صفات مكتسبة . فالرجل بحكم كونه جزءا من الحياة العملية وبحكم اهتماماته السياسية والفكرية هو أكثر خبرة بالحياة من المرأة التى عالمها المطبخ وغرفة النوم فقط !

وأنا كامرأة عاملة أشعر بعجز عن التفاهم مع النساء اللواتى لم يطلعن على درب الزجاج المكسر والدمع والدم المفروش على أرصفة العالم الخارجى !

● قاطعتها : « أحزانك الخاصة تبدو نائية عن تصوراتهن » !

قالت : أكدت المعنى الذى يجول برأسى تماما . وربما لذلك ليست لدى أى صديقة أنثى غير عاملة ولا صلة لى بمجتمع « النسوان » ، فاعتراضى ليس على المرأة بل على ذلك النموذج المسترخى الراضى المستسلم الذى تشكل نساء بلادى نسبة كبيرة من قطيعه ، ويشكل الرجال بقيته !

● قلت لغادة : من أى النوافذ تطلين على الرجل ؟

قالت : الرجل فى حياتى لم يكن قط مشهدا أطل عليه من النافذة ، أخشاه أو أعبده ، ولم أر الرجل قط فى صورة الرجل .. الوثن أو الرجل .. الاسطورة . منذ طفولتى سمحت للرجل بألا يكون قديسا ولم أثقل عليه بمطلب الكمال . جميع

الرجال الذين عرفتهم ، أبى وأخى وأصدقائى وأحبائى تقبلت نقاط ضعفهم بالحنان نفسه الذى قطفت به ثمار عطائهم ، علاقتى بالرجل كانت دوما وعلى كل صعيد علاقة رفيقين فى عالم قاس وليست علاقة التعبد له أو الرغبة فى استعباده !

● سألت غادة : من هو الرجل الذى يتسلل إلى مسامك ؟ هل هو صاحب الكلمات التى تخترقك كصاعقة وتبقى فى نفسك كوشم من جمر ؟

□ أزمة غادة المرأة هى سيطرة غادة الفنانة

قالت وهى تضحك : أطرب للرجل الذى لا يتعمد اطرابى ولا يقدم لكل امرأة يلقاها استعراضا لعضلاته الفكرية ، الذى يتسلل إلى مسامى هو الرجل العفوى ، الأصيل ، الذى لا يبتذل نفسه لتسول رضا المتفرجين ، كل تخطيط مدروس فى العلاقات الانسانية ينفرنى سواء كان الاسلوب مفاجأتى بالعدوانية أو اسلوب الادهاش أو المبالغة فى المديح .

● قلت لغادة : ما الفرق ـ عندك ـ بين الفيلسوف برتراند راسل و «آلان ديلون» ؟

قالت بسرعة : مهرج حى خير من « فيلسوف » ميت !

● قلت لغادة وهى تضع أمامى فنجان قهوة : حين كنا صغارا كنا نسمع الكبار يؤكدون باستمرار ان الماء كان أكثر عذوبة فى زمنهم ، والحب والقطن أكثر بياضا والسماء أكثر زرقة ، والقمح أطيب مذاقا ..

قاطعتنى وقالت : كنا نضحك منهم فى سرنا ، سعداء بقمحنا وسمائنا وحبنا وبرك وحلتنا الخاصة ، فهل على كل جيل أن يكرر باستمرار أخطاء الجيل الذى سبقه . ان الحب ـ مثلا ـ يتغير مع ايقاع العالم المذهل وليس بالضرورة نحو الأسوأ كما يحلو للبعض التوهم ، وأنا منهم أحيانا ، لكنه سيتغير ومعه الانسان ولكنه سيستمر .

● قلت لغادة فجأة : ما أزمة غادة الفنانة ؟

قالت بارتباك : أزمة غادة الفنانة هى ضعف غادة المرأة !

● قلت بالحاح : وما أزمة غادة المرأة ؟

قالت بهدوء : أزمة غادة المرأة هى سيطرة غادة الفنانة !

●قلت : الابداع عند غادة الفنانة ، هل له « ناموس » خاص ؟

قالت بحماس غريب : لقد وجدت القواعد الأدبية حتى نقدر على تجاوزها والمألوف ليس بالضرورة الافضل ، الابداع هو أن نتعلم كل شىء سبق .. لا ليستعبدنا ، وانما لنتجاوزه !

● سألت غادة : هل زماننا بحاجة الى الابداع أم لشىء آخر ؟

قالت : زماننا بحاجة الى زمان آخر . زماننا بحاجة الى النسيان ، زماننا بحاجة الى الانسان ، ان حضارة هذا الزمن تتجه بقارب الانسانية نحو دوامة الدمار . زماننا بحاجة الى زمن العذوبة المنسية ، ان كل « ديك » فى بلادى يتوهم ان الشمس أشرقت لمجرد انه يصيح كل صباح !

● قلت لغادة : هل فى عالمنا من « تقتله » الكلمات كمأساة الحلاج ؟

ابتسمت وقالت : بالتأكيد ، ولكن نادرا ـ يا عزيزى مفيد ـ كالدر النادر فى الصدف !

□ **أكره تحويل الحب الى فواتير ومؤسسة استثمار**

● **سألت غادة : مرفؤك الحقيقى يحيرنى ! مرفؤك الحقيقى ليس رجلا ، ولا معطفا من الفرو ، ولا شاليها فى سويسرا ، ولا جناحا فى طائرة ، ماذا يكون ؟**

قالت : مرفأى هو اليقين ، أنا امرأة مزروعة بالشكوك أبحث عن يقين نهائى ، عن معرفة تبزغ فى عمرى كالرؤيا تخرج من ضبابات أحزانى كما قمم الجبال ، انتظر ارضا جديدة تتشكل فى زلزال حيرتى وبركان ضياعى ، كما القارات تخرج من قاع بحار الصمت !

● **قلت لغادة : للصمت عندك حكاية ، الكلمة تتكرر كثيرا فى أنهار سطورك ، كيف تمثلين أدب البوح العاطفى ، وتحبين الصمت ؟**

اجابت : تناقض ؟ أليس كذلك ؟ اننى انتظر لحظة أختنق فيها بدمع الفرح وأشهد ثورة عمرى وقلقى وألغاز أيامى تهدأ وتفسر ! أما الحب فهو عندى عالم خاص . انه سقوط بطىء فى هوة الصمت ، وكلما أحببت بعنف افترسنى الصمت ، يقال : أعمق البحار أقلها ضجيجا . وأضيف أنا : أعمق البحار وأعمق قصص الحب أقلها ضجيجا ، أكره تحويل الحب الى فواتير ، الى لافتات اعلان ، الى مؤسسة استثمار ، فليظل الحب فى قممه الضبابية لا يعرف سره إلا الليل .. والريح !

● **قلت لغادة : لماذا « الأدب العربى » لا يخترق المجال العالمى بقذيفة أدبية وفكرية ؟**

قالت : كيف يخترق المجال العالمى وهو ليس حرا فى اختراق معظم بيوت الجيران العرب ؟ كيف نتحرك بأغلالنا المرئية واللامرئية لنخترق جدار الصوت .. وجدار الصمت يسورنا ؟ كيف نخترق « الستار الحريرى » الذى تشرنقنا به المتوارثات والستار الحديدى الذى يبنيه كل منا بنشاط حول ذاته خوفا من عالم عدوانى مزروع بكل ما يعزز سلب حرياتنا ؟

● **قلت لغادة : أعرف ان الحروف تطيعك ، والكلمات تأتمر بأمرك .. فى لغة خاصة ، هى لغة غادة السمان .**

ما تعريفك الخاص للغرور ؟

قالت : لحظة انعدام الوزن !

● **قلت : والجنس ؟**

قالت : اصابة بالسكتة اللغوية وخطوة فى درب النسيان أو الادمان !

● **قلت : والفراق ؟**

قالت : موت جانبى !

● **قلت : والتكنولوجيا ؟**

قالت : تصل الى أمريكا بساعة وتقضى سبع ساعات فى الطريق بين المطار والفندق !

● **قلت : والمرض ؟**

قالت : برقية انذار بالصرف من وعائنا الجسدى .

● **قلت : والعبودية ؟**

قالت : نوع تختاره وتلقبه بالحرية ونوع يفرض علينا ويلقبونه بالحرية أيضا .

● **قلت : والمال ؟**

قالت : عبد مدهش وسيد رهيب .

● **قلت : والرحيل ؟**

قالت : تشرد فى .. الذات !

سألت غادة عن « المدن » . قلت لها : مدينة لها سحر عندك ؟

قالت ميونيخ ، حلم معتق ! سألتها عن مدينة لامبالية . قالت زيوريخ .. ثلج يغادرك ولا يغلق الباب خلفه .

سألتها عن مدينة تبدو خائفة . قالت : البندقية ، لأنها تخشى الغرق ! سألتها عن مدينة أنيقة . قالت : بون .. غندورة مثل كلب تجره حسناء مطهمة ! سألتها عن مدينة مخيفة . قالت : لندن ، لأنى أعرفها جيدا ! سألتها عن مدينة تظهر عكس ما تبطن . قالت : القاهرة ، لأنها كالنيل ، هادئة السطح وشاسعة وتبطن الطوفان . سألتها عن مدينة لا تبوح بأسرارها . قالت بغداد . أكرر تحتاج الى عمر كى تعرفها .. والى عمر كى تفهمها .. والى عمر كى تنساها ! سألتها عن مدينة لها مستقبل . قالت : بيروت ، لأنها احترقت وصار بناؤها من جديد ممكنا . الحريق يطهر والقيامة من الرماد بعث لفينيق الأسطورة .

● **قلت لغادة : الدول عندك .. كالبشر . أهو عالم جنس أم مثاليات أم ماديات ؟**

قالت : أى افراط فى الاهتمام بناحية من نواحى الفعالية الانسانية الطبيعية دون الأخرى يؤدى الى الدمار . وعالمنا اليوم ليس عالما واحدا . انه عالم الغرب عالم الدول المرفهة ماديا الساقطة فى فخ الخواء الروحى ، وعالم الشرق والشعوب المكافحة والنامية أينما وجدت . انه عالم الروحانيات المتخلف علميا الثرى انسانيا . المهم هو حفظ التوازن قبل أن ينفجر رأس الكرة الأرضية !

● **قلت لغادة : كيف تحتفظين بتوازنك فى لحظة الحب ؟**

قالت : لحظة الحب الأولى متعة . ثم ينمو الحب ليصير وجودا ، وغالبا ما ينتهى الى ضياع ! لكنى اتساءل معك ، هل تراه يذهب الى ضياع ؟ هل تضيع السحب بعد أن تمطر ويكف المطر عن الهطول ؟ أم تختزنها الأرض فى جوفها لمواسم القحط ؟ هل تضيع أشعة الشمس اليومية فى لحظة الغروب ؟ أم تختزنها عروق الصخور والغابات والرمال ومسامات كائنات الطبيعة ؟ لا تنس انى اعرابية عمرى ٢٠٠٠ سنة حاولوا وأدى فى الصحراء وفشلوا . قتلونى عدة مرات . وكنت دوما أنهض من رقادى لأطير .. وأكتب .. وأحب !

● **سألت غادة : المرأة والذهب ومباهج الحياة ، ماذا يفوق عندها كل هذا ؟**

قالت بعد تفكير : لا شىء أحيانا ، وتلك هى فجيعة بعض الرجال العظام بالمرأة . نادرات هن اللواتى تعنى لهن القيم الروحية والانسانية الشىء الكثير . ثم ان زماننا يجعل حمى عشق الماديات كالمرض السارى المتأزم . ثمة سباق نحو الانتحار بتفاهات الحياة البراقة . وثمة رجال يذكون نار تلك الحمى ويشاركون فيها . المجلات النسائية بوجه عام تحمل بعضا من المسئولية . انها فى بعض صفحاتها تحاضر عن العقل والفكر . وصفحاتها الباقية تحتلها مواد تذكى فى النفوس الضعيفة شهية الامتلاك وحمى الانفاق . الرجل يقاسى من

خدمته لماكينة جهنمية تساهم فى افساد امرأته !

● **قلت لغادة: ذكاء المرأة، متى يصبح «نعمة»، ومتى يتحول الى «نقمة»؟**

قالت: ذكاء المرأة لا يمكن أن يتحول إلى «نقمة» شرط ألا تخبو نيرانه تحت رماد الغرور الانثوى الفج !

● **قلت لغادة: كيف انعكست الحرب فى نفسك؟**

قالت وآهة حارة تسبق كلامها: مفيد .. حياتى كلها كانت حربا بطريقة ما. انها الحرب الأولى التى اختلفت فيها الأداة. دائما تعرضت لقصف اجتماعى. تجربة الحرب ليست أقسى تجربة خضتها فى حياتى. فى حروبى السابقة كنت أموت وحدى وأنزف وحدى. فى الحرب كنت أموت مع الجماعة. هذه الحرب أدت الى انفتاح جماعى. على آلام الآخرين، فى حين كنت كالصدفة منغلقة على آلامى !

قاطعتها: فى حرب لبنان - يا غادة - تشعرين أن آلامك ليست فردية. هناك قافلة من البشر تشاركك العذاب ومذاق الرصاص.

عادت تقول: نعم، هذا حقيقى، شعرت ان طريق الخلاص يمر عبر الآخرين. لا يبقى بحثا فرديا بل يصبح جماعيا !

دق جرس التليفون، وكان المتحدث هو د. غالى شكرى وقالت غادة .. «أنا فى مصيدة مفيد فوزى الناعمة. انه يسألنى كيف انعكست الحرب فى نفسى. هل تود أن تقول له شيئا؟..»

وقال لى غالى شكرى - عبر التليفون - «غادة كتبت فى الحرب وللحرب. كانت تنشر فصولها بجرأة المقاتلين. ولم تكن الكلمة أبدا أصغر من الرصاصة. كانت - وقد عشتها بنفسى - رصاصة. كلمات غادة السمان - صديقتنا المشتركة - فى روايتها «كوابيس» أصابت فى الحرب، وتظل الكاتبة - صدقنى - فى حالة اطلاق مستمر برواياتها، بعد الحرب. تستطيع أن تقول ان غادة قاتلت. وبقيت لتواصل التحليق المعذب بأجنحة جديدة فى مجاهل عالمنا التعس. تبقى وبين يديها قنديل لم ينضب زيته باستشهاد غسان كنفانى أو انتحار تيسير سبول أو مصرع ابراهيم مرزوق».

● **قلت لغادة: لماذا أعمالك الروائية بعيدة عن السينما؟**

قالت وهى تعبث بشعرها: لا أدرى. لا أنفى تقصيرى الكبير فى هذا المجال، فأنا لم أقم يوما باهداء أعمالى القصصية لمخرجين أقدرهم ولفنانات أحبهن وبعضهن صديقاتى. ثم انه لم يفت الأوان !

● **قلت: نقاد هذا الجيل، هل هم باعثو نهضة أدبية حقا؟**

قالت غادة: نقاد هذا الجيل ! عبارة ظالمة. بينهم المثقف المبدع الذى تحرض كتاباته موجات ابداعية وبينهم المزور كحروفه.

● **قلت لغادة: لماذا لم تسكنك السياسة كما الرواية والتشرد والرحيل؟**

قالت: السياسة سكنت أدبى بالمعنى الجوهرى للكلمة فالانسان العربى المعاصر هو المحور الأساسى الذى تنطلق منه بروقى ورعودى نعم. من همه، من جروحه. من واقعه، من تطلعاته، أكتب وأنزف دون أن ألغى تاء

□ السياسة سكنت أدبى بالمعنى الجوهرى للكلمة

التأنيث . السياسة تسكنني كأي فنان غير ملتزم حزبيا . انى ملتزمة بغضبي أمام واقع عربي بحاجة الى تبديل .

صمتت غادة السمان ، فشعرت أنها أغلقت على نفسها صدفتها .. وكأنها تلفحت بها!

وقرأت في عينيها الدهشة وأنا ألم أوراقي ومسجلي الصغير .. وأستعد للرحيل !

□ أنا امرأة جديدة بعد كل جرح .. فراق .. طعنة !

● **قلت لها: يبدو انه لا مزاج لك!**

قالت : حتى أنت وقعت في هذه الحفرة من الفهم الخطأ لست رهينة مزاجي .. كما يبدو من الخارج . أنا رهينة حقيقتي . من الخارج ، أبدو مجرد مزاجية . ومن الداخل يخضع الأمر لضوابط نفسية وروحية مفرطة الصرامة والدقة . تمر بي فترات أعي خلالها أن الصمت أكبر من اللغة والحقيقة أكبر من اللغة ، وحتى الجسد أكبر من اللغة . في مثل هذه اللحظات أصير عاجزة عن التواصل مع الآخرين . أصير برية . شرسة . أهرب بالشرود ، لا أفسر ولا أعترف وأبدو من الخارج ـ كما لاحظت ـ مجرد مزاجية ، وأحيانا أخسر المزيد من أصدقائي . أنا ـ دوما ـ امرأة جديدة . بعد كل جرح . بعد كل فراق . بعد كل لقاء . بعد كل طعنة . وبعد ، ماذا تود أن تسمع من الموسيقى أو الغناء ؟

تمتمت بصوت مسموع: فيروز!

قامت غادة السمان تبحث عن شريط لفيروز وسمعتها تقول من غرفة مجاورة على الصعيد الابداعي ، لماذا يترافق الزواج العاطفي والفني في بلادنا ، ولماذا ينسحب ذلك على الطلاق ؟ المخرج الكبير برجمان طلق زوجته الممثلة الرائعة ليف أولمان واستمرا في العمل معا وأبدعا أفلاما بعد الطلاق . فلماذا يتوج الطلاق العاطفي عندنا بطلاق فني ؟ لولا هذه الظاهرة ، لما حرمنا من التوهج الابداعي لزواج صوت فيروز وألحان الرحبانية .. ذلك الزواج الخالد !

● **وشعرت اني ضيف في «واحة» فيروز، وزائر لصدفة غادة السمان. كلاهما يتعامل مع «الكلمة».**

عبقرية فيروز في صوتها. وعبقرية غادة في قلمها. الكلمة تخرج من فم فيروز أو تولد في فكر غادة، ملكة متوجة. حاكمة. لها رعية.

ويختلط في رأسي صوت فيروز «تكتب» على الهواء أجمل الحكايا. وصوت غادة «تنشد» الصدق. فيروز رحيل في المكان والزمان الواحد. وغادة تسكن فوق جناح طائرة!

فيروز الكلمة «العطر» تنفذ الى القلوب والعقول.. وغادة، الكلمة «الضوء» تضيء في ظلمة الليل.. ليل المتعبين الباحثين عن مرفأ.

وتظل الرواية عند غادة، مدينة مفتوحة.
والمدينة عند فيروز، رواية مفتوحة.

شدو فيروز وكتابات غادة، لعلهما التهما مساحة «القبح» من العالم.. لوقت ما!



د. سعيد عبده

« الكرباج الذى كان ! »

فى يوم من الأيام ، دخل الدكتور طه حسين مكتب الدكتور محمد حسين هيكل باشا رئيس تحرير جريدة السياسة وقتئذ وقال له بغضب :

« اسمع يا هيكل . أنا لا أصادر الرأى الذى يختلف معى . ولكن اعتبرنى مستقيلا منذ اللحظة إذا نشرت شيئا ضدى لسعيد أفندى عبده » !

سعيد أفندى عبده !

سئل عنه التابعى . فقال : ان لسان الأديب عبده أفندى مصنوع من نفس المادة ألتى تصنع منها الكرابيج السودانى ذائعة الصيت !

سعيد أفندى عبده .

كان كامل الشناوى يتغنى بمواويله كل ليلة فى مجالسه الخاصة . وكان له رأى فيها ، « ان لمواويل سعيد عبده خاصية غريبة . انها تخرج من ورق الصحف وتتحول إلى كف عريضة وتضرب المقصود بالموال .. على قفاه » !

سعيد عبده . أين هو الآن ؟!

المعادى . ساعة عصارى !

وأنا أبحث عن بيت الدكتور سعيد عبده بصعوبة مستعينا بعنوانه فى قصاصة ورق كتبها لى صديقه الصدوق « مصطفى أمين » . وشوارع المعادى كبيت جحا . هناك « كلمة سر » لتعرف دهاليزها ! وأنا لا أعرف كلمة السر ! الشوارع مرقمة ، كأنها لا تريد أن تبوح بأسماء سكانها ! صمت . وهدوء . وحفيف أوراق شجر . وسيارة متوارية عن العيون . وعاشقان . وعناق يلغى الزمان والمكان . وعجوز يدخن فى مشتل . وبنات صبايا فوق البسكليت . ولغات أجنبية . وأسأل ولا أحد يعرفه ! ذلك الذى كان باعة الصحف ينادون يوما « موال سعيد عبده النهاردة . موال سعيد عبده » ! ذلك الذى كان له محطة اتوبيس باسمه . « محطة سعيد عبده » . انزوى الرجل الآن ودلف الى منطقة الظل . وصار ذكرى وان دخل ملف الكلمة من أوسع أبوابها وأشرفها . وأى باحث مدقق فى تاريخ الصحافة لن يعبر اسم د. سعيد عبده .

تعبت من البحث ، حتى كدت أيأس ، ولكن صيدليا قريبا من بيته .. أرشدنى .

منذ عشرين عاما أو تزيد ، اعتزلت الحياة العامة ـ يا أستاذ مفيد ـ واكتفيت بمقعد بعيد من مقاعد المتفرجين لم أعد أتابع شيئا . أعيش على اجترار أيامى . لا تسلنى عن أحد . فلن أفيدك بشىء وسيأتى حديثك معى فاترا . ولا أدرى سبب زيارتك ولماذا تذكرتنى . فإذا كانت الزيارة للسؤال فألف شكر . وإذا كانت للدردشة الخاصة ، فأهلا بعابر سبيل جاء يقطع وحدة شيخ عجوز !

قلت للدكتور سعيد عبده، كنت أقرأ «قصاقيص ورق» لشاعر العامية صلاح جاهين . وتوقفت عند قصيدة «مدد ..»

ضحك سعيد عبده وقال : ماذا يقول إبننا جاهين ؟

قلت وأنا أستفز ذاكرتي . قال جاهين :

.. بيرم يا تونسى ، بديع أيا خيرى

.. مدد مدد . يا شيوخنا يا أقطاب

.. أحضرنا يا حسين ياشفيق مصرى

.. والنجدة يا عبد السلام يا شهاب ..

.. والنجدة يا بن الليل وأبو بثينة

.. يا سعيد يا عبده . يا مصطفى يا حمام

.. محمود يا رمزى نظم . تعال الينا

.. ومدد يا عبد الله النديم يا امام

.. مدد يا عزت صقر ، يا خليل نظير

.. مدد يا شيخ يونس ياقاضى مدد ..

.. هاتوا الزجل شماريخ وصواريخ تطير

.. لسه الحاجات اياها .. ماليه البلد !!

وقهقه الدكتور سعيد عبده وأخذ يردد «لسه الحاجات اياها .. ماليه البلد» !!

وتسللت بسؤال .. جاهين يعتقد ان الزجل والموال دورهما لم ينته بعد . فماذا تعتقد أنت ؟

قال د. سعيد عبده «لست قادرا على صياغة الموال الآن . لم يبق منى سوى غدوة وعشوة لديد ان القبر» !

صدمتنى الاجابة ، وارتبكت ، ولم أعرف ماذا أقول . فقلت العبارة التقليدية «يعطيك طول العمر يا د. سعيد» .

فضحك وقال .. أنا من مواليد عام ١٩٠٠ ولا أظن أن الحياة تتسامح معى أكثر من ذلك . ضرب لى الموت موعدا لكنه لم يحدد اليوم والساعة !

شعرت بضيق ، بينما كان يضحك من قلبه . ضحكة انسان تصالح مع نفسه . ويستقبل الموت .. بالأحضان !

قررت أن أسيطر على نفسى بعد أن فشلت فى المدخل للحديث . وقلت لنفسى ، فليكن مدخلى هذه المرة .. الطب !

قلت للدكتور سعيد : عندى احساس ان الطب أصيل فى حياتك بدليل انك لم تهجره من أجل الأدب !

قال : عشت مخلصا للطب حتى خرجت على المعاش وسافرت العراق محاضرا . وكانت رسالتى هى الطب الوقائى . فأنا مع الدكتور محمود فوزى السياسى المصرى القديم ـ أعطاه الله الصحة ـ فى قوله يوما ما لمحمد حسنين هيكل «لا يستطيع أن يستوعب العلم من لا يملك الصحة» .

قلت للدكتور سعيد عبده مستفيدا بحماسه للموضوع : ماذا قصد الدكتور فوزى من عبارته ؟

قال ، لعله قصد الصحة بمعناها الأشمل لا بالمفهوم السلبى الشائع أى الخلو من الأمراض ولكنها الصحة بمدلولها الايجابى . تمام الكفاية البدنية والعقلية والاجتماعية التى هى الترجمة الأصيلة للعافية والقوة والطاقة والحيوية والاتزان العاطفى المكتمل والقدرة على حب الناس وعلى التعامل معهم وعلى المتعة المعقولة بالحياة . ان هذا النوع من الصحة هو الذى يجعل قدرة المتعلم على التعليم أكبر ويجعل قدرة العامل على الانتاج أكفأ ويجعل خسائرنا القومية الباهظة أقل !

قلت للدكتور سعيد عبده : حماسك للطب الوقائى . لا حدود له !

قال ضاحكا : ياسيدى ان الأمراض لا تهبط علينا من السماء ولكن كلا منها حصيلة تفاعلات متعددة وطويلة المدى بين البيئة والانسان . ان الناس تتصور الطب مجرد سماعة وطبيب وقارورة دواء . والطبيب الذى ينشأ على هذه الفلسفة معذور اذا هو لم يعرف كيف يسهم فى الصحة للانتاج . لقد كان للطب الوقائى ركن متواضع فى مناهج التعليم الطبى ولكنه كان على الدوام . كدرهم من الوقاية ، تساله فى قنطار من العلاج !

قلت ضاحكا للدكتور سعيد عبده .. خدعوك فقالوا ان الصحة مجرد خدمات !

قال بجدية شديدة .. لقد توارثنا هذا النوع من طب الخدمات والاستهلاك جيلا بعد جيل . كل جيل يسلم الراية السوداء الى الجيل الذى يليه وكل لائحة من لوائح كليات الطب تسلم بذورها التعسة الى اللائحة التى تخلفها . مع تمنياتها الطيبة بكل ما تملك من راحة البال وهدوء الضمير !

قررت أن أتوقف عن الاسترسال فى الحديث عن الطب مع تسليمى التام بأهمية الموضوع الذى طرحه د. سعيد عبده. ولكنى جئت لسعيد عبده الأديب والفنان وصاحب الموال، فكيف أنفذ اليه وأحتفظ بحماسه ! اعتبرت نفسى فاشلا فى المداخل للحوار. ولكنى بررت هذا بموقف د. سعيد عبده من الحياة. انه لا يشكو من شىء. ولايريد شيئا. ولايسعى لشىء. هذه القوة تجعله يختار ما يشاء ويتكلم فيه ! ولقد اعتبرنى منذ البداية. عابر سبيل جاء يقطع وحدة شيخ عجوز!

عدت أقول للدكتور سعيد : هل اكملت رسالتك فى الحياة ؟

قال : أكملتها فى الطب . وأعطيت المكتبة الطبية مجموعة كتب أهمها (الدماغ) وأدليت فى الأدب بدلو متواضع وخضت بحر القصة القصيرة وكتبت المقال السياسى وأخذ الموال من عمرى الكثير . وجئت للحياة بأربعة أولاد وبنت . واحد طيار والثانى طيار والثالث مهندس طيران والرابع يحمل اسمى ويعمل طبيبا . والبنت تزوجت ، وهاأنذا أمامك . وأعتقد ان رسالتى فوق هذه البسيطة . اكتملت ! .

عذبنى الدكتور سعيد عبده . ان اجاباته تسد الطرق أمامى . تقيم حائطا بينى وبينه . والوقت يمضى ، ومتعتى كبيرة لأنى فى ظل رجل ايقاعه يصفع ايقاعى ويلقنه درسا . لكنه كالنهر الكبير قرب المصب ! فجأة لمعت فى ذهنى فكرة . لماذا لا أسأله عن والديه الروحيين : شوقى بك وبيرم التونسى !

فبدأت التساؤل هكذا : د. سعيد عبده هل أخذ بيرم ما يستحقه من الاحتفاء والتكريم ؟

قال وهو يضحك : وماذا يفيد الاحتفاء والتكريم بعد الممات ؟ نحن شغوفون

بتكريم الميت ! على أى حال ، بيرم التونسى رجل فهم الحياة بعمق وكانت بساطته فى التعبير هى معجزته . قل عنه بلا حرج . فيلسوف ! قل عنه بلا حرج مصور بارع . هل قرأت له : السيد ومراته فى باريس . انها لوحة بالالوان والظلال .

ان بيرم التونسى طوع العامية الى درجة ان طه حسين قال يوما لست أخاف على الفصحى الامن عامية بيرم ! اسوق لك مثالا : قال بيرم يوما فى مناسبة زواج الملك فؤاد .

« الوزه من قبل الفرح مدبوحة » .

« والعطفة من قبل الدخول مفتوحة » .

ان بيرم فى هذه القصيدة يعلق على زواج الملك فؤاد . انظر لقسوته . ولكنها قسوة الفنان ! بساطة ولكن قاتلة !

قلت للدكتور سعيد عبده : هل تعتبر نفسك من تلاميذ بيرم ؟

قال بحماس : بكل اعتزاز !

سألته : متى كتبت الموال لأول مرة ؟

قال سعيد عبده : أول موال كتبته عام ١٩٢٨ . أتذكر انه كان عن سليمان فوزى صاحب مجلة الكشكول التى كانت دائمة التهكم على سعد زغلول . قلت فى هذا الموال :

« وحق من خنصرك فى البدلة الافرنجى » .

« وثانيا جعلك فى التلحمة برنجى » .

«وثالثا عينك على الخطمخزنجى » .

« لافتن عليك للنقيب » .

« انك ماتعرفش تتهجى باميه » .

« وبرضه الاسم جرنالجى » !!

قلت للدكتور سعيد : هل تذكر مواويل أخرى ؟

قال : لحسن الحظ ، انا أتمتع بذاكرة رديئة !

قاطعته : تقول لحسن الحظ ؟!

قال وهو يضحك من القلب : السعادة ، ذاكرة رديئة . أنا أنسى دائما . أنسى ما أكتب . وما أقول . وأنسى الاساءة على وجه التحديد ! لو لم يهبنا الله نعمة « النسيان » لمتنا من الكمد ! وأنا مدين للنسيان .. بحياتى حتى هذه الساعة . ان الذى ينسى ، يفتح للبشر صفحة جديدة . والذى يتذكر الاساءة لا يفتح لأحد ثقبا ! ان النسيان يعلم الانسان التسامح . بدون تسامح أنت تخاصم الناس وتنسى انك تخاصم نفسك !

قلت : ولكنك عشت حائرا بين شاطئين ، شاطىء الأدب وشاطىء الطب ؟!

قال : الأدب هو « الحلم » فى حياتى . والطب هو « الفعل » ! وأنا أعتز بانى عشت الفعل والحلم . ولهذا تجدنى حالما يعقل . وعاقلا يحلم !! ويبدو أن أهل الطب نسيونى ، وأهل الأدب نسيونى ولا يتذكرنى الآن سوى الله !

بسرعة شديدة ، قفزت فوق العبارة الأخيرة وقلت للدكتور سعيد عبده : ماذا أعطاك الأدب ؟

□ ويذيع سرا كتمة في صدره : كتبت مسرحيتي مصرع كليوباترة ومجنون ليلى لشوقي بك ولم ينشر اسمي !

قال : أعطاني البسمة . أما الطب فجعلني « أتعمق » في الأدب . لا تنس ان الأديب ، طبيب من نوع خاص . لي قصص قصيرة أفخر بها . أحس انها ذات قيمة . لم يتناولها ناقد واحد . لسبب بسيط جدا هو اني لم أهد كتابا واحدا من كتبي لناقد !

لست مثاليا ، ولم أفقد أنانيتي كفنان ، ولم أفقد أيضا كبريائي . ان الناقد الذي يقرأ كتابا مهدى اليه ، هو ناقد عاجز لم يتعب في البحث عن عطاء كاتب . هذا الاستسهال يجعلني لا أحترم ما يكتب . ياسيدي ، كان محمد مندور يجوب المكتبات يبحث عن أسماء مغمورة لا تكتب في الصحف ولا تهدى كتبها اليه !

قلت للدكتور سعيد عبده : هل احترفت النقد يوما ؟

قال : أنا طبيب وأهوى الأدب طول عمري ، رغم اني اقتربت من عمالقة هذا الجيل ، أمثال شوقي بك .. والعقاد .. وطه حسين .

سألته : اقتربت من أمير الشعراء شوقي ؟!

قال وهو يضحك : كان يحب أن يقال عنه « أمير الشعر » وسألناه مرة . لماذا ياباشا ؟ فقال « وهل هناك شعراء لأكون أميرهم » ؟!

عن « أمير الشعراء » شوقي ، كان الحديث !

عرفته ثماني سنوات . وإذا كان العقاد قد كتب عنه في كتابه « الديوان » بعض أشياء ، رفضها محبو شوقي . ومريدوه من فرط ولعهم به وبفنه الشعري ، فأنا أقول لك ان معظمها صحيح ! وليس هذا تطاولا على شوقي ولكن احقاقا للحق . فأوسكار وايلد لا يخجل من شذوذه . والدنيا تغيرت وأصبح في أوروبا يفخر الفنان بنزواته التي ما عادت نزوات إلا في أذهاننا نحن . بمقاييسنا نحن !

قلت للدكتور سعيد عبده : أنت « افراز » شوقي وبيرم ؟

قال بهدوء : نعم . هذا صحيح ! أقول لك شيئا ربما لا تعرفه أن بيرم – زعيم العامية – قلد كل شعراء القصة . شعراء الفصحى وأتقن التقليد الى حد مثير !

قلت : كيف اقتربت من شوقي بك ؟ متى كانت البداية ؟

قال : ذات مرة كتب شوقي بك قصيدة يمتدح بها أحمد لطفي السيد بعد أن قدم لنا كتابه الشهير « ارسطاطاليس في الأخلاق » فتعرض له الدكتور طه حسين بالنقد وقسا عليها بشدة ودون أن يعلم شوقي قررت الرد على طه حسين . وضعت نفسي في موقع تلميذ صغير أمام أستاذ عملاق . وذهبت لهيكل باشا بمقالي . وقال هيكل باشا « مقالك يا عبده أفندي يؤذي مشاعر طه حسين وأنا أعرفه أكثر منك » ! وبعد يومين قلت لشوقي القصة . فذهب بنفسه الى هيكل باشا وأصر على نشرها . ونشرت بجوار قصيدة جديدة وكانت قصائد شوقي تنشر في الصفحة الأولى بنط ٢٤ !

قلت للدكتور سعيد عبده : مازلت اصغى لك !

قال د. سعيد عبده : بعد نشر مقالي ، غضب طه حسين وهاج وماج ورد بمقال عنيف ملخصه تطاول الشبان الصغار أمثالي على الكبار . ثم ذهب الى هيكل باشا وهدد بالاستقالة اذا نشرت « السياسة » حرفا واحدا ضد طه حسين !

وقلت : وكيف سارت علاقتك بشوقي بك بعد ذلك ؟

قال : كانت على مايرام . واشتدت عمقا . حينما قمت بصياغة مسرحيتين له

صياغة مسرحية !

قلت بدهشة : هل ذكر هذا فى مقدمة المسرحيتين ؟

قال وهو يضحك من سذاجتى : هذا سر كتمته طويلا وأعترف لك به ، وليس فى هذا تطاول على أمير الشعر ، ولكنها حقيقة تستقر فى ملف شاعر عظيم !

قال سعيد عبده : كليوباتره ـ ملكة مظلومة ـ فكونها يونانية أو غير يونانية ، المهم انها أصبحت مصرية ، كما أصبح الملك فاروق مصريا ! وطلب منى شوقى بك ان أمده بكل ما كتب عن كليوباتره ، فأحضرت له كل ما كتب بكل اللغات وخصوصا الفرنسية وفى باريس قرأ كل المادة وعاد .. وعندما التقيت به ، بادرنى بقوله :

« خلاص يا أستاذ عبده أنا عملت لك الرواية .. » .

وكنت فى الحقيقة أقدر شوقى بك ، الذى أعترف أيضا ان نصف ثروتى اللغوية من دواوينه ! وأخرج « الباشا » من حقيبته مظروفا أصفر وقال : الرواية أهه يا عبده أفندى !

امسكت بالمظروف وفتحته . فوجدت به قصائد . من المطولات ولكنها ليست « المسرحية » بحبكتها المسرحية . وعلى مدى عام كامل . أعدت الصياغة والاعداد المسرحى لتظهر فى الصورة النهائية التى تحمل اسم مصرع كليوباتره وكنت بين الحين والحين التقى به وأطلب منه أن يعيد فقرة أو يراجع عبارة أو يكتب جزءا يشبك به جزءا آخر . لقد أعطانى شوقى بك المادة فقط . وجعلت منها الصياغة المسرحية وفى « النظرات التحليلية » . للرواية . كتبتها بنفسى ولم يذكر اسمى ! ومسرحية « مجنون ليلى » استغرقت منى ثلاثة شهور وظهرت للناس فى صورتها التى قرأوها بها . ولم يذكر اسمى !

وآثرت الصمت . بل فرضته على نفسى فرضا !

قلت للدكتور سعيد عبده : من الناحية النقدية . أنا لا أحاسب شوقى بك . أنا أحاسبك أنت على مسرحيتى « مصرع كليوباتره ومجنون ليلى » !

قال بسرعة : هذا صحيح ، رغم ان شوقى بك اسمه منشور فوق المسرحيتين ! تصور عندما مثلت المسرحيتان كنت أقوم بتصحيح الأخطاء للممثلين !

قلت للدكتور سعيد عبده : ألم يكن من اللائق أن يكتب اسم شوقى بك فوق المسرحيتين ، ويقال ، الاعداد المسرحى لفلان ؟!

قال سعيد عبده وهو يضحك ، مع انى تصورت انه سيتكلم بشىء من المرارة ..

عندما كتبت « النظرات التحليلية » كنت أعرف انه بالقطع سيكتب اسمى . ولكنه لم يفعلها وهو العملاق ! ومرة أخرى لذت بالصمت . فبعض الأشياء فى الحياة لا تطلب من الآخرين !

سألت سعيد عبده : ألم يذكر شوقى بك شيئا عنك تقديرا لجهدك الأدبى الذى فرض عليه التعتيم ؟!

قال والضحكات لا تفارقه : قال مرة فى مجلة لبنانية اسمها « المعرض » بعد أن وقع له حادث سقوط بالسيارة من فوق الجبل اننى اكتب عادة أبياتا متفرقة وأسلمها الى تلميذى وصديقى سعيد أفندى عبده ! قالها مرة .. ولم ينطق بها مرة ثانية حتى رحل !

قلت للدكتور سعيد عبده : لماذا لم تتابع جهدا مسرحيا خاصا بك وقد أوتيت الموهبة والاحساس ، لماذا لم تكتب ؟

قال : بدأت أنظم الشعر .. عندما تعرفت على شوقى بك . وكنت أحيانا . اعرض قصائدى عليه . فكان يقول لى : يا عبده أفندى خليك بعيد عن الحكاية دى ، علشان ماتضيعش مستقبلك . وأنا أحصيت لك فى قصيدة من قصائدك ١٣ غلطة مما تؤاخذ عليه فى الشعر . باختصار كسر مقاديفى !وأعترف لك انى انصرفت بعد ذلك إلى الموال ، وهو مجال أخر تماما !

وسكت د. سعيد عبده وكأنه يتذكر شيئا:كنا فى مسرح الأزبكية ، وحدثت مناقشة بين فصلين فى مسرحية ما ، وقلت لشوقى بك أنا شايف ان الاشارة دى ، جاية متقدمة شوية ، ومن الأفضل تأخيرها من الناحية المعمارية للعمل . وفجأة ، تغيرت ملامحه وكان يحضر المناقشة صديقنا عبدالرحمن الجديلى ، فقال : انت يظهر يا عبده أفندى ركبك الغرور . انت لسه قدامك أشواط علشان تبقى حاجة !!

سمعت العبارة ، وأصابنى الذهول . وكادت الدموع تطفر من عينى . وأسدلت الستارة على علاقتنا ! وشعرت أن صدرى قد تحول الى قبر .. واحتوى شوقى .

وعندما مات شوقى بك ، بكيته ، كما بكيت أبى .

صمت . وذكريات . واجترار . وزمن . واعتراف . وسؤال !

قلت للدكتور سعيد عبده : حاولت طول حديثنا أن أتحاشى الكلام عن مرضك العضال الذى عذبك أكثر من خمسين عاما أو تزيد .

فقال وهو يضحك : ياسيدى ، لقد عايشت الألم حتى ألفته . عام ١٩٢٠ كنت أصرخ من الألم . وعام ١٩٢٨ ، كان المرض قد اشتد ولكن الألم كان محتملا . وعام ١٩٥٨ ، كنت ابتسم من الألم . وعام ١٩٦٥ ، كنت قد عرفت الألم معرفة تامة وكنت أحيانا أستأذنه فى الترفق بى ، وكان يوافق !

سألت د. سعيد عبده : بم تنصحنى وأنا رجل فى منتصف عمرى ؟

قل بسرعة : أن تبتعد عن « الكمد » . انه درجة أعلى من الحزن لا تصيب إلا الفنان . وهو انسان حساس ، ينفذ الحزن الى أعصابه ويدخل من مسامه !

سألته : كيف حال قلبك ؟

قال ضاحكا : أمشى أحيانا ، لأطيل عمره متى شاء الله . لكن الوظيفة التى خلق من أجلها قلب الانسان وهى النبض والاحساس ، ما عادت فى هذا العمر ! ان قلبى فى اجازة مفتوحة !

كلمات الفرشاه الأخيرة فى « لوحة » د. سعيد عبده ، هذه كلمات متناثرة .. له . تناثرت طول الحديث !

١ ـ « الحوادث على رأس قائمة أمراض العصر » .
٢ ـ « توفيق الحكيم فى الثلاثينات أكثر عمقا وعطاء » .
٣ ـ « متعة عجوز مثلى هى : السكينة ! » .
٤ ـ « أخذت من الحياة القليل . لكنه كثير » .
٥ ـ « الصدفة صنعت ثلاثة أرباع حياتى » .

٦ ـ « اسكن فى البدروم لأنى قانع بحياة بسيطة .. طويلة أو قصيرة .. لا يهم ! » واضحك . لأهزم الألم !

٧ ـ فلسفتى بسيطة : « الله جاب . الله خد » .

٨ ـ « أسئلتك مثل أسئلة د. على حسن ، أستاذى فى علم الكيمياء الحيوية . مفاجئة وغير متوقعة وتضعنى فى حالة انتباه دائم » !

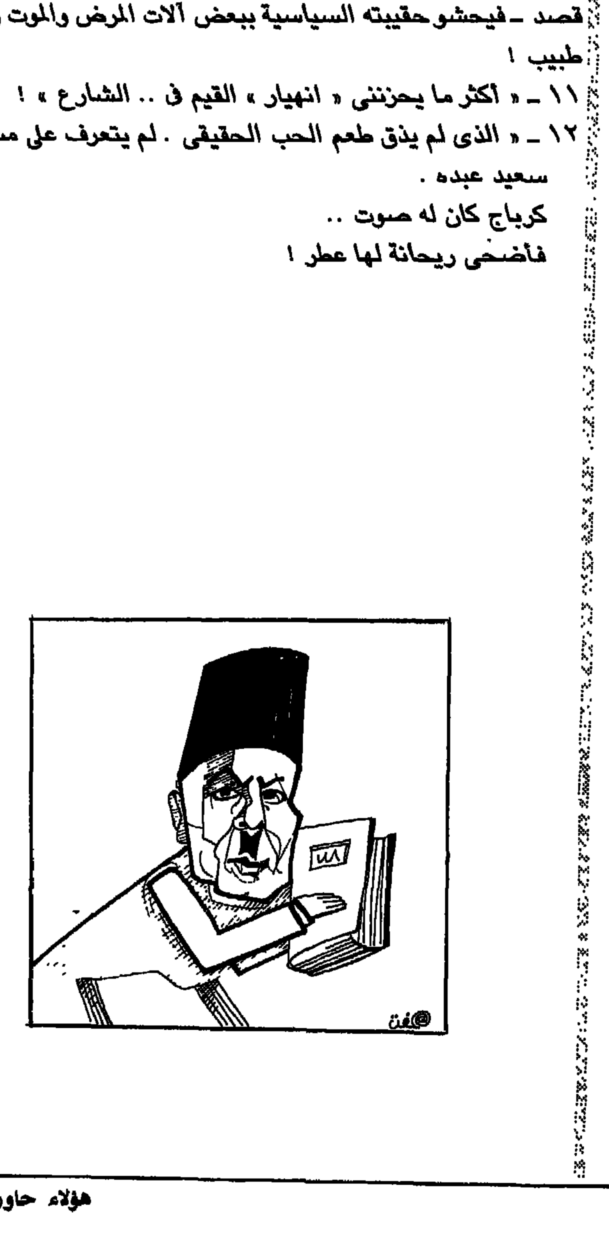
٩ ـ « الحياة الجادة دون شىء من الهزل . حياة مزعجة للغاية » .

١٠ ـ « القبلة قد تكون سفيرا للمحبة ، ولكن هذا السفير كثيرا ما يخطىء ـ دون قصد ـ فيحشو حقيبته السياسية ببعض آلات المرض والموت والدمار !» ملاحظة طبيب !

١١ ـ « أكثر ما يحزننى « انهيار » القيم فى .. الشارع » !

١٢ ـ « الذى لم يذق طعم الحب الحقيقى . لم يتعرف على مسرات الحياة ..» .

سعيد عبده .
كرباج كان له صوت ..
فأضحى ريحانة لها عطر !



حيدر محمود

ألعن ما فى الزواج !

في ركن منزو، بفندق القدس، بالعاصمة الأردنية .. عمان ،جرى هذا الحوار ! أمسكت بالشاعر الأردني حيدر محمود بعد مطاردة دامت ثلاثة أيام ! فهو « لا يهرب » من المقابلة ، لكنه « ينسى » الموعد ! ولما عاتبته على النسيان ، قال إنها من « نعم الله » عليه أنه لا يتذكر كل الأشياء وأنه كشاعر يعيش بفوضى منظمة ، ويترك ذاكرته المكدودة تحدد له مساره ! وقال أنه يحب « المقابلات الصحفية » لأنها إفراج عن « تعتيم » احتوى فترة شعراء الأردن باستثناء عبدالمنعم الرفاعي فهو « شاعر عربي » واسمه أكبر من محليته الأردنية ! وقال حيدر « أود لو نلتقي في المساء ، في ذلك الركن الهادىء ، تحت ضوء الأباجورة الرمادية . هناك سأنتظرك وأحمل معي ديوانا جديداً تحت الطبع ، قد نضطر لاستعارة بعض أبياته ! » وهكذا التقينا . جاء حيدر أنيقاً لامعاً معطراً ! سألته : ما الخبر ؟ قال : لا غرابة في الأمر . وليس كل أناقة مفاجئة معناها موعد مع امرأة . أن موعدي معك يهيؤني للعري النفسي . للتصادم . للاتفاق أو الاختلاف بحرارة !

□ نزار قباني : الأكثر شهرة لأنه الأكثر تمردا على القوالب !

قلت لحيدر محمود : « المرأة ذلك المرفأ الحنون » . هل كان حنونا معك ؟

رد حيدر : نادرا يا سيدى ما أرسو ولا ينبغى لشاعر أن يقبل بالشطآن . صحبتى مع البحر لم تبدأ من حدوده الأولى عند الرمل ولا أظنها تنتهى عند الضفاف الأخرى . أنا أبحرت من الداخل وكان الموج صاخباً ، ولكن لى ذراع سباح ماهر وكانت الريح شديدة لكن سفينتى من شجر البردى والعتمة موحشة غير أن عينى أكثر زرقة من البحر ! ومع هذا كله ، قد رسوت مرتين . واحدة عند مطلع النهار والثانية قبل أن توشك الشمس على المغيب . هل تأخرت فى الثانية . أحسب أن بضع شيبات فى الفودين لا تقلب السفينة . وأترك لقرائك الأذكياء أن يفهموا « الشفرة » ، فلست أخاطب إلا .. الأذكياء !

قلت لحيدر محمود : لكن المرأة ملهمة للشاعر ، ولا أظنك تنكر ، إنك رسوت وأقمت .. ونهلت !

قال ضاحكا : المرأة ملهمة . استغفر الشعر !

ثم استطرد يقول وهو يشعل سيجارة:« سيدى ، المرأة هى القصيدة ذاتها .. التى يقال إنها لم تكتب بعد . هل أروى لك قصة الفلاح الذى أغضبته الأرض ذات يوم فهددها بقطع الماء عنها ، فضحكت . وقالت له : لا يهمنى ! وهددها فى يوم آخر بتركها للأعشاب البرية تفتك بها وتأكل أكجسين التربة ، فضحكت وقالت له : لا يهم ! ثم هددها بالرحيل ، فبكت وقالت له : أخاف عليك أن تموت ! »

سألت الشاعر الأردنى حيدر محمود : هل يعطى الألم للشاعر ارهاصات الشعر أن يحرمه من الابداع . لقد قال عبدالمنعم الرفاعى ان الألم وقود الشاعر وبدون ألم عظيم ، لا يولد فن عظيم . هل كان الرفاعى .. مبالغا ؟

قال حيدر محمود : لم يخطىء عبد المنعم الرفاعى ، بل أنه قرر الحقيقة . لكن الشاعر يحترق كى يتطهر من فساد العمر وعفن الحياة ولا يجوز له أن يحترق لغير هذه الغاية . فإذا كان الألم حقيقيا .. كان الاحتراق كذلك . الاحتراق معناه التجدد . معناه الإبداع النقى . معناه الخروج من الرماد إنسانا آخر يحمل بواحدة من يديه الشعلة ، وبالأخرى « يخربش » على الحيطان .

قلت لحيدر : نثرك جميل ، يكاد ينافس شعرك !

قال بسرعة : جاء نثرى من رحم الشعر ، ولكن نزار قبانى ، يتصارع نثره وشعره . صدقنى !

قلت لحيدر محمود : وسيناريو الحوار يسير بسلاسة : ترى ، ما سر شهرة نزار قبانى ؟ هل لأنه يخاطب المرأة . وهى تتجاوب معه وتمنحه ثقتها .. وأذنيها . أم ماذا ؟!

قال بعد تفكير وقد نفث دخان سيجارته ، وتكونت حلقات من الدخان الملون بفعل ضوء الأباجورة : بالرغم من كل ما يقال عن نزار ، وفيه ، يظل الشاعر الأكثر شهرة وحضورا على الساحة العربية الشعرية ولهذا الحضور أكثر من سبب . لعل أهم واحد من تلك الأسباب أنه الأكثر تمرداً على القوالب شعرية كانت أو اجتماعية . فعلى صعيد الشعر استطاع نزار أن يخترع لغته الخاصة به ولا أحد . لا أحد على الإطلاق يعرف من أى نبع يعزف مفرداته . إنه فى هذه الحالة يشبه

« المليونير » الشديد الغنى الذى لا يحتاج حين يريد أى شىء . شراء أى شىء إلا أن يوقع على ورقة صغيرة . فتوقيع هؤلاء كما تعرف معترف به فى كل أنحاء العالم !!
وعلى صعيد اجتماعى ، يملك نزار من عناصر الاقناع ما يجعل المرأة تغير لون شعرها بمجرد كلمة منه أو إذا أراد يجعلها تغير لون عينيها . وباختصار نزار أصبح واحدا من أشهر النجوم . ولو أنه قرر فجأة أن يمثل فى السينما لكان نجم الشباك الأول بلا منازع !

□ غـــــادة السمان كاتبة وليست شـاعرة!!

قلت لحيدر محمود : الشاعر والمرأة هل هما متلازمان ؟

قال الشاعر الأردنى : المرأة والشاعر : صدر بيت الشعر وعجزه .. أوله وآخره . أيهما يسبق الآخر . لا أدرى . ولكن من دون المرأة . لا شعر . لا قضية . لا توجد صوفية بين الإنسان وبين الكون بكل عناصره وأشيائه والمرأة هنا هى الكون . قد يستطيع الرجل ، وأقول « قد » يستغنى عن المرأة من نواح كثيرة ، ولكن لا يستطيع الشاعر ذلك . لا يستطيع أبدا !!

تسللت بسؤال : هل هناك « شاعرات » تعترف أنت بهن ، أم أن الشاعرات غير مبدعات ؟

قال حيدر محمود : من قال أن الشاعرات غير مبدعات . هناك منهن من تفوقن على أكبر الشعراء . رأيى أن الشعر شعر ، والأدب أدب كائنا ما كان جنس مبدعه . أرفض مقولة « الشعر الستاتى » و« الشعر الرجالى » . تلك المقولة تنطبق فقط على الأشياء . والشعر ليس شيئا . إنه قيمة تصدر من القلب ، والعقل معا . ولا أظن أن قلبى أو قلبك يختلف عن قلب نازك الملائكة أو فدوى طوقان ولا كذلك العقل .

قلت : بهذا المقياس .. دعنى أتساءل هل غادة السمان شاعرة . لقد قرأت لها بضع قصائد داخل ديوان « أعلنت عليك الحب » .

قال حيدر : ليست غادة شاعرة ، ولا أظنها تدعى ذلك . إنها كاتبة فنانة يرقى نثرها إلى درجة الشعر . صحيح انها فى هذا المجال أفضل من ثلاثة أرباع « الشعراء » ولكنها ليست شاعرة وعلى أى حال هى واحدة من أفضل الكتاب الذين يعبرون عن جيلهم المسكون بالخوف من كل شىء . ما أشبه غادة بنزار !

قلت لحيدر : هل أنصفت المرأة فى دواوينك ؟ هل أنصفتها كشاعر ؟

قال : المرأة بالنسبة إلىّ هى الوطن وهى القضية .. أتوحد معها وبها توحد صوفى يرقى الى درجة الكمال .. لم اتغزل كما يفعل الشعراء بالشكل الخارجى لها ، فهى أنبل من أن تكون مجرد عيون جميلة أو قد مياس وهى اجمل من أن تكون مجرد وطن . انها بينهما تسكن القلب وتطير به نحو كل ما هو مقيم وسام ورفيع .

وصمت حيدر وكأنه يستفز ذاكرته وانطلق يقول :

بيننا خطوتان ...
آه يا رفة العين ..
إذا يفجأ النور بؤبؤها ..
تنطفىء لحظة وتضىء ..

تنطفىء لتضيء
وتفض انغلاق المدى
يصبح الرمز عندئذ قمراً
والذى لم يكن ممكنا أن نراه .. نراه ..

●●●

والهوى منذ كان
أسر وأسير ..
يستوى وجع القيد عندهما
وجع القيد عندهما : فرح وحبور
والهوى قدر النفس ، حين تشف . تشف
لتصبح مثل غدير
راق من مبتداه إلى منتهاه
فكأن المياه تحمم فيه المياه

□ عيب المرأة الشرقية لاتزال كل الأطباق!

□ ألعن مافى الزواج قضية الممنوعات!

سألت حيدر محمود: المرأة الشرقية .. عيوبها ومميزاتها؟

قال حيدر : كلما إنطلقت بخيالى . تعود وتجعلنى أتكأ على عقلى . ومع ذلك أقول لك رغم تصدى المرأة الشرقية لكل الأعمال التى كانت إلى حين ، محرمة عليها ووقفا على الرجل إلا أنها ما تزال :

١ ـ المرأة الكسيرة الجناح . تبكى لأتفه سبب وتنهار أمام أى إشكال . هل هذا عيب من عيوبها .. أجل ولكنه كذلك واحد من أهم مميزات أنوثتها !!

٢ ـ عيبها الآخر أنها ماتزال تسمح لنفسها بغسل الأطباق . لم لا تغسلها يوما ويغسلها الزوج يوما آخر ! هل هذه دعوة للتمرد ؟ ربما !

٣ ـ أستغرب كيف ما تزال المرأة الشرقية بعد كل انجازاتها المتقدمة فى حاجة بعد إلى كلمة طرية من الرجل . لم لا تبادر هى إذا أحست بميل ما نحو إنسان إلى الإعلان بكل صراحة عما تريد . هذا عيب آخر .. يعتبر كذلك ميزة .

وأخيرا صدقنى أن المرأة الشرقية بكل عيوبها تبقى الأقرب إلى القلب والعقل والوجدان .

قلت لحيدر محمود: يراها الفلاسفة «لغزا». فكيف يراها شاعر أردنى؟

قال حيدر : ليست المرأة لغزاً ولا يحزنون . الإنسان بجنسيه معاً يبقى لغز الألغاز . كل ما فى الأمر أن المرأة تقول ، عندما تريد أن تقول ـ نصف ما عندها وتعطى ولا أعرف لماذا ، نصف الذى تستطيعه وتنظر إليك عندما تعجبها ، بعين واحدة ، أو نصف عين ! المرأة يا سيدى ، مثلى ومثلك لا فرق فى المشاعر الإنسانية بيننا . الفرق فى مقدار الحرية وكمية الشجاعة وحجم الثقافة . بعد هذا كله .. لا أدرى من أين جاءت العبارة المشهورة التى تقول « إن المرأة ثرثارة » !؟

سألت حيدر محمود: الشاعر والزوجة. كيف تمضى العلاقة بينهما. ببساطة كيف تمضى العلاقة بين الشاعر حيدر وزوجته . وما هى المحاذير؟!

قال حيدر محمود : ان العن ما فى الزواج هو قضية الممنوعات هذه .. التى

تقوم بوضع يافطة فى غرفة النوم : ممنوع الفوضى . ممنوع السهر . ممنوع السفر وحدك .. داخل النفس ! هل يعقل يا عزيزى مفيد أن تأخذ زوجتك معك فى قصيدة أو فى لوحة أو حتى فى حلم ؟! لكنى أستدرك فأعلن لك بملء فمى لابد من هذه الزوجة بالذات . حتى يحدث التوازن فهى صمام أمانى من التشرد الذى كان طويلا ومريرا . ولابد منها لكى تغطينى ساعة أنام ، فأنا صدقنى لا أعرف كيف أغطى نفسى !

قاطعت الشاعر الأردنى : لكنك «يا عزيزى حيدر» صاحب نظرية «النزوات محطات وقود» !

قال حيدر محمود وقد فاجأه السؤال : النزوة ليست محطة وقود فقط . إنها اكتشاف بئر بحاله .. تجعلك تعيد النظر فى أخطائك السابقة .. وتعطيك نفسا عميقا للمتابعة . متابعة الحياة المعقدة والشرسة والمليئة بالمطبات . تصور كيف تكون الحياة بدون أخطاء . تصور كيف يكون العمر بلون واحد ؟!

□ النــزوات تعطيك متابعة بنفس عميق !

قلت لحيدر : عندى احساس دائم أن المدينة «عمان» بالنسبة لك حبيبة . ودائما أسمعك تقول «عمان.. فى القلب» و..

واكمل الشاعر السؤال والإجابة وسألتنى من قبل عن المرأة والشاعر هل هما متلازمان .. وقلت لك إنهما كذلك .. ولعل سؤالك هذا يكمل الصورة أو يشرحها بشكل جيد .. فعمان ليست مدينة عادية . كغيرها من المدن شوارع وبنايات وفنادق ومطاعم .. تصور عمان الحبيبة . تصورها زميلة المدرسة التى كبرت معك . وسافرت معك . وجاءت معك وفى النهاية تزوجتها .. أو على الأقل لم ترفضك حين طلبتها من ذويها .. رغم أنها بلغت من الثراء ما لم تبلغه . وبلغت من المجد ما لم تصل أنت إليه . أنا شخصياً ، « لا خيل عندى ..» كما قال المتنبى . وليس لى – حتى هذه الساعة – شىء باسمى غير جواز سفرى ، الذى هو حق لكل واحد ولا أظن أننى أريد شيئا من هذه الحياة . شيئا ماديا بعينه . ومع ذلك تقبل عمان لأنها الوفاء بعينه والصدق بعينه والحب الحقيقى بعينه . تقبل بى وتقبلنى فى الصباح مرة ومرة بعد غياب الشمس . هل أحب عليها امرأة أخرى . محال .

□ لا أحب امرأة اخرى على حبيبتى عمـــــان

أرخت عمان جدائلها ..
فوق الكتفين ..
فاهتز المجد وقبلها ..
بين العينين ..
بارك يا مجد منازلها ..
والأحبابا .
وأزرع بالورد مداخلها ..
بابا .. بابا !

سألت حيدر محمود : أين مكان الشاعر فى عالمنا العربى ؟

قال الشاعر الأردنى : على قدر حضور الشاعر نفسه يكون الحضور . هناك من هم فى صدر المكان وهناك من هم فى غيره . غير أن القضية تظل قضية

الحرية . أنا دائما أقول .. أعطني حرية ، أعطك ألف جائزة نوبل ثم ، أعطني وحدة عربية أعطك كل جوائز الدنيا . ليس من الضروري إذن أن يكون لكل دولة من ألف شخص شاعر . باعتبار أن أي شاعر يبدع في أي أرض عربية هو شاعرنا جميعا . على ضوء ذلك المفهوم أعود فأكرر : ليس صلاح عبدالصبور مثلاً أو أحمد عبدالمعطي حجازي أو أمل دنقل شعراء مصريين ولكنهم شعراء عرب . مثلما أن بدر شاكر السياب أو أي واحد من الشعراء الممتازين هم شعراء لكل العرب .

قلت لحيدر محمود : قلب المرأة ، هل هو حضن دافىء ، أم بحر متقلب ؟

□ اذا أرادت المرأة احراق الدنيا أمرت رجلا !

قال حيدر : بقدر ما يزعجني إيقاعك الخاطف في السؤال بقدر ما يسعدني . انه لا يجعل لي وقت أفكر فيه ، فأضطر إلى تزويق اجابتي . الآن فهمت هدفك من « الإيقاع الخاطف » للسؤال . أنت تفاجيء محاورك في غرفة نومه !!!

واعود وأقول لك ، إنك لا ترضى الحضن الدافىء في كل الفصول . لابد من البحر بين فترة وأخرى . إنه قلب المرأة الذي ينبغي أن يسعى لنيله . ينبغي أن يكون كل المواسم ...

الآن أعلن أن نصف الليل ..
مرتبط بنصف الليل ..
والأمطار خاضعة لأمزجة الفصول
والآن أشكر قاتلي !!

فاجأت حيدر محمود مرة أخرى : بم تتميز كل واحدة في قلبك . الابنة . الزوجة والأم ؟

قال : الزوجة الحقيقية تجمع كل هذه الصفات ، لكن لكل واحدة من الاخريات تبقى فقط في مدارها الذي خلقت له ولكل منهن مكانة في القلب وفي الروح وفي الوجدان « ولا يعرف الشوق إلا من يكابده » !!

سألت مدير دائرة الثقافة والفنون ، والذي يعتز أكثر بهويته كشاعر أردني : هل العبقرية احتكار للرجل ؟!

قال الشاعر الأردني : المرأة التي تهز السرير بيمناها إلى آخر المقولة .. هي بالتأكيد عبقرية .. وحكاية العبقرية التي تقول إنها احتكار للرجل مرفوضة لأنه يكفي مثلا أن نزعم أن المرأة التي تصمم على فعل شيء كائنا ما كان هذا الشيء لا تحتاج لأكثر من مجرد القرار لصنعه . إذا أرادت احراق الدنيا فهي تأمر بذلك رجلاً للإحراق .. كما فعلت إيفا بهتلر .. أو لا أدري ماكان اسمها .. بنيرون . وإذا أرادت إصلاح العالم ، أنجبت له واحداً يستطيع ذلك . أو ليست هذه عبقرية ؟! سامحك الله يا مفيد وسامحها معك !

***



طفلة تحلم !

سلمى شلاش

« .. وهل تسأل عن جنس العازف اذا سمعت موسيقى جميلة . هل هو رجل ام امرأة .. ؟ »

الحوار مع كاتبة له مذاق خاص !

فى لحظة واحدة ، يكون الحديث على موجة واحدة من الفهم .

السؤال يخترق الوجدان ويصل بسرعة سهم انطلق ، والاجابة كألغام تتفجر صدقا وحرارة !

وعندما تكون الكاتبة ، قصاصة ، فإنها تجيب وكأنها تحكى . فكل حادث فى حياتها يأخذ شكل القصة . له بداية ووسط ونهاية !

و« سلمى شلاش » كاتبة سورية المسقط . طفولتها كانت فى ربى دمشق وغوطاتها . كانت صبية دمشقية تتأمل وتحلم وبعد مشوار من القلق والمعاناة ، أصبح لسلمى شلاش اسم بين كاتبات القصة ، واهتمت السينما بانتاجها . « الحب قبل الخبز أحيانا » ، « أنا فى عينيه » ، و« بنت السفير » !

هكذا جرى الحوار بينى وبين سلمى شلاش ذات أمسية . أنا أسأل وأتساءل وهى تجيب وتتأمل !

حذفت أسئلتى ، فهى مفهومة لقارىء ذكى .. وجمعت الاجابات وغربلتها .. فقد كان مهما ان تسمعوا صوت سلمى شلاش .. وتقتربوا منها ، وتحسوا بها وهى تحلم وتخطط وتفكر .

وهذه هى حصيلة حوارى !

● في الثانية عشرة من عمري أمسكت بالقلم للمرة الأولى . مجرد « شخبطة » فوق ورق ملون ، صارت بعد قليل خواطر وأرسلتها بالبريد الى مجلة « الجندي » في دمشق ، وفوجئت بنشرها . يومئذ ، أيقنت أن القلم سيكون رفيق حياتي !

● أتذكر أيامي البعيدة القريبة حين عرفت طعم القراءة لأول مرة . كان لأبي مكتبة ضخمة تنام الكتب في وداعة فوق أرففها . حين جلست أقرأ ، أقلد أبي وأقلد الكبار ، اكتشفت « متعة » خاصة . اكتشفت ان الكتاب صديق مفيد ، يضيف إليّ معلومات ويشحنني بشحنات خاصة أهمها الحماسة والتفاؤل . أتذكر انني كنت أجمع الكتب التي استعد لقراءتها في الصيف ، فأربطها بحبل صغير وأضعها بجانب السرير . وما يكاد العام الدراسي ينتهي وامتحن وتظهر النتيجة حتى التهم الكتب التهاما . فهل تصدق اني في سن الرابعة عشرة قرأت الأدب الروسي ، وعرفت وتعرفت على « تولستوي » ، و« ديستوفسكي » واستطعت أن افهم ما أقرأ بواسطة الترجمة الجيدة . وأظنه يدهشك ان تعلم اني عرفت بعضا من الفلسفة اليونانية القديمة التي أدمنت قراءتها في هذا العمر المبكر وكنت أناقش أساتذتي ومدرساتي في نظريات فيثاغورس وأفلاطون وأرسطو . كنت أثير الدهشة والسخرية أحيانا . فقد كنت قصيرة ولم أكن قد جربت بعد الكعب العالي وكان من حولي يضحكون والبعض أطلق عليّ « الفصيحة » لأني كنت استخدم في أحاديثي اللغة العربية !

● ذات مرة أرسلت للكاتب أحمد بهاء الدين رسالة ، أطلب فيها أن أكون مراسلة لـ « صباح الخير » في دمشق . كانت رسالتي موجزة . كانت على حد تعبيره فيما بعد « سطور جادة لانسان جاد » وأرسل « بهاء » خطابا يرحب فيه بانتاجي ! في العام التالي ، أجريت حوارا مع أول دبلوماسية في سوريا وهي زوجة أكرم الحوراني وكانت مدرستي فوافقت وأرسلت الحديث للأستاذ بهاء ، وبعد أسبوع فوجئت به منشورا وفي مقدمته كلمات كانت ميلادي : دمشق من « سلمى شلاش » !

● حين رأيت أحمد بهاءالدين بعد سنوات ذهبت أقدم نفسي له وكان يزور دمشق : أذهله حجمي . لم يتصور اني تلميذة مدرسة ، لكنه نصحني نصيحة واحدة : القارىء الجيد ، كاتب جيد !

● تمضي الأيام ، وتسافر أسرتي ـ لظروف ما ـ الى الكويت . هناك دخلت المدرسة الثانوية . كنت في السنة الثانية الثانوية ، حين كتبت في مجلة « النفط » محاولات جديدة في الأدب . بعض القصص ، بعض النقد . وكانت المجلة تنشرها في مكان بارز وأعترف ان نصيحة الكاتب الكبير أحمد بهاءالدين كانت أمام عيني وفكري دائما . ففي تلك الفترة قرأت من الكتب ما لا تستطيع فتاة في ضعف عمري (١٦ عاما) ان تقرأه ! كنت أقرأ ، فأجد نفسي أتوق للكتابة . كنت أحس ان القراءة تشحن قلمي !

● في تلك الفترة ـ في الكويت ـ تزوجت من مهندس مصري (أمين حسنين) كان أجمل ما فيه انه مؤمن بموهبتي فلم يصادرها بل شجعني ودفعني للكتابة وكان

يشترى لى الأوراق الملونة التى أكتب عليها ، وأهدانى قلما ثمينا لأكتب به .
أستطيع أن أقول أيضا انى لم أعش فترة مراهقة كبقية البنات فقد كنت مشغولة بالقراءة والكتابة وكنت أنظر لوقت اللعب على انه وقت ضائع . كنت فى ذلك الوقت اناقش الكبار وأهرب من الصغار وأهوى الجلوس مع الكبار و« أحشر » نفسى فى حواراتهم الفكرية . كانوا فى البداية يستغربون من وجودى ، وبعد قليل يصبح وجودى شيئا طبيعيا ! كانت القضايا العامة تشدنى وكانت معلوماتى تجعلنى - رغم قصرى - طويلة القامة ! كان والدى رجلا عسكريا ، وكان البيت يموج بأفكار عربية ثائرة . كانت ثورة الجزائر فى قمتها ، وكنت فخورة بأى ثائر عربى ينفض غبار الاستعمار .

● أول قصة كتبتها كان اسمها « الوردة الحمراء » نشرتها مجلة الجيش الكويتى . كانت قطعة من الرومانسية الشفافة . كنت منذ صغرى شغوفة بالجمال . أرى الشروق فيستغرقنى . أرى الغروب ، فأبكى لأن النهار ولى .. وارتدى الليل عباءة سوداء . هذه القصة جعلتنى أعرف « حجم موهبتى » . هجرت الخواطر والمقالات النقدية وكنت قد قررت أن أخلص للقصة والرواية . كان قرارى هذا مبعث سخرية لمن حولى اذ قالوا لى « هل أنت غادة السمان حتى تقررى ميدانك ؟» وقلت لهم : لم تولد غادة عملاقة . كانت تحلمُ مثلى وتخطط لنفسها وبالاصرار وصلت . صمتوا حين اكتشفوا انى أحلم وأخطط ولا أبالى بكلمات الاحباط .
● حصلت على ليسانس الآداب قسم تاريخ . وأنجبت أولادى طيلة اقامتى فى الكويت . فرحت بهم ، وفرحت بنفس المقدار ببنات أفكارى من القصص التى جعلت اسمى يتردد بعض الشىء فى الأوساط الأدبية !

● كان فى ذهنى دائما « نمط » للمرأة ، أدافع عنه فى قصصى . نمط المرأة المستقلة ماديا ، لأن الاستقلال المادى للمرأة يمنحها الشخصية الاعتبارية ، إذ لا كينونة لامرأة بدون استقلالها المادى . فالاستقلال المادى يجعلها « قادرة » على تحقيق أحلامها وألا تعتمد على الرجل فتصبح « تابعة » اقتصاديا . انى أكره هذه التبعية وأحاربها وأشعر انها تجعل من المرأة مواطنا من الدرجة الثانية ! والرجل فى قصصى دائما قدوة وعطاء وعقل وأضعه دائما موضع احترام وأراه مظلة واقية من شرور الحياة ، وأعتز كثيرا بعقله وعواطفه وأؤمن دائما انه يفكر بمنهج مختلف عن منهج المرأة وانه لابد وأن يراجع المرأة فى بعض ما تذهب اليه من أفكار . لقد نشأت فى بيت ، رأيت فيه الاحترام متبادلا بين الرجل والمرأة ولذلك انعكس هذا على قصصى . ان قصصى ليست سوى بعض « الشرائح » من الحياة وهناك اضافة ما فى قصصى وهى انى دائمة السفر والترحال ولذلك تظهر آثار السفر بين سطورى وقد اكتشفت ان المرأة فى القاهرة مثلها فى دمشق مثلها فى طنجة مثلها فى روما مثلها فى فيينا . انها المرأة . واحدة فى كل مكان ، تحلم بالأمن النفسى والاستقرار ، ورجل يحميها بعقله ويحتويها بحنانه !
● ليس صحيحا هذا الاتهام الذى يتهمنى به البعض بأنى كاتبة رومانسية مترفة وأكتب عن النساء المترفات . هذا غير صحيح . لا أظن أن الفن القصصى يجب أن

يتعرض للنساء الكادحات فقط . أنا لا أريد أن أكون مزيفة . لا أحب أن أدعى الاهتمام بالكادحات دون مبرر قوى . أنا اهتم بالمرأة العصرية . والمرأة العصرية تكافح بشكل ما .

أنا لا أكتب عن طبقة خاملة من نساء المجتمع بل لا أطيق خمول المرأة ، لأن الخمول يساوى الملل ، والملل معناه الثرثرة والجنوح والسوء . أنا التقط من الحياة « مواقف » انسانية أصوغها قصصا . ولا التفت مطلقا للخاملات فأنا شديدة القسوة عليهن واعتبرهن أصفارا ملونة على الشمال !

● نعم ، هناك فلسفة وراء العنوان الذى اشتهر وكان سببا مباشرا فى شهرتى : « الحب قبل الخبز أحيانا » ! فأنا مؤمنة ان ماديات الدنيا لا تحقق سعادة الانسان الداخلية . ان لمسة انسانية واحدة تساوى مال الدنيا . نظرة حب مفعمة بالصدق تساوى كل المال وكل النجاح . عندما أكون حزينة ، تمتد يدى نحو مفتاح الاضاءة لاضيء الغرفة . واكتشف ان الغرفة مضاءة سلفا فما الذى حدث ؟! الواقع ان فى داخلى « عتمة » ! لذلك أعتقد ان الحب ـ أحيانا ـ أهم من الخبز . وأريد أن أقول ان المعنويات قبل الماديات . هذه هى فلسفتى بكل تواضع !

● كاتبتى المفضلة هى « مارجريت ميتشل » مؤلفة « ذهب مع الريح » . وأحب « بنت الشاطىء » كمفكرة . ومعجبة بانتاج « غادة السمان » وكوليت خورى واميلى نصر الله وزينب صادق وجاذبية صدقى .

أنا أعتقد ان تلك الكاتبات « ثروة » و« اضافة » للأدب والذين ينكرون دور المرأة فى الأدب ، كأنهم ينكرون بزوغ الشمس كل صباح . ان كل أديبة استطاعت أن تقدم المرأة من زاوية . انهن يعكسن أعماق المرأة كما هى ! وإذا كان هناك كتاب قد فهموا أعماق المرأة فلا بأس ولكنهم لم يتوغلوا لأبعد من نقطة معينة ! من هؤلاء احترم عطاء احسان عبد القدوس . انه يفهم أعماق المرأة بجرأة نادرة . انه يلتقط أصغر احاسيسها ويصوغها فى فن روائى راق . وهناك أيضا الشاعر نزار قبانى . بيد ان احسان فهم المرأة كأعماق وسلوك ، ونزار قبانى تكلم عنها فى قصائده ، كأنثى ! لم يبحر « نزار » فى فكر المرأة أو عقلها أو عواطفها وان حاول أن يقنعنا انه فعل ذلك فى دواوينه !

● لن أنافق الرجل فلازال حتى الآن ـ مهما تشدق ومهما أبحر ـ بعيدا عن جذوره ، مازال شرقيا . ففى لحظة ما يرتد إلى البادية ويفرض آراءه ربما لأنه توارث عن أجداده ان المرأة مخلوق « أدنى » منه درجات ! مع ان العلم الحديث أثبت ان المرأة لا تقل بأى صورة من الصور عن الرجل فى الذكاء والعقل والارادة ، وان الفروق بيولوجية ليس إلا . وان العبقرية ليست صفة من اختصاص الرجل . فالعبقرية مؤنث أيضا وليست مذكرا فقط ! الرجل الشرقى سيظل شرقيا مهما سافر وتعلم وتثقف . انها عقدة فى أعماق الأعماق تحكمه !

● أكبر هموم المرأة العربية تتركز فى نظرة الرجل إليها . نظرة الرجل للمطلقة . نظرته للمرأة التى فاتها قطار الزواج . كلمة « عانس » بعبع المرأة الحقيقى مع انهم فى المجتمعات المتحضرة لا يلتفتون لهذه النقطة ! الرجل إذا فاته قطار الزواج

أطلق عليه المجتمع « عازب » ، أما المرأة فيسمونها « عانس » . هناك وصف آخر يطلقه المجتمع على المرأة هو : سن اليأس . انه لقب بشع ومخيف وأنا أرفضه شكلا ومضمونا ومنطوقا !

● فى قصتى « الحب قبل الخبز أحيانا » كنت انتصر لحرية المرأة فى اختيار طريقة حياتها واختيار الرجل الذى تحبه وصحوتها من أى تجربة فاشلة تمر بها . كنت أريد أن أمجد قيمة الاصرار على المضى فى الطريق مهما كانت هناك من عثرات . فأنا مثلا أعتز بتجربتى فى الحياة . لقد حلمت يوما أن أكون كاتبة . وخططت لهذا الحلم وتابعت المشوار باصرار خرافى وأظن انى أحصد الآن ثمرة اصرارى !

● دعنى أصارحك بكل وضوح ان المرأة الكاتبة فى المجتمعات العربية تعانى من عدة مشاكل حيوية تؤثر بصورة أو أخرى على غزارة انتاجها ونوعيته . فهى متهمة دائما انها لا تكتب إلا تجاربها الخاصة التى مرت بحياتها وعانت أحداثها ، أى انها باختصار « بطلة كل رواياتها » . ولذلك لا يحظى انتاجها - بكل أسف - بتقييم جاد . وهذه النظرة الضيقة تجعل المرأة الكاتبة فى كثير من الأحيان تحجم عن الانتاج . وهذا معناه أن خيال الرجل الخصب يستثمره فى الكتابة أما المرأة فغير مسموح لها باستخدام خيالها الأدبى ، بل من المفروض ألا يكون للمرأة الكاتبة خيال ، أصلا !!

● ليس هناك أى فرق بين انتاج كاتب رجل أو كاتبة امرأة . هل تسأل عن « جنس » العازف إذا سمعت موسيقى جميلة ؟! الكتابة لغة عالمية تتسلل الى الوجدان وأرفض أن يكتب رجل ما بالنيابة عنا . نحن الكاتبات قادرات على التعبير عن أنفسنا بصورة أفضل وأعمق والكتابة هى فن التعبير عن الذات . وأنا لا أستطيع أن استعير تجارب رجل لأكتب بالنيابة عنه !!

● لا أستطيع أن أقسم الفنون ، فأنا أعتقد انها نهر واحد . الكتابة والموسيقى والرسم ، كلها تصب فى نهر واحد . فكرت فى احتواء اللوحات التشكيلية للفنانين فى معرض « جاليرى » تقع فى قلب القاهرة .. واكتشفت مدى الاستجابة للفكرة حين أحس الناس ان « الجاليرى » ليست سوى « معرض دائم » لإنتاج الفنانين . ربما كان الفنان التشكيلى - على حد قولك - أخفض صوتا وأخجل من غيره ، فأنا أحاول - عبر الجاليرى - أن أمد جسورا بينه وبين الناس المتذوقين للفن ! اننى أشعر ان هذه الجاليرى أشبه بحديقة فيها أنواع كثيرة من الورد والنماذج والأساليب .

● فى بعض الأحيان يخيل إلى انى المرأة ذات الوجوه الخمسة . أى « الأنماط » الخمسة :

فأنا لى وجه زوجة . وهو وجه مهم وعندى التزامات وواجبات .
ولى وجه أم . وهو وجه شديد الأهمية . عندى ٣ بنات وولد .
ولى وجه مديرة أعمال . لشركة زوجى . امرأة عملية للغاية .
ولى وجه الكاتبة . وهو أحب الاهتمامات الى نفسى .
ولى وجه المرأة .. الذى أعبر فيه عن نفسى كإنسانة تحب وتكره وتحلم . هذه الوجوه الخمسة هى فى نهاية الأمر سلمى شلاش ولذلك ليس عندى فراغ وحياتى

مملوءة بشكل مذهل .. وأحيانا يدهشنى مثلا اسلوبى فى ادارة شركة زوجى فهو اسلوب حاد قاطع .. ثم تدهشنى رومانسيتى فى تناول قصة .. وفى اعتقادى ان كل انسان له أكثر من وجه وإذا سألتنى بم أسلح أولادى لقلت لك كما سلحنى أبى يوما ما .. بقيمة الاعتماد على النفس .

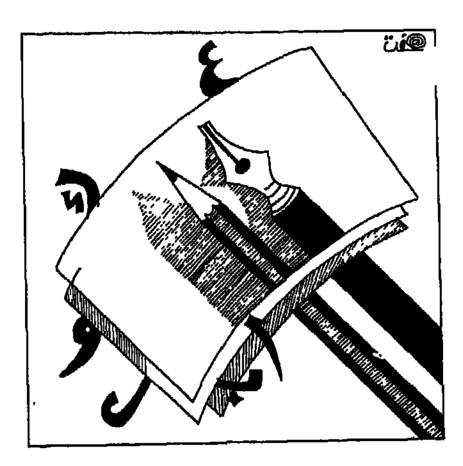
● نعم .. يقرأ زوجى قصصى ـ أحيانا ـ قبل النشر ولكنه غالبا ما يقرؤها منشورة ونختلف على بعض التفاصيل ، ولكن هذا الخلاف يسوده الود ..

● انتمائى الى دنيا الأدب والأدباء هو أجمل متعة احس بها ، اننى أشبه ذلك العالم الذى يبحث عن جزيرة غامضة وسط المحيط ، وظل يبحث عنها حتى وجدها . لقد وجدت « جزيرتى » وأقيم فيها الآن !

● مأساتى مع السينما ، انها تأخذ قصصى ، فيبهرها العنوان وتتقلص التفاصيل . أنا ـ بكل تواضع ـ أعتبر نفسى مسئولة عن الرواية المكتوبة وليست الرواية المرئية على الشاشة الفضية !

● هل حققت ما حلمت به ، نعم ، حققت وأكثر !

● من أنا ؟ أنا طفلة كبيرة مازالت تحلم .





الشاعر المسافر !
عبدالمنعم الرفاعى

« الشاعر محروم
وحقه مهضوم »

نهار خريفى المزاج .. سحب نصف داكنة تتمطى فى استحياء .. لسعة هواء بارد جاءت تعتذر عن لهب الصيف الطويل ..

أوراق الشجر - برشاقة راقصات البالية - تفرش الأرض .. الشمس تطل كعذراء خجول من خلف خمار أسود .

الطبيعة فى أحسن حالاتها .. كأنما تستعد لتمارس الحب !!..

المدينة : عمان ، العاصمة الأردنية .. وبين ضلوعها التى احتوتنى كنت أسكن .. لأيام .

موعدى معه فى العاشرة من صباح ثلاثاء .. أحب ساعة « الضحى » التى تعقب الشروق .. أكره ساعة « الظهيرة » فى كل شىء ، لأنها تسلمنى للغروب .

أحمل نفسية هادئة ورغبة طفولية فى القفز لأمسك بأغصان الأشجار .. هل لأنى ذاهب إلى شاعر ، وبعد قليل سوف أدلف إلى واحته الشعرية ؟ ربما !! نعم .. أنا من النوع الذى يحدد لى من سأتقاسم معهم الوقت .. درجة حرارة حماستى أو .. لا مبالاتى .. وأحيانا تتأجج نفسى إلى لقاء .. وأحيانا أخرى ، تصل شهوتى النفسية إلى الصفر !!..

عبدالمنعم الرفاعى . حائر بين غابة السياسة ودوحة الشعر .. الغابة السياسية ، أشباح وأرواح شريرة ، والدوحة الشعرية أطياف وأحلام ..

ولكن عبدالمنعم الرفاعى « يخون » السياسة مع الشعر ولا يحس بالأذى أو الندم !!..

عبدالمنعم الرفاعي ، لتعرفوه أكثر ، لم يكن يوما ما سياسيا أردنيا حيث مسقط رأسه .. بل كان سياسيا عربيا تشغله الهموم العربية ..

الرفاعي ، لتعرفوه أكثر ، شاعر ، أكبر من مساحة بلده : الأردن .. وكان سفيرا لبلاده في القاهرة عدة مرات .. ومازال وهو بعيد عنها يتغزل فيها ، وفي نيلها ، وفي عيون الصبايا المختالات على ضفافه !! الرفاعي ، لتعرفوه أكثر ، جاء إلى القاهرة ، أكثر من مرة .. مدعوا كشاعر عربي كبير ، في مناسبات عدة ، آخرها ذكرى الشاعر أحمد شوقي في كرمة ابن هانيء وقبلها في ذكرى العميد طه حسين .. واستقرت قصائدة في الوجدان ..

الشاعر عبدالمنعم الرفاعي ، لتعرفوه أكثر .. لابد أن تقتربوا منه . هذا الاقتراب الحميم . فمن المهم لكي نعرف إنسانا ، أن نفهم مفردات لغة حياته الخاصة قبل وقائع حياته التاريخية ..

صحيح أن كل لوحة فنية هي فصل من حياة الرسام . وكذلك القصيدة بالنسبة للشاعر .. ومن الممكن أن نقرأ بإمعان وحب ديوان شاعر ما ونفتن بقصائده .. ويظل « ديوان » حياته مجهولا .. وأهم قصائده ، لم نعرفها بعد .. تلك محاولتي !! ولكن ..

كيف أقلب صفحات « ديوان » الشاعر الرفاعي .. وأفتش في نفسه عن قصائد مجهولة ..؟

كان يجلس في وداعة الأطفال وتحت قدميه كلب جميل يرقد في طمأنينة .. وكلانا يستظل بواحة الشعر ، وكأننا نغتاب في شرعية شديدة سيرة السياسة واعوجاجها !!

الرجل أنيق .. الملبس ، والسلوك والكلمة .. خلفه صورة ابنه ، حبيب عمره .. رفيق دربه الأوحد : عمر .. الذي أهداه ديوانه الشهير « المسافر » .. وخصه بعديد من القصائد .. وقال لي ان عمر « أعظم قصائدي » التي لم ينتبه لها النقاد .

الستائر البيضاء خلف النوافذ توحي لي بهدوء كبير .. وفنجان الشاي مع شاعر وصفه عمر أبو ريشة « ليس في قلبه متسع لغير الحب » متعة . وعبدالمنعم الرفاعي يقول وأنا أصغي : « ليت الانسان في هذا العالم المجهد ينطلق مع الشعر فيحوم ويحلق في تصور ممتع على مطايا الخيال يربط السماء بالأرض والغيب بالواقع والتصور بالوجود .. يقف كما وقف بنتون فضرب بقدميه الأرض فتفجر منها العيون أو يبكي كما بكت ايزيس فجرى من مدامعها النيل .. ليته ينطلق في دروب غير مرسومة في ثناياها العطر والجمال » .

قلت وأنا أتسلل إلى نفسه : لماذا قلت « ليت » أكثر من مرة ؟

قال : لأن هذا الحلم يلبس ثياب الأمل ، وأنا سرت فى درب حاد بى إلى منعطف الحقيقة والواقع .. منعطف يشعر معه الإنسان بأنه جزء من هذا الواقع الذى يحيط به ويلازمه ويعيش معه ويجرى على لسانه ..

قلت : أنا من القائلين ـ سيدى ـ أن المسئولية هى أحلى مرض !!

قال الرفاعى : قديما كانت المسئولية الكبرى مبدأ من مبادىء التكوين القومى والخلقى .. فقد كان الخليفة الثانى عمر بن الخطاب يقول : « لو أن جملا هلك ضياعا على شاطىء الفرات لخشيت أن يسألنى الله عنه ..» .

قلت : كان القادة .. فى تاريخنا يخشون ، أن يحاسبهم الله عن هلاك جمل ضاع ..

استطرد الرفاعى يقول : عفوا ، يختلط فى نفسى دائما حديث الشعر وحديث السياسة .. فأنا لا أغلق ستائرى فى وجه المشاكل العربية ، ولا أجلس على ضفاف التاريخ متأملا ، متفرجا ..

عبدالمنعم الرفاعى . متى وكيف يكتب قصائده ؟

أعرف أن جان جاك روسو ـ مثلا ـ كان لا يكتب إلا إذا غمرت الشمس بأشعتها الفضاء .. فإذا طوتها السحب ، ظل حزينا يسرح فى فراغ الأوراق . وقرأت حكاية قديمة عن الشاعر الألمانى شيللر تقول انه ما كان يستطيع الكتابة إلا إذا وضع قدميه على لوح من الثلج واستنشق رائحة تفاحة عفنة !!..

اما أنا ـ هكذا يقول لى عبدالمنعم الرفاعى ـ فأكتب حين أحس أن فى صدرى شيئا يريد أن يولد .. عندما يأتينى « مخاض » الكتابة ، أكتب .. أينما كنت !! فليس للخلق وقت .. ان كلمة شاعر ـ كما تعرف ـ أصلها اغريقى ومعناها خالق أفكار موسيقية .. والشعر هو موسيقى الكلام ..

قلت : ان الرومان كانوا يستخدمون كلمة ما معناها نبى أو شاعر ..

قال الرفاعى : أنا من الذين يعتقدون أن الشاعر ورجل الدين لهما مهمة واحدة وهى عادة الايمان بالله الى القلوب التى تمرغت فى المادية !!..

قلت لعبدالمنعم الرفاعى : ألا يزال لدولة الشعر ـ فى العالم العربى ـ ذلك الصولجان الذى كان ، أم أن العلم قد كسح الشعر واكتشاف القمر قد أزال هذه الدولة الرومانسية ؟! و ..

وقاطعنى الشاعر وقال : أريد تعديلا لكلمة واحدة فى سؤالك .. وهى كلمة « كسح » ما رأيك أن تغيرها إلى « جار على ..» فتكون هكذا « أم أن العلم قد جار على الشعر ؟» ..

وافقت على التعديل ، وأعطيت الرفاعى أذنى طائعا مختارا ..

« دولة الشعر ليست دولة ميكانيكية أو مصطنعة .. ولذلك لا أرى تعارضا بين بقاء هذه الدولة بمكوناتها وبين انطلاق الإنسان نحو العلم والآفاق والتعرف إلى حقائق الوجود .. دولة الشعر منطلقة من طبيعة المكان والزمان والإنسان .. هذه الطبيعة الخاصة التى أخرجت الفلسفات القديمة والرسالات الخالدة ، لا يمكن هدمها بعوامل وبناؤها بعوامل أخرى .. ولكنى أعترف لك أن دولة الشعر قد هبطت ولم تعد ذات صولجان ولم يعد للشاعر هذا الاحتفاء القديم ..

قلت لعبدالمنعم الرفاعي : هل في رأسك أسباب محددة لهبوط دولة الشعر واهتزاز صورة الشاعر ؟

قال : إنها مناخ عام .. لقد تكثفت أنانيتنا . وأصبحنا لا نلتفت إلا لحاجاتنا الشخصية .. كيف ننميها ونحافظ عليها من اعتداء الغير .. لقد صار الأصل هو « الاعتداء » ولهذا ، بات الناس مجرد أنياب لها مخالب ..

□ الشاعر محروم وحقه مهضوم

قلت : ولهذا تاه الشعر والشاعر في الزحام .. ولم تعد القصيدة خبزا روحيا .. وما عاد الشاعر فارسا في مجتمعه !!

قال الرفاعي برنة حزن : الشاعر العربي محروم وحقه مهضوم .. محروم من ممارسة دوره في تحريك البحيرة الراكدة .. محروم من أن تصل رسالته للناس ، يرفعهم إلى المثل الذي يريد .. وحقه مهضوم ، فالشاعر يطمح إلى المستويات الأعلى .

قلت مستدركا : ألا تعتقد أن الشاعر مغرق في تصوره .. أليس هذا دور السياسي والمصلح الاجتماعي .. أتصور أن الشاعر. كما يقول الناقد كارولايل « يكشف لنا ما يجب أن نحب » ..

قال الرفاعي بسرعة : الشاعر يتنبأ .. يبشر .. ان قصيدة واحدة تسري كالكهرباء بين الناس ..

قلت : هل هو تحيز للشاعر داخلك أكثر من السياسي ؟..

قال : السياسي يتعامل مع الحوادث وهي غدا تموت .. أما الشاعر فيتعامل مع حقائق باقية .. خالدة .. الشاعر قديس والسياسي إنسان ..

عبدالمنعم الرفاعي يدلل لي على « انتفاضة » قلب الشاعر لما يجري أمامه على مسرح وطنه ..

يقول « الشاعر يخاطب الطبيعة ليرفعها إلى مصافه .. الشاعر يتألم لأن الشجر لم يشاركه الألم والجزع » !!..

« إيا شجر الكافور مالك مورقا
كأنك لم تجزع على ابن طارق..»

الشاعر يخاطب حصانه : يقول عنترة

« لو كان يدري ما المحاورة اشتكى
ولكن لو علم الكلام تكلما »

الشاعر يشكو، يثور، ولكنه لا ينقم حين يرى المجتمع منصرفا عنه .

« ليتني قوة العواصف يا شعبي .
فأفضي اليك ثورة نفسي »

وحين يشعر الشاعر أنه مهمل اجتماعيا وفنيا وأنه صار صفرا ولا وجود له في حركة الناس .. يهاجر بروحه ..

يقول المتنبي :

« هأنذا ذاهب إلى الغاب يا شعبي
لأقضي الحياة وحدي بيأسي »

هأنذا ذاهب إلى الغاب يا شعبى
علىَّ فى حميم الغابات أدفن نفسى »
ثـم أنسـاك مـا استطـعـت
فما أنت بأهل لخمرتى وكأسى »

□ السياسـة غـزت ديارى الشـعـريـة

يقول عبدالمنعم الرفاعى : ظل الشاعر مكرما .. حتى جاءت عهود الانحلال السياسى والخلقى واهتم الناس بطرح المذاهب والآراء السياسية .. فانحسر دور الشعب وصار « الابداع » مهجورا ومغيبا .. ودخلت دولة الشعر مرحلة الركود وخاصمتها العافية !!..

قلت لعبدالمنعم الرفاعى : أى الوجهين أوضح فيك ، وجه الشاعر أم وجه السياسى ؟

قال بحزن : مع الأسف ، أوضح الوجهين هو السياسى ، فقد أكلت السياسة عمرى حتى لم تدع لى مساحة للشعر .. بيد أنى لو خيرت لقضيت العمر شاعرا وإذا قلت لك « مع الأسف » فأنا لا أعتذر ولكنى أحس بالندم !!..

قلت له : ألم تستطع أن تعطى للسياسة مساحة وللشعر مساحة مماثلة ؟ ان تشوسر أبو الشعر الانجليزى مثلا كان رجل أعمال وشاعرا فى آن واحد .. وهو الذى قدم لنا صورة العصر فى انجلترا فى « حكايات كانتبرى » ..

قال الرفاعى معلقا : رجل الأعمال ، تظل ارادته بيده .. لكن السياسى قشة فى مهب الريح العاتية .. وأنا ـ بعد توغلى فى السياسة وطرقاتها ـ اكتشفت وعورة الطرق وتفرعاتها وغبارها الكثير .. ولم أكن أود أن أرى من الحياة هذا « الزمن الردىء » !!..

صمت عبدالمنعم الرفاعى قليلا ..

أطرق فى حزن ..

احترمت هذا « الاجترار » للماضى . واحترمت أكثر ، رنة الحزن والندم فى صوته ، لأن مساحة الشعر ، تقلصت بصورة كبيرة أزعجته وحرمته من متعة التجول فى رياض الشعر ..

فالكلمة ـ عند الشاعر ـ حورية غافية ، يخرجها الشاعر من عزلتها لآلىء عذرية الأصداف فى أبحر بعيدة تائهة الضفاف .

ويعلق عبدالمنعم الرفاعى « كم من لفظة نائمة فى القاموس . كأميرة تنتظر من يوقظها . ويطرز بها الجمال » .

شعرت . أن السياسة صادرت الشعر فى قلب الرفاعى .. وعدنا نتكلم !!..

لماذا هذا « الولع » بالشعر عند عبدالمنعم الرفاعى . مع أن السياسة أعطته الاسم والمركز المرموق ؟!..

الشاعر يرد .. كتبت الشعر وأدمنته لأستريح من همومى .. لأتحرر من عذابات النفس ومن معانقة القيود !!

قلت مقاطعا : معانقة القيود ؟!

رد بواحد من أبياته فى ديوانه « المسافر » فقال :

رب حرية يعانقها القيد
فتحيا على عناق القيود !!

قلت للرفاعي: هل «المسافر» هو ديوانك الوحيد؟

قال : نعم ، ولكنه ليس شعرى الوحيد .. ولعلك لا تعرف أن أحدا غيرى هو الذى جمع قصائدى وطبعها وأهدانى نسخة منها بعد أن أهديتها إلى ولدى عمر ..

□ الشعر الحر شعر منحل

□ أشعار رامي المغناة ليست أعظم ما قال

قلت: من من شعراء زماننا تعترف به فى ملف الشعر؟

قال بعد تفكير (ألاحظه دائما فى كل من أسألهم عن أسماء) ..

قال : تعال نستثن شوقى وحافظ .. بعد ذلك من الأحياء المعاصرين ، أعتبر « عمر أبو ريشة » شاعرا كبيرا وأعتبر بدوى الجبل ، شاعرا مبدعا .. وأعتبر أحمد رامى شاعرا فنانا رفيع المستوى .. وأعتبر صلاح عبدالصبور شاعرا مثقفا وكنت أحترم عزيز اباظة شاعرا .. وأفتن بعلى محمود طه ، ويأسرنى بشارة الخورى ..

قلت: هل أشعار رامي المغناة هي أجمل ما عنده ؟!..

قال عبدالمنعم الرفاعى وكأنه يدفع « اتهاما » عن رامى : هذا غير صحيح ، فإن أشعار رامى غير المغناة ، أبقى وأخلد وأرقى .. وأحب إلى نفسه وإلينا ..

قلت لعبدالمنعم الرفاعي: هل لك رأى فى الشعر العمودى.. الحر؟

قال : أنا لا أغفل مطلقا عن « القيمة الفنية » فى بعض من يكتبون الشعر ، خذ منهم « نزار قبانى » مثلا .. أنا لا أحب له أن يكون هذا هو شعره .. أحب له أن يكون فى مرتبة الشعر الأصيل الذى يحمل معه تاريخا ضخما من الحضارة وقيما خالدة من القيم الكونية .. وهو أى - نزار - يستطيع أن يكون ذلك ، لكنه يبحث أحيانا عن الرواج .. إن قصيدته « سيف ذهبى من دمشق » نموذج لشعر نزار الأصيل وبقية شعره نثر جميل !!..

قلت: الشعر الحر، نثر جميل ؟!

قال الرفاعى بصورة قاطعة لا تقبل نقضا لأحكامه : نعم .. إن الآنسة فدوى طوقان الشاعرة ، تكتب الشعر الحر ، ولكنها حين تواجه موقفا أو مناسبة جليلة ، تكتب شعرا أصيلا فى مستوى الجلال ، إن الشعر الحر عندها ، تنفيس لعاطفتها وهذا من حقها ، كامرأة . تذكرت وصفا لتشيكوف قاله عنه تولستوى .. قال أن تشيكوف هو بوشكين روسيا فى النثر !!..

عاد الرفاعى يقول : ان الشعر الحر ، منثور إلى حد لا تجد خيطا يجمعه .. ويصل هذا الانتثار إلى درجة الانفلات فيكون شعرا منحلا ..

قلت: تذكرت عبارة جميلة لغادة السمان تقول: «إن غيابه، يغتال حضورى» ..

صاح الرفاعى وقال : هذا شعر منثور .. والسيدة غادة السمان يصل بعض ما تكتبه من نثر إلى مستوى هذا « الشعر الحر » !!

أكاد أحس أن الينبوع المتدفق للشاعر عبدالمنعم الرفاعي . الذى تنساب منه كل السواقي هو الألم!

قراءتي لديوانه « المسافر » تكشف عن ألم دفين . ومرارة تصاحبك طول التجول فوق أضلاع الحروف !!..

قراءتي للمسافر ، جعلتني أحس أن الألم جزء من شخصيته ومن ايقاع قلبه ودقاته .. ودورته الدموية !!..

عبدالمنعم الرفاعي يقول لي ان الشعر عندي فن حضاري .. اختيار الكلمة له أسبابه ومسبباته .. اختيار الجرس الموسيقي للكلمة علم كامل .. لماذا استخدم كلمة « أمسي » بدلا من « أضحي » القصيدة عندي بناء .

قاطعته : نوافذ ؟!

قال الرفاعي : سمعت نصيحة من شاعر عربي كبير (الأخطل الصغير) يقول لي : يا عبدالمنعم ، اجعل من بيتك الشعري ، بيتا تسكن فيه لابد من نافذة .. يدخل منها الهواء والأشعة والنور !!..

سألت الشاعر: من هو والدك الروحي ؟

قال بصوت متهدج : ابني عمر .. جعلني شاعرا .. أما الشعراء الذين تأثرت بهم .. فأنا اعترف لك أني تأثرت بالمتنبي ، وتأثرت بشوقي ، واستمتعت وأحببت شعر بشارة الخوري ولهذا أنا أعتبر نفسي حتى الآن ، في مقاعد المستمعين !!..

قلت للرفاعي: هذا تواضع !!

قال : هذا تقرير واقع بدليل أن المتنبي أعطاني « كبرياء الشعر » واستهانته بكل ما حوله .. شوقي أعطاني « الأفق المديد » ..

المرأة عند الشاعر عبدالمنعم الرفاعي .. هل هي مثلما قال أرثر ميللر « أضخم مصنع للأوهام يمكن تصوره » ؟

الرفاعي يقول : المرأة عندي هي مصدر الوحي للشعر .. أنا مثلا أعجبت ذات يوم بانسانة وكان ذلك في القاهرة .. نظمت من أجلها عددا من القصائد ، وكانت تحب شعري وتتعلق به .. اختلفنا ذات مرة .. وكان الخلاف محتدما .. فقلت لها بغضب « تذكري أنني أعطيتك هذا الشعر » فأجابت بنفس الغضب « بل تذكر انني أعطيتك هذا الشعر » .. والحق أقول لك انها أصابت الحقيقة .. فالمرأة وقود الفنان .. أنا لا أنظر للمرأة « التكوين » ولكن المرأة « الجمال المعنوي » .. المرأة عندي « مصدر للفتنة » ولا أنظر إليها كمطمح للامتلاك ولهذا عرفت الكثيرات وأحببت الكثيرات ولم أتزوج سوى واحدة « السيدة نهلة القدسي » .. المرأة عندي ـ كشاعر ـ مسرح خيال .. وهذا يبدو واضحا في قصائدي .. ربما لم ينتبه النقاد لهذا لأن السياسة غزت دياري الشعرية .. ولكن القارىء لديواني يحس أن وراء الحروف . وهج حب كان !!..

قلت للرفاعي: وهج حب كان ، وأنات ألم مازال مصاحبا لروحك !! ابتسم الرفاعي لأول مرة ..

وقال : هذه حقيقة من الحقائق .. الألم عندي يكمن مستترا أحيانا ويفصح عن نفسه أحيانا أخرى ..

سألت عبدالمنعم الرفاعى : أنا لا أصادر « الألم » عندك . ولكن بودى لو أتمشى قليلا فى رياض نفسك .. وتتوقف أمام أول شجرة ألم ..

قال : أنا أحب الألم .. أنا أرى أن الألم هو الوقود المطهر للنفس والمؤجج للاندفاعات .. الألم هو العنصر الذى لا تعتريه الشبهات .. هو البراءة المطلقة والطهر .. وإذا أردنا أن نبسط ذلك ونحوله إلى ترجمة كيميائية .. النار التى تحرق هى التى تصهر وتطهر .. الألم يصهر العواطف ويذيبها فى بوتقة واحدة .. ولكن فى حياتى العملية كانت هناك مصادر للألم ..

عاد يقول : « انفصالى العائلى كان بداية هذا الألم أو قمته .. وكان يمكننى أن أتغلب عليه وأعبره ، لولا أنى كنت أرتاح لاستمرار شعورى بالألم .. أليس هذا تناقضا ؟! أحببت لمشاعرى أن تظل تتذكر هذا الألم وتحيا فيه ويحيا فيها .. وتستأنس بهذا التفاعل المرير .. ممكن بلغة الإنسان العادية أن تسمى هذا وفاء ولكنه هو الالتصاق بالحقيقة .. الألم أكثر الحقائق قيمة عندى ولهذا فأنا أحب الألم وأحترمه وأحب أن يكون رفيقا لى .. بعض الذين عرفونى يقولون الرفاعى هو « الألم المحبب » .. كان يقول الآخرون « أبو عمر ، من يقرأ قصائده يرفه بها عن ألمه » !!!

□ من يقرأ قصائدى يرفه بها عن ألمه

□ الشاعر المسافر: أحب الألم وأحترمه !

قلت للرفاعى : كان كامل الشناوى يتألم .. كان الألم يصدر رائحة فى قصائده ..

قال : هذا صحيح ، ولكن الألم فى قصائدى ، دفين والألم عند كامل سافر « والداء أقتله دفينه » !!

هل اكتملت اللوحة التى أحاول أن أرسمها للشاعر العربى عبدالمنعم الرفاعى ؟
هل استطعت أن أقدم بعضا من ديوان حياته ؟

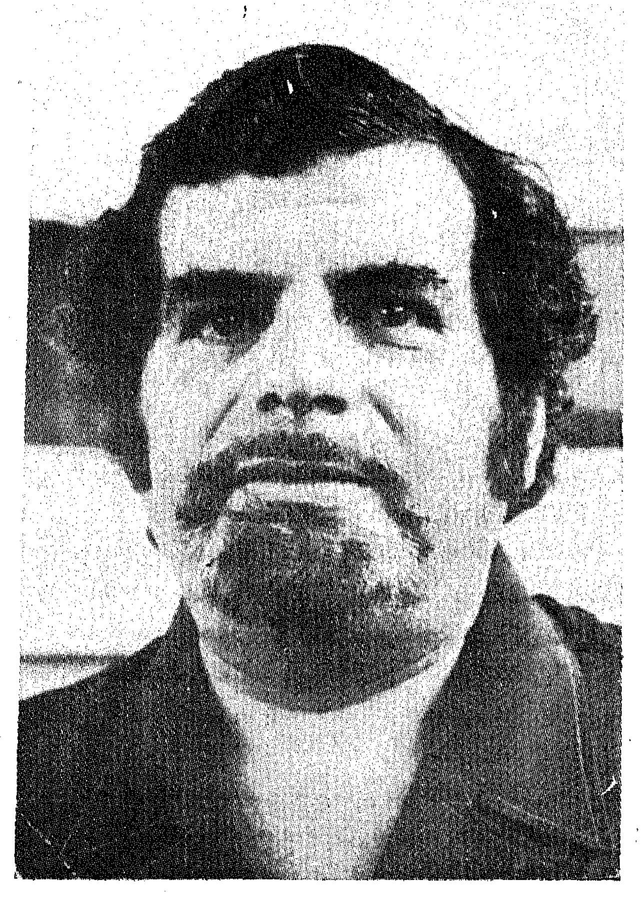
لقد قال لى : وأنا أودعه . « لو خيرت أين أعيش من أجل الشعر وحده لاخترت القاهرة مهبطاً لأشعارى ..»

وقال لى « فى ديوان المسافر ، أيها المسافر للقاهرة قف عند قصيدتى عن مصر . والنهر الخالد ، وعيون الصبايا ، وعبق الزمن ، ومآذن الحسين » ..

وقال لى : « فى ديوانى المسافر ، أيها المسافر من عمان غدا .. تمهل وأنت تقرأ قصائد ، يلسعك فيها ألم إنسان .. صاغه شعرا ..

بين كثبان الألم .. وشطآن الأمل ، يقع قلب الشاعر عبدالمنعم الرفاعى !!

* * *



شاعرية الحديد صلاح عبدالكريم

« أبى اسمه الصبر ،
وأمى اسمها الصدفة ! »

□ الرجل الذى يستقبلك على باب كلية الفنون الجميلة بمناسبة احتفالاتها باليوبيل الماسى حتى منتصف يناير ٨٤ فنان كبير .. اسمه صلاح عبدالكريم وهو عميد الكلية وله ٤ وجوه !

لابد - للأمانة - أن أسجل « اعترافين » قبل محاولة نحت تمثال بالكلمات .. لهذا الفنان المثال !

الاعتراف الأول : أننى حين رأيته لأول مرة وجلست معه ، شعرت اننى أجلس - عفوا - مع أحد مساعدى هتلر ! إن نظارته السوداء القاتمة التى يختفى وراءها وذقنه الصغيرة السوداء التى تتخللها شعيرات بيضاء ، أعطتنى انطباعا بعدم الراحة ، وأغرت خيالى المتوثب باستعارة معنى « النازية » !

الاعتراف الثانى : إنه حين انضم لمجلسنا رفيقا جيله « حسن فؤاد وجمال كامل » وحدثانى عنه ، ازددت حيرة وكبر اللغز ، ووجدت نفسى أمام إنسان يجمع كل المتناقضات الحادة . الطيبة والقسوة ، الرقة والعنف ، التواضع والغرور ، البساطة والدهاء .

وجدت نفسى أمام إنسان يخاصم « الوسط » فى الأشياء ، وزارنى احساس بأننى أتقاسم حوارا مع طفل كبير « يجرب » كل شىء فى الحياة ، ويطلب منا أن نصفق له ونكافئه بقبلة !

... ...

... ...

وكنت قد سألت عنه - كعادتى - حين أفرد شراعى وأزمع الابحار فى حياة إنسان !

سألت عنه ثلاثة يعرفونه عن قرب :

١ - سألت أستاذه « بيكار » ، وقال لى بالحرف الواحد إذا ذكرت اسم « صلاح عبدالكريم » يتبادر إلى الأذهان صورة أربعة فنانين يحملون نفس الاسم فهناك صلاح عبدالكريم المصمم المزخرف ، وصلاح عبدالكريم المصور ، وصلاح عبدالكريم المثال ، وصلاح عبدالكريم الخزاف . وإذا أردت أن تحدد موعدا مع هؤلاء الفنانين جميعا فى ساعة معينة ومكان معين ، فسيدهشك ألا تجد فى استقبالك سوى شخص واحد يأسرك برقته وبساطته وشدة أدبه وتواضعه . وستدرك بعد أن تلتقى بهذا الشخص انك فى لقاء مع الفنانين الأربعة ! فليس صلاح عبدالكريم سوى أربعة فنانين كبار مجتمعين فى شخص واحد ، فهو كالجوهرة المتألقة لا يمكن النظر إليها من جانب واحد !

٢ - سألت عنه الأستاذ يعقوب الشارونى ، الناقد المتخصص ، فقال « أنت أمام فنان قضى على عبادة الرخام والجرانيت والحجر الجيرى وغيرها من الخامات التقليدية لفن النحت وأوضح للمثالين اننا نمر بمرحلة تصنيعية قوامها الحديد والصلب ، فلا أقل من أن يتجاوب فننا مع هذا التحول الجديد فى حياتنا مؤكداً عصر الصناعة الذى نعيشه !

٣ ـ سألت عنه الفنان صلاح جاهين ، فرد برباعية تقول :

فيك يا حديد روحانية
ان كنت مسمار والا فاس ..
ان كنت مفتاح والا بريمه ..
ان كنت سيف والا ابره ..
ان كنت محرات ..
ان كنت مشبك شعر
ان كنت مروحة موتور
ان كنت مطرقة ..
ان كنت سيخ
ان كنت جنزير خرده فى التراب
فيك روحانية ..
عشان ما بين الرب والحديد
فيه ابن آدم ...!!
... ...
... ...

يسكن صلاح عبدالكريم فى شارع يحمل اسما غريبا ، ومغرورا . شارع « ابن النبيه » فى الزمالك ! خلف شارع أبو الفدا الذى كان من أبرز سكانه المرموقين ، الغائبة ، الحاضرة : أم كلثوم !

أعطتنى نظارة الفنان صلاح عبدالكريم القاتمة ، شعورا بأنه انسان متشائم ، وتمنيت لو يخلعها وأنا أحاوره ، وقلت لنفسى معزيا « لقد أعطى المتفائلون الأحلام الجميلة وأعطى المتشائمون الحضارات والفلسفات والاحتجاج » !

وقال صلاح عبدالكريم وأنا أفكر معه بصوت عال :

التفاؤل ، استسلام ، والتشاؤم تحد !

ولما قلت له : أهذه دعوة للتحدى ؟

قال : بل لليقظة فى عالم يدوس النائمين فى وداعة !

ولما قلت له : لكن التفاؤل قيمة .

قال صلاح عبدالكريم : الاحتجاج أكثر تفاؤلا !

ولما قلت له : ماذا قصدت بالاحتجاج ؟ قال : استشراف المستقبل ! وقلت له : يوما ما ـ فى الماضى البعيد ـ كان الاغريق يتسلقون الأسوار العالية ليروا الأفق البعيد !

قال « الفنانون صلاح عبدالكريم » كما يسميه بيكار :

لست فى حاجة ـ اليوم ـ إلى تسلق الأسوار العالية ، فالفن يفتح لك باب الافق البعيد ، والعلم يحملك إلى الغد بسهولة !

... ...

... ...

قلت لصلاح عبدالكريم : حين أبحر بقاربى المتواضع فى حياة انسان ، أتوقف كثيرا عند مرفأ الطفولة ، ربما لأنى أشعر أنها « المشتل » الأول .

قال الفنان الكبير : المشتل عندى كان الفيوم ، فأنا من مواليد سنورس ، وأبى كان مهندس الرى فى الفيوم ، وأول صورة يعيها وجدانى ، صورة « وابور الثلج » ، ماء من صهريج ينتصب فى قلب المدينة ، يتحول إلى قوالب ثلج بعد عدة مراحل . كان هذا المشهد يثير اعجابى ، لست أدرى السبب !

وأقاطع صلاح عبدالكريم بملاحظة : ان وابور الثلج هو أول « نحات » يستولى على دهشتك فى الطفولة ، إنه ينحت القوالب بمهارة من .. الماء !

ويضحك صلاح عبدالكريم كالأطفال وكأنى كشفت له سرا غاب عنه !

ويعود ليحكى عن المشتل !

« أتذكر جيدا المدرجات الخضراء ومنحدرات المياه ومزيكة البوليس فى منتزه فاروق وخرير السواقى وشدوها الجميل ، وأطفال صغار يستحمون فى الترعة ويتسابقون ليحصلوا على كرات الثلج الصغيرة . وطفلة بضفائر تقضم قطعة من البطاطا ، وعيناها تضحكان ! » كل هذه الصور حاضرة رغم الزمن البعيد ، وكنت أتكىء عليها أيام الضيق ، فتفرج عن كربى .

... ...

... ...

ومثلما توقفت عند الطفولة باعتبارها « المشتل » ، أتوقف عند « الأستاذ » الأول الذى يصادفه الانسان فإما أن يفجر طاقاته أو « يكسر مجاديفه » ! وفى حياة صلاح عبدالكريم كان الأستاذ هو .. بيكار .

يصفه صلاح عبدالكريم فيما بعد « لقد كان رجلا مدهشا ، فهو الذى أدخلنى عالم الفن . يعزف الموسيقى ويعلمنى العزف ويرسم المدرسين ويتيح لى مصاحبته ومعاونته أثناء عمله » .

يقول لى صلاح عبدالكريم : كنت تلميذا فى مدرسة قنا الثانوية حين عرفت

الأستاذ بيكار . وضمنى إلى جمعية الرسم حين اكتشف بحسه الذى لا يخطىء موهبة الفن الراقدة فى أعماقى . وكانت نبوءته صحيحة ففجر طاقاتى حقا ، وأطلق عنان خيالى وجعلنى أعشق الألوان حتى إننى يوما ما صرت « امبراطور الألوان » كما يطلقون على !وصار قلبى يدق كلما لمحت فنانا وفرشاة زيت ولوحة !رسمت مرة وأنا تلميذ بائع العرقسوس وقرأت فى عينى الأستاذ الاعجاب فأحسست أن سفينة حياتى سترسو على شاطىء الفن .كان بيكار « الركيزة » الأولى فى حياتى .وقد بلغ من حبى للرسم أنى صرت أنجح فى مادة الرسم بتفوق وأرسب فى بقية .. العلوم !

□ واكتشف صلاح عبدالكريم شاعرية الحديد !

وانفجرت فى الضحك ، فتوقف صلاح عبدالكريم وسألنى .. لماذا ضحكت بشدة ؟

قلت .. لأنى . وأنا تلميذ فى الثانوى . كنت أنجح فى كل العلوم وأرسب فى .. الرسم ! واستطردت أقول .. لأن مدرس الرسم لم يكن « بيكار » . كان نسيم أفندى وكانت مدرستى . مدرسة بنى سويف الثانوية . تعمل ألف حسب لنسيم أفندى . كان قاسيا ويعتبرنا « عيال نضيع وقته » ! لم يكن يحب التدريس ! كان يشعر أن بقاءه فى المدرسة مأساته فى الحياة ، وانعكس هذا علينا نحن تلاميذه . رسبت لأنى رسمت إبريقا وكوبا تحت مستوى النظر وكان السؤال يقول .. ارسم فوق مستوى النظر ! وكرهت مادة الرسم ، ثم بدأ ذوقى الفنى يعود إلى طبيعته على أيدى فنانى روز اليوسف ! ومازلت حتى الآن إذا أردت أن أرسم وجه رجل ، كتبت كلمة « ملح » ، وأكملتها من خيالى !

وضحك صلاح عبد الكريم من قلبه وقال .. انه « الأستاذ » الأول الذى تقابله فإذا سخر منك ، حطم أحلامك وإذا أخذ بيدك ، أعطاك الجريان للنهر !لقد التقيت ـ بعد بيكار ـ بالأستاذ حسين يوسف أمين الذى كان يطلب منا أن نرسم بالزلط ، فرسمت وقلت لنفسى ، لو طلبوا منى أرسم بالحديد لفعلت ، ويبدو أنها لم تكن نكتة لأنى صادفت « الحديد » فى مشوار عمرى ، وتحاورنا . وكان عنيدا ، لكنه بدأ يلين ، وأعطانى الاسم والشهرة واكتشفت فيه شاعرية غريبة ، وروحانية أظن أن صلاح جاهين حدثك عنها !!

... ...

... ...

وتمضى حياة صلاح عبدالكريم فى « مجراها » الطبيعى يدخل كلية الفنون الجميلة . « كانت الحضن الحقيقى لى » . ويتخصص فى الديكور .. « كنت أحس أنه هيكل المعمار الجميل فى أى شىء » . ويتخرج بامتياز مع مرتبة الشرف « إننى أمنح الخامات التى اشتغلت بها هذه الشهادة ولست أنا » . ويعين معيدا بقسم الديكور . « كنت أحلم أن أسقى تلاميذى شهد الفن ، فهل استطعت ؟» . ويفوز بجائزة الدولة ويسافر فى بعثة لمدة خمس سنوات إلى باريس .. « مدينة لونها لبن فى لبن .. بيضاء كالثلج وقلبها دافىء كالجمر » . ويتتلمذ على يد الفنان العالمى كاسندر .. « علمنى ما هو كبرياء الفنان وكيف يكون التحدى بين الفنان والخامة » ثم يدرس فن الديكور والمسرح والاعلان .. « كنت أحس أن الدراسة تشحن عروقى بالعمل وكنت أؤمن أن أوربا للعلم وليست للهو » . ثم سافر صلاح عبدالكريم إلى روما وحصل على الدكتوراه من المعهد التجريبى للسينما .. « المعاهد التجريبية فى أوربا تحنو على خيال التجارب التى هى جنين أى ابداع راق » . ودرسَ فن الخزف على الأستاذ العالمى ميلى . « عزفت

على أوتار لم أعرفها بعد ولم يكن عزفى نشازا » . ساهم صلاح عبدالكريم فى إنشاء قسم الديكور بالمعهد العالى للسينما .. « كان مهما أن تصب خبرتى فى بلدى ..» . وكان أستاذا غير متفرغ بالمعهد العالى للفنون المسرحية .. « انى أعتقد أن الديكور جزء مكمل من إبداع العمل المسرحى » .

واستطاع صلاح عبدالكريم أن ينتزع اعترافا عالميا بقدرته على تشكيل تكوينات نحتية من الحديد فحصلت على ميدالية الشرف الدولية لفن النحت .. « كان الحديد بالنسبة لى تحديا . فهو خامة لا تلين بسهولة » . وفى عام ١٩٦٣ صدرت الموسوعة الفرنسية لاروس وقد سجلت صورة تمثال صلاح عبدالكريم « صيحة الوحش » من الحديد فى الجزء الثالث منها .. « يومها كدت أبكى . فأنا حصلت على أكثر مما استحق » وفى مجال التصوير فقد حصل على جائزة سان فيتو رومانو الدولية .. « هل تحس بلدى بهذا النجاح . اننى أتساءل دائما » . وحصل صلاح عبدالكريم على جائزة مرموقة فى تصميم مدخل مدينة العاشر من رمضان .. « ان للمدن طعما ويجب أن يساهم الفنان التشكيلى فى تجميل المدن بقاعدة وليس باجتهاد ساذج » . وحصل صلاح عبدالكريم على وسام الاستحقاق للعلوم والفنون .. « هذا الوسام أمنحه لاصرارى الذى لا يلين كالحديد تماما » . ثم حصل على جائزة الدولة التشجيعية عام ١٩٦٥ ثم الشهادة التقديرية عام ٧٩ .. « أخيرا ، عرفت بلدى حجم جهدى » .

وأعمال صلاح عبدالكريم فى ديكور العمارة الداخلية للفنادق تحمل اسمه .. فندق فلسطين وفندق إيتاب بالأقصر وأجنحة مصر فى المعارض الدولية .. « كان الديكور حيا ، فسقيت به الفنادق » .. ومما يذكر لصلاح عبدالكريم تصميمه ديكور ٧٠ عملا مسرحيا .. « ان حبى للمسرح يفضحنى حين أبيت الليالى أنسج هذا الديكور » !

... ...

... ...

حسن فؤاد يتكلم . تسلل صوته هامسا ثم أفصح عن نفسه ، حين أصغينا له . وكان الكلام -عن صلاح عبدالكريم- وموجها لى .. ولكم !

قال حسن فؤاد .. « من الممكن أن تقول ان صلاح عبدالكريم . رغم أنه عاش سنوات طويلة فى أوربا لكنه من أكثر الناس اللى « راحوا أوربا واشتغلوا » ، بمعنى أنه فى أوروبا ، كان ينتج ويرسم وينحت ويعمل .. لذلك فهو متعدد المواهب .. على عكس شبان فى مثل عمره لما يروحوا أوربا يستمتعوا بالحياة .. الموقف بالنسبة لصلاح هو العمل الدءوب المستمر .. الحرفية التى يعمل بها صلاح عبدالكريم تفوق بها على كل من حاول اللحاق به .. إن الينابيع التى أعطت صلاح عبدالكريم هذا التدفق لم ولن تجف .. وردا على سؤالك ، ما هى ينابيع صلاح عبدالكريم ؟ أقول لك استنتاجا ، ان صلاح ابن بيئة فنية دؤوبة فى الفن .. فنحن فى طفولتنا لابد أن نرث الصفات من أهلنا .. ليس بالضرورة أن تكون القرابة الأولى ، كالأب والأم أو العم .. إنما لابد أن يكون هناك من يملكون قيم التفانى والعمل .. ذلك أن صلاح عبدالكريم تميزت أعماله بالتفانى والجهد المخلص الصبور فهى أعمال صعبة فيها لهب .. ويكفى أعماله بالحديد .. لقد دفع ثمن هذا الحب غاليا من نور عينيه إذ تطايرت شرارة لهب وهو ينحت

تمثالا !.. إنه يعمل بجنون .. أو مجنون بعمل ما .. فهو يعطيه عمره ... وليس بعض الوقت .. وهذه صفات ورثها صلاح عبدالكريم وآمن بها .. فأعطته ومنحته ورأى حصاد الجهد، تذوق الثمرة الشهية لفلاحته في أرضه الخصبة المعطاءة .

وقال صلاح عبدالكريم يعلق على رأى حسن فؤاد .. انه العشق يا أبو على ! لخص الفنان الكبير حبه وهواه للفن بعبارة واحدة من كلمتين : إنه العشق .. وقال حسن فؤاد ـ إنك ماهر في دفع صلاح عبدالكريم للكلام انه صموت ولا يتكلم كثيرا وهذه سمة الفنان الدءوب المخلص للفن .. إن حواره مع الخامات التى يتعامل معها أكثر ثراء من حواره مع البشر . إنه ثرثار مع الألوان ، مع الورق ، مع الخشب ، مع الحديد !!

وأضاف صلاح عبدالكريم ، مع التشريح ، مع التحنيط لقد كنت وأنا تلميذ أذهب لاصطاد ٣ كيلو من الحشرات والعناكب وكنت أتعرض للموت ، وكان لى غرفة أربى فيها هذه الكائنات الحية وأراقبها وأفحصها وكنت أحيانا أراها بالعدسات المكبرة وأرسمها وعندما تموت أشرحها وأحنطها واحتفظ بها . كانت بالنسبة لى مدرسة !!

وعاد حسن فؤاد يقول ـ هل رأيت في حياتك فنانا « لا يعرف المستحيل » ويستفيد من الكائنات الحية حتى ولو كانت حشرات ، ويستفيد من الجماد حتى ولو كان الحديد .. ان كل شىء عنده له معنى .. إنه يستقبل « العالم » بفرحة ويستقبل كائنات الدنيا بمتعة .. انه « التآخى » الإنسانى بينه وبين حيوان أو نبات أو جماد !

وأسأل صلاح عبدالكريم عن الحديد . عن أغرب علاقة بين فنان وجماد .. عن هذه الشاعرية التى أحسها في الحديد . ونادته ، وغازلته ، فاستجاب لها ! إن أشياء قليلة تجعل حياتنا محتملة .. وتسبغ عليها جمالا ومعنى أشياء كالصداقة والحب والفن والقراءة والعمل .. لكن صلاح عبدالكريم يشعر أن أشياء أخرى تعطى لحياته معنى . كالورق والخشب والخزف والحديد .. والمرأة ! وصحيح أن الأيام نكتة جادة تتكرر كل صباح ، ولكن صلاح عبدالكريم يهرب من دنيانا الجادة « الماسخة أحيانا » إلى دنيا صامتة تحتويه كالحديد ، فكيف كانت علاقتهما معا ؟

يحكى لى صلاح عبدالكريم ـ فى حوش الفنون الجميلة ، بدأت القصة .. وجدت ورشة حدادة صغيرة وأمامها كمية كبيرة من الخردة الملقاة .. شعرت أن الخردة تناديني .. كان اغراؤها أكبر من أن أقاومه .. عملت من الخردة سمكة كبيرة .. ورآنى « الأستاذ » بيكار وكان قد أصبح أستاذا في الكلية فقال لى .

السمكة دى رايحة فين يا عبدالكريم ؟!

قلت : ع البيت . دى محاولة .. يعنى كلام فارغ !

قال الأستاذ بيكار : دى مش محاولة .. ومش كلام فارغ .. دى تروح فورا على معرض سان باولو !

قلت : يا أستاذ بيكار .. دى حتة زخرفية للبيت !

قال بيكار باصرار غريب ـ دى حتة كويسة ، ومكانها مش بيتك

يا عبدالكريم . مكانها ، معرض عالمى !

يقول صلاح عبدالكريم : كدت أبكى ! هل أنا فى حلم ؟ ان الحلم إذا تحقق كالرغبة إذا شبعت والأحلام المستحيلة رغبات تتأجج كل يوم ، فماذا بعد ؟!

قلت لصلاح عبدالكريم.. وماذا بعد أن شحنت قطعة الحديد؟

قال .. فازت بجائزة الشرف الدولية فى النحت .. حسيت أنى كسبت ورقة يا نصيب بمائة الف جنيه !

تسلل صوت حسن فؤاد ، فأصغينا . قال يوجه الكلام لى .. ولكم ..

« أنا عشت هذه التجربة الفريدة لصلاح عبدالكريم فقد كسر صلاح التقليدية التى تميزت بها الفنون الجميلة سنوات طويلة طويلة .. وكان تعامل صلاح مع الحديد اتجاها مثيرا .. معناه الحاد .. نوع من الكفر .. خروج على كل القواعد الاكاديمية .. ولكنها كانت نقطة البداية فى نبوغه واسمه الكبير !

يقول لى صلاح عبدالكريم .. لم أصدق أن الحديد يعطينى بسخاء كل هذه النتائج فعملت قطعة عن المسيح وصيحة الوحش والتمساح والبومة والضفدعة وأبو جلمبو وكانت زوجتى الفرنسية ترافقنى فى كل صور كفاحى ونضالى .. وربما لأنها فنانة قابلتها يوما فى فرنسا فى أتيليه بول كولان وتبادلنا الاعجاب وتزوجنا ، فقد تعاطفت مع عذابى .. وضحت من أجل هنائها ، أن تسعدنى وأعطى اهتمامى للحديد فى أوقات كثيرة ، اقتربت منى !

... ...

... ...

ومثلما نحب القراءة ، فنتأبط الكتب .. أحب صلاح عبدالكريم خاماته ، وتأبطها بود لا مثيل له !

كتب له بيكار خطابا هاما ، يحتفظ به صلاح عبدالكريم ويعتبره وثيقة حب من أستاذ لتلميذه ، أستاذ له قيمة اكتشاف موهبة التلميذ فى وقت مبكر.

يقول بيكار..

لقد استطعت . يا صلاح . أن تغزو جميع مجالات الخلق والابداع من تصوير إلى تصميم زخرفى إلى إعلان إلى خزف إلى ديكور مسرحى وسينمائى وأن تطوع جميع وسائل التعبير التشكيلى من أصباغ وصلصال ومساحيق وعجائن.. وأخضعت أكبر المساحات وأضخمها للمساتك وانطباعات خيالك .. ولكن يبدو أنك فجأة وبلا مقدمات ... أحسست بحنين جائع إلى الصراع العنيف مع أشد الخامات عنفا وصلابة .. كان يراودك شعور بعدم التكامل .. يقلق بالك .. يهز كيانك .. لا يرضى طموحك .. أدركت أن معركة الخلق يجب أن تشترك فيها جميع حواسك وملكاتك حتى تكتمل كل مقوماتها .. وجدت فى النحت ضالتك المنشودة ومنافسك العنيد .. وقبلت التحدى بشجاعة ورجولة لقد جاء الجواب فى شكل أصداء خافتة تأتى من بعيد تحمل إليك هذا الجزء المثير من الآية الكريمة « وألنا له الحديد » وأخذت صورة « النبى داود » تتجسم أمام عينيك وتداعب خيالك وأنت تشكل الحديد بأناملك وتصنع الدروع والسيوف بمهارة صانع حاذق وفنان بارع وكأنك تتسلى بتشكيل قطعة من الصلصال اللين المطواع .. وشعرت

يا صلاح ـ بنوع من الظمأ القاتل يجفف حلقك .. ظمأ لا يرويه إلا ذوب الحديد ولسع الشرر .. فماذا فعلت ؟ هكذا يرد الفنان إلى المهملات اعتبارها ويعيد الحياة إلى الحديد والخردة وكأنها عودة الروح في عوالم علوية في هيكل أبهى ومقام أسمى ..»

وأسأل صلاح عبدالكريم .. ماذا قصدت بحيواناتك الحديدية ؟

قال الفنان الكبير .. لعل الناقد يعقوب الشاروني قد عبر عن قصدي بايجاز عميق فهو الذي يرى ويقيم . قال .. انها تعبر عن الاغتراب وعن الخوف من سرعة التقدم الصناعي المسخر للحرب والفناء وذلك بايقاظ الخوف الدفين في أعماق الإنسان منذ عصر الكهوف عندما كان الإنسان الأول يشكل الحيوانات المفترسة التي يخافها ويجسمها على جدران كهفه .

... ...

... ...

قلت لصلاح عبدالكريم .. هل حظ الاهتمام بالفن التشكيلي من قبل الدولة ، متعثر ؟

قال بشجاعة .. بعد أن تجد الدولة حلا لمشاكل مصر الموجعة ، تلتفت إلى الفن التشكيلي . الرصيف المخلع أولى بالاهتمام من لوحات فلان أو علان !

قلت لصلاح عبدالكريم .. يقولون أحيانا ان الفنانين الذين اشتغلوا في الصحافة ذهبت سنوات عمرهم سدى .

قال .. الفنانون دول أثروا الصحافة ، زي حسن فؤاد وأبو العينين وجمال كامل وراجي عنايت ومن قبلهم بيكار وعبدالسلام شريف .

قلت لصلاح عبدالكريم .. ماذا أعطى صلاح طاهر . للفن ؟

قال .. فن صلاح طاهر .. فن شخصي .. فنه هو . هذا الفن أعطاه لنفسه ..

قلت .. ما أكثر وجوه صلاح جاهين وضوحا .. الرسم الزجل .. التمثيل .. الغناء ؟

قال .. الرسم .

قلت .. لمن ترى « البورتريه » من فناني مصر؟

قال .. لثلاثة .. عز الدين حمودة وجمال كامل وصبري راغب .

قلت .. من يعجبك من رسامي الكاريكاتير؟

قال .. جورج راح فين ؟ جورج وحجازي واللباد ومصطفى حسين !

قلت .. هل تتبنى بعض تلاميذك ماديا ، كما سمعت؟

قال .. أحيانا ، ولكن أرجو ألا تنشر هذا فهو يخجلني !

قلت .. ماذا يمنح الفنان استمرارية الابداع ؟

قال .. التقدير هو أكسجين الفن !

... ...

... ...

جمال كامل يتكلم .. يأتي صوته مستأذنا في اقتحام آذاننا .. نصغي له !

يقول جمال .. « زمان ، حسن فؤاد كان رشيقا جدا وكان زعيما .. يعني عنده شخصية آمرة .. تعالوا يمين نروح يمين .. تعالوا شمال .. نروح شمال

عنده قدرة خطابية .. وكان أيامها فى الفنون الجميلة لنا مطالب كثيرة وكان حسن فؤاد هو « لسان » الكلية ومحركها ! وكنا نخرج فى المظاهرات من أجل مصر .. وكنا نرى أن الفن لا يجب أن يأخذنا من مصر .. السياسة .. أما صلاح عبدالكريم فكان كتلة من الدأب والتجارب .. كنا نحسده فلم يكن يعرف كلمة فراغ ! كنا نهمس أنه يعيش بقلب مؤجل لم يعرف الحب واللوعة والفراق .. ففى الوقت الذى يجلس الواحد منا ليخط رسالة لحظة الفراق .. يخطها فوق الورق وغالبا على قلبه ، يكون صلاح عبدالكريم يصنع تمثالا . باخلاص وصبر .. انه صبور بعنف .

وأقول لصلاح عبدالكريم وحسن فؤاد وجمال كامل . ما الفرق بين جيلكم وجيل هذا الزمان والفنون الجميلة تحتفل بعيدها الماسى ؟

رد صلاح عبدالكريم . هذا الجيل جاء للفنون الجميلة غصب عنه .. جيل غير عاشق للفن . رد حسن فؤاد . احنا كنا بنستعد سنة قبل دخول الفنون الجميلة .. نستعد بتنمية قدراتنا علشان ننجح !

عاد صلاح عبدالكريم يقول .. احنا كنا بنمتحن ٤ أيام !

قال جمال كامل .. أظن الامتحان دلوقتى ساعتين .. ويمتحنون ٦٠ ألفا !

قلت لصلاح عبدالكريم .. هل الرسم موهبة أم يمكن دراسته بالتدريب ؟

قال .. موهبة أولا وأخيرا .. وليس رياضة بدنية كالملاكمة بتدريب مستمر !

قلت لصلاح عبدالكريم .. ماذا أعطاك منصب العمادة ؟

قال .. جعلنى أحقق أحلامى .. القديمة منذ كنت طالبا .. يكفى أنه أصبح للكلية مدرجات نناقش فيها ما نطرحه للنقاش .. زمان ، كان الحوش هو المدرج وغير ذلك ، أدخلت « علوما » جديدة وأقساما جديدة تهم الطالب المتخصص .

... ...

... ...

سألت صلاح عبدالكريم عن الصداقة فقال لى .. « أن نجد أحدا فى الحياة نلقى له بحمولتنا الثقيلة من حيرة أو عجز أو حزن » .

سألته عن السعادة ، فقال لى « انها مقدار التوافق مع الظروف ومع النفس » .

سألته عن الذوق ، فقال « انه مرتبط بالمناخ العام .. والرخاء » .

سألته عن المرأة ، فقال « يجب أن يعاملها الفنان بحذر حتى لا تتكرر حكاية بيجماليون .. التمثال الذى تمرد على صانعه » !.

سألته عن القراءة ، فقال « انها كنز .. لا يفنى » !

سألته .. ماذا يطيل عمر الانسان .. فقال « الأحلام قبل .. الصحة » .

سألته .. متى عرفت طعم الوحدة ، فقال « وأنا فى مستشفى أسبانى أعالج عينى .. وفوقهما ضمادات طبية وأربطة ثقيلة » !

سألته عن فنانات مبدعات ، فقال « جاذبية سرى وتحية حليم وزينب عبدالعزيز وليلى عزت » .

قلت للفنان صلاح عبدالكريم .. ماذا كنت تفعل لو أنك لست فنانا ؟

قال بسرعة .. كنت اتجهت إلى الأرض واشتغلت مزارعا !

سألته .. لماذا ؟

قال .. لأن الأرض تعطيك بالمثابرة والاخلاص و الصبر ثمرة عرقك وجهدك .. وأنا ـ مثلما عبر عنى جمال كامل ـ أشكو من قصر ساعات اليوم !

قلت .. قدم نفسك لى ..

قال .. أبى اسمه .. الصبر .. وأمى اسمها .. الصدفة !

بُلند الحيدري

« الشاعر المزيف ، أوجد
الناقد المزيف »

الحوار مع شاعر كبير ، يتطلب الكثير !
من الضرورى ، بداية ، التعرف على قصائده والسكنى فيها .. ان أمكن !
من المهم ، التحرى عنه انسانا ، وإلا كان اللقاء به .. كالابحار بلا شراع !
من المفيد الاهتداء ، برأى النقاد فيه ، فالنقد الجاد ، اعادة اكتشاف للمبدع .
من الواجب الائتناس بنظرة رفقاء جيله له ، ان كان هذا متيسرا .
من الانصاف ، الخضوع لنزواته المشروعة ومزاجه المتقلب ، فهو شاعر وليس موظفا فى مرفق حكومى . وهذا المزاج - مهما كانت درجته - جزء من نسيجه الانسانى ، وربما كان المحرض على الشعر !

....

بأمانة شديدة حاولت أن أطبق النقاط الخمس على الشاعر العراقى الكبير « بُلند الحيدرى » الذى كان فى العاصمة الأردنية عمان ضمن وفد شعراء العراق لمهرجان جرش . حين سألت عنه تليفونيا فى الفندق الذى يقيم فيه .. لأحدد موعدا ، جاءنى صوته المهذب والآسر فى نفس الوقت . قال لى انه يحب أن يرانى قبل أن يحدد الموعد لأنه لا يرحب بلقاء انسان ملثم . وصحح لى طريقة نطق اسمه . قال ان الباء بالضمة وليس بالفتحة !

وقبل أن أذهب للتعرف عليه ، ذهبت أبحث عن مجموعته الشعرية الكاملة . وقضيت معها ثلاث ليال متواصلة ، وأعترف اننى فى البداية لم استوعب أبيات الحيدرى لأنها - على حد قول الروائى الناقد جبرا ابراهيم جبرا - « ليست سخافات مقفاة » . ثم « عاشرت » القصائد بتركيز شديد ، فدلفت الى رأسه وأظن اننى وضعت قدمى على عتبة عالمه الشعرى الفسيح .

« على عالم نصفه ميت
فتحت عيونى وأغمضتها »

هكذا يقول بُلند الحيدري «بضم الباء»!
وقابلت الشاعر عبدالوهاب البياتي في جرش في مدرج ارتيميتس حيث يلقي الشعراء قصائدهم. وسألته عن رفيق جيله بلند، فقال أنه «شاعر مبدع في أساليبه الجديدة التي حققها وفي طريقته التي لا يقف فيها معه إلا شعراء قلائل من العراق».

وصارحت البياتى بإحساسى الأول عن قصائده. فقال ان فن بلند برقى ، مكثف الاحساس ، أنه فن صعب ، والفن الصعب فن جيد تشم فيه رائحة الابداع .

وقال لى البياتى ـ الذى تربطنى به صداقة ولدت ذات ليلة فلامنكو أسبانية ـ ان بلند يعيش الآن فى لندن .

وعثرت على رأى للشاعر الراحل بدر شاكر السياب فى كتاب (أصوات من العراق) يقول عن بلند الحيدرى ان « قصائده الرائعة أكثر واقعية من مئات القصائد التى يريد منا المفهوم السطحى ان نعتبرها واقعية ..» .

وكنت أتناول الغداء مع الأستاذ الدكتور محمود الشلبى أستاذ اللغة العربية فى جامعة اليرموك ورئيس لجنة الشعر فى مهرجان جرش ، حين جاءت سيرة بلند الحيدرى فقال : لعل ما كتبه الصحفى الانجليزى الباحث دزموند ستيوارت بعد أن قرأ أشعاره مترجمة يجيب على تساؤلك : « ما يميز بلند الحيدرى عن شعر معاصريه ، ان قصائده تنفذ الى صميم فكر قارئها حيث تبث جذورها لتثمر بعد حين . انها قصائد صادقة بعيدة عن المبالغة وعن الشعور المصطنع . انه يعبر عن الشعور بالخيبة الذى يمتاز به العصر الحديث ، وهذا التعبير هو أصدق من قصائد الحماسة المتعمدة التى ينظمها الشعراء السياسيون » .

وعكفت على دراسة للناقد جبرا ابراهيم جبرا وكان يقول عن بلند الحيدرى « ان قصيدته لن تستطيع أن ترفع منها بيتا واحدا من مكانه دون أن تترك فجوة ظاهرة فى المعنى والتركيب » .

وذهبت أراه فى مدرج أرتيميتس بجرش قبل موعدنا الذى حدده . شعرت انه « سفر تجارب » . رأسه الكبير ، رأس طبيب جراح ولا أدرى لماذا أعطانى هذا الانطباع . هل يشبه جراحا كبيرا .. أعرفه ؟ ربما !

وأنا أستمع لقصيدة من قصائده ، خيل الى انه يقدم سيناريو لحادثة موزونة .. الكلمات مداليل للأشياء فى ذهنه .

صحيح فاتنى فهم بعض ما يقصده ولكنى تذكرت قول الأب بريمون (لا حاجة لفهم الشعر فالسحر المنبعث من موسيقاه يغنى عن هذا الشعر ..).

القصيدة عند بلند الحيدرى لا يقوم جمالها على الانسجام الصوتى المجرد والحذر الناجم من تناسق الألفاظ أو جرسها كما هو الحال عند نزار قبانى أو سعيد عقل . القصيدة عند الحيدرى مشبعة بصدق الانفعال وممتلئة بحقائق الوجود . واكتشفت شيئا غريبا انه من المهم أن أتعرف على الشاعر وهو فى حالة « نزيفه المستحب » أى قراءته لقصائده كما يسميها نزار قبانى . اننى لا أستطيع أن أفصل بين الشاعر المسكون والشاعر الحركة !

صباح اليوم الذى سألتقى بالشاعر بلند الحيدرى فيه ، كان صديقى شاعر الأردن حيدر محمود يقول لى ـ هاتفيا ـ انه قرأ عبارة جميلة للناقد جبرا ابراهيم جبرا يقول فيها عن الحيدرى « فى صباه ترك المدرسة ليتمرد عن طريق الشعر وبينما راح أقرانه يدرسون الشعر فى الجامعة كان هو من الشارع والمقهى يلقنهم طرائق فى التجديد لا تعرف عنها الجامعة شيئا » .

وهأنذا أجلس مع الشاعر بلند الحيدرى وكعادتى أتسلل الى حلبة الحوار بنعومة شديدة تجعل الحوار قصة حب .. على حد قول غادة السمان !

وكلما قابلت عراقيا تغنيت بحبى لناظم الغزالى ، مغنى العراق الراحل ، غير ان بلند الحيدرى . فى أول لحظة . صفعنى برأيه فى ناظم !

□ لا أحب صوت ناظم الغزالى ولا طريقته !

قال وهو يشعل غليونه .. لا أحب صوت ناظم الغزالى ولا أداءه . ربما كان له فضل ايصال الغناء العراقى الى خارج العراق فقط . ولكن فى العراق مغنون أفضل منه حنجرة وأداء !!

ولذت بالصمت !

قطعت الصمت بسؤال عن معنى كلمة « بلند » .

فقال : معناها فى اللغة التركية والكردية : عال . وهذا اسم شائع فى تركيا .

قلت مداعبا « أنت عالى المقام .. كشاعر » .

قال : « الشاعر بقصائده ، بعطائه ، بخصوصيته » .

قلت لبلند الحيدرى : من قراءتى لبعض قصائدك شعرت بالمعمار الهندسى فى التركيب ، كأنك تلعب الشطرنج بمهارة !

فأجانى بقوله : « ربما لا تعرف أن الشطرنج من هواياتى ..» .

قلت له .. حاورت مرة الروائى فتحى غانم وهو لاعب شطرنج ماهر .. ووجدت نفسى أطرح السؤال بصور متعددة فإذا أفلت من سؤال وهرب من الثانى ، وقع فى فخ الثالث !

قال بلند الحيدرى : الشطرنج رياضة ذهنية ، ولكنها ليست اسلوب حياة . السياسة أيضا من بعض هواياتى ولكنى أعترف بأنها هواية خطرة !

لا أدرى لماذا ربطت بين الشاعر العراقى بلند الحيدرى والشاعر التركى ناظم حكمت فى هذه اللحظة ! هل هو تداعى معان ؟ ربما ! لكنى وجدت نفسى أدخل حلبة الحوار !

....

قلت للشاعر بلند الحيدرى : حين كنت أقرأ ديوانك ، خيل الى انى أقضى وقتا بين أسوار سيرتك الذاتية !

قال : نعم ، من الممكن القول ان شعرى « تاريخ خاص » لى ، فالعديد من قصائدى تحمل اشارات الى ظروف معينة مررت بها ومرت بى !

قلت : أريد شهادتك على شاعر اليوم فى الوطن العربى .

قال بلند الحيدرى : جيل الريادة الذى بدأ ببدر السياب وزملائه فى تجربة الحداثة مازالت تتواصل معه الأجيال التى تلته وطورت فيه وأضافت اليه ، ومن شتت به التجارب بعيدا عن ذلك ضاع فى متاهة وفقد خصوصيته وتميزه وصار شعره هذيانا وصورا متدحرجة على غير طائل !

قلت : هل استطاع الشعر أن يقف على قدميه فى زمن التكنولوجيا ؟

قال : ذات مرة قال اليوت ان الشاعر سيوضع يوما فى حدائق الحيوانات وقال غيره بل فى المتاحف القديمة والحقيقة ان الشاعر مازال حيا وان خفت صوته فكل عصر له ما يميزه فى الملحمة أو الرواية أو القصة القصيرة أو المعلقة ولما كان الشعر

هو الأساس فى أى جهة ، فى القصة أو الرسم أو النحت أو الموسيقى والعمارة فهو بلاشك باق فيها وباق ضمن سمات متنوعة أو متوحدة فى العمل الشعرى ، فلا خلاص من الشعر وعلى الأخص عند الانسان العربى الذى نما عليه وشبت عليه حضارته !

قلت : هناك شعراء حولك أريد أن أعرف كيف تراهم : البياتى ، نزار قبانى . عبدالمعطى حجازى . صلاح عبدالصبور ، وأرجو ألا تهرب من الاجابة !

قال : بل سأهرب مع سبق الاصرار ، فكل منهم شاعر كبير وله ما يميزه فى خاصية تعاطف معها مريدوه فأقاموا منها منحنى وأعنى تجربة الحداثة الشعرية فى الوطن العربى واذا كانت محاولاتى فى الشعر تقترب من محاولات أحدهم أو تبتعد فذلك لا يخولنى أن أكون فى موقف الناقد منها .. بل فى موقف من يحترم اختلافه عنهم .. لإغناء وحدة التنوع التى تلتقى بالتالى فى مرمى حضارى يوسمها بخصوصيتها .

قلت : تجربتك الشعرية ، من أى الجداول شربت ؟

قال : لقد مد بى العمر الى الستين ونيفت تجربتى الشعرية على الأربعين عاما . المهم فيها هو اننى كنت فيها نفسى عبر خصوصيتى فى الطابع البرقى للقصيدة وعبر بنائى لقصيدتى على أساس (من أول ووسط ونهاية) كما يقول أرسطو تنمو فى أحداثها وموسيقاها . أعمل فى القصيدة بوعى . فإن كان ٣٠٪ منها الهاما .. فإن ٧٠٪ منها جهد واع فى الصنعة ولكن الصنعة فى اخفاء الصنعة لتظل للقصيدة رهافتها وعفويتها .

اعترضت قائلا : فى ديوانك (خفقة الطين) بدا فى شعرك بعض التأثر بشعراء مثل عمر أبو ريشة !

قال الحيدرى : نعم ، هذا صحيح . لقد تأثرت ربما بعمر أبو ريشة والياس أبى شبكة . وكان هذا عام ١٩٤٦ ، وهو تأثر سرعان ما اختفى نهائيا فى ديوانى الثانى (أغانى المدينة الميتة) .

قلت : ملاحظة صغيرة تقفز فى ذهنى . أنت تعيش فى لندن والبياتى فى مدريد .. السؤال هو أنت والعراق ، أخذ وعطاء .

قال الحيدرى : ومازال الأمر كذلك . وكلما ابتعدت عنه ازددت قربا اليه . اشتدت معاناتى معه .. ومنه أيضا .

وكان لابد للحيدرى أن يتوقف قليلا ويشعل غليونه ، ويطلب لى وله فناجنين من القهوة ويجتر فى صمت بعض أحزانه !

قلت لبلند الحيدرى وهو يصغى باهتمام : النقد للشعر : هل هو حقيقة أم وهم يسرى فوق الصحف ، وماذا أعطى أو أفاد ..؟

أجاب بهدوء : النقد ـ بالأمس ـ حقيقة . واليوم : وهم . لأننا لا نجده إلا على صفحات الجرائد اليومية حيث تتوزع الألقاب بلا وازع ولا دراسة وفى أيدى صحفيين صغار . طه حسين أفاد . مارون عبود أفاد . مندور أفاد ، ولكن عندما ثار شاعر السبعينيات والثمانينيات على اللغة والموسيقى والمضمون ، لم يدع أمام الناقد من أدوات النقد أى شىء غير المقاسات النقدية الصغيرة لهذه

الصحيفة أو تلك ، فالشاعر المزيف أوجد ناقدا مزيفا والخوف كل الخوف أن يتلو ذلك جمهور مزيف !!

قلت : الشاعر في الوطن العربي ، مكانه .. نظرة السلطة له ..

قال بلند الحيدري : « أسد سيرك » .. هكذا حولته السياسة . فمن الشعراء من تعود أن يقوم بأداء ألعابه البهلوانية لقاء قطعة الحلوى الصغيرة ومنهم من لا يزال يقاوم هذا الاغراء ويوسع جسده لمزيد من ضربات السياط وربما في النهاية سيؤدي ما يريدونه منه ، فليس الشاعر بالضرورة بطلا أو ضحية أو شهيدا .

□ السياسة حولت الشاعر الى أسد سيرك

قلت : الحيدري والمرأة ، تجربة في عمق احساسك . ماذا أعطتك أو ألهمتك وماذا سلبت منك ؟

قال الشاعر : اذا كان الرجل في نظري هو التاريخ .. فالمرأة هي الجغرافيا التي تحتضنه . واذا كان الرجل يحيا في الحدث الذي سرعان ما يغيب وينتهي ، فالمرأة هي الولادة الدائمة ومن هنا فإن من يكره الحياة .. يكره المرأة . شوبنهور ، المعري وغيرهما . هي في الرمز كذلك في غير قصيدة من قصائدي .. بل ربما لم أعرفها لحما ودما في شعري إلا في قصائدي الساذجة الأولى التي أملتها سنوات المراهقة . ومن التفاهة ان يقتصر الكثير من شعرنا العربي على تلك العلاقة القائمة ما بين امرأة ورجل ! مجرد رجل وامرأة فقط !

□ اذا كان الرجل هو التاريخ فالمرأة هي الجغرافيا

قلت : أعرف جيدا ان الناقد فيك له وجود . ولا أدري كيف يرى ريادية بلند الحيدري .. الشعرية ؟

ضحك الشاعر بطفولة وقال : أحيانا صيغة السؤال تثير محاورك للاجابة مع أن السؤال بسيط !

قلت : حين أحاور شاعرا ، أجعل من نثري المتواضع سراب شعر ان استطعت !

رد الحيدري وقال : لبدر السياب ما يميزه في رهافة ذاكرته العينية وللبياتي هرماه في القصيدة القائمة على حدة الصورة ولبلند أسلوبه البرقي الذي يحاول من خلاله أن يؤكد على تكثيف المعاني بأقل ما يمكن من المفردات . العديد من قصائدي ، يوحي بالبعد الزمني عبر رسم الحدث في زمنين متباينين . كما سعيت الى الافادة من الفنون التشكيلية والموسيقى والتقطيع السينمائي لاعطاء قصيدتي خصوصيتها سواء بطبيعة موضوعاتي أو بأسلوب أدائها ..

قلت : ترجمت لك أعمال شعرية ، هل أعطت المعنى كاملا ؟

قال بلند الحيدري : لقد ترجمت بعض قصائدي الى غير لغة من اللغات العالمية . ولكل لغة من تلك اللغات خصوصية ايقاعاتها وتراكيب جملها . كما ان لكل شعب مميزاته . فإذا كان الشعب الفرنسي يعجب بالايقاعات ، فإن الانجليزي يكتفي من القصيدة بشدة قدرة صورها على اثارة احساسه بها . وعلى المترجم ان يدرك ذلك بكثير من الدقة ، فهو لا يترجم معنى فقط ولا ينقل صورة لوحدها فان للايقاع دوره الهام في تكثيف أثر القصيدة . ولذلك

فلا عجب من أن تفشل قصيدة ماجيدة عند الترجمة . بصورة عامة ، فإن القصيدة العربية تخسر الكثير من مقوماتها الأصيلة التى يتعذر على المترجم نقلها . ان نخبة من المترجمين الكبار قد ترجمت بعض دواويني والكثير من قصائدى الى الانجليزية .. مثل دزموند ستيوارت وعبدالله العذرى والدكتور عبدالواحد لؤلؤة والدكتور حسين هداوى والدكتورة سلمى الخضراء والدكتور تيسير كاملة وغيرهم ولكل منهم جهده فى التفاضل على غيره ومع ذلك فإن أيا منهم لم يستطع أن يتجاوز قصور موسيقى اللغة الانجليزية بالنسبة الى اللغة العربية وخاصة عندما يتعلق الأمر بشاعر يركز الكثير من همه على البناء الايقاعى لشعره كما هو الحال معى .

قلت للشاعر بلند الحيدرى. أنت والكون، كيف تحس به؟

قال : أتحسب انك جرم صغير

وفيك انطوى العالم الأكبر

قلت : أنت والموسيقى، كيف يستقبلها وجدانك؟

قال : أعيش معها طول نهارى وأعيش مع موسيقانا وغنائنا العربى فى الكثير من أماسينا التى التقى فيها وأصدقائى العراقيين والعرب فى لندن .. حيث أعيش الآن .

قلت : ما ضرورة الشعر فى الحياة؟

قال : ضرورة الخبز !

قلت : تنحاز لمن، للشعر أم للشاعر؟

قال : للشعر ، للمضمون ، للخصوصية ، وحين أتغنى بالشعر ، أتساءل : لمن هذه الأبيات ؟!

قلت : سمات شاعر جيد؟

قال : « وعى نقدى جيد » بشعره !

قلت : لماذا تكتب شعرا؟

قال : سؤال سهل وشديد الوعورة . لا أعرف لماذا اكتب شعرا . الشعر وثيقة . الشعر تطوير لتجربة حياتية . من خلاله أعمق الاحساس الانسانى وأحول الأحداث الى رموز !

قلت : هل تعتز بنقدك النثرى؟

قال : انه « قصيدة » أخرى !

قلت : هل تقوم بزيارة قصائدك القديمة؟

قال مبتسما : كأنك تسألنى هل تزور حبك القديم .. والاجابة ، نعم ، وأحيانا أشذب فى بعض قصائدى القديمة وأهذب !

سألت الشاعر العربى بلند الحيدرى : كيف ترى الموت؟

فقال : فى مثل سنى ــ يا سيدى ــ لابد من أن أتعود على صداقته ، بحيث لا يرعبنى عندما سألقاه .. غدا !



فيــــروز

« ما بحب افـرض صـوتي
عـلى جلسـة هيـك ! »

□ الوجه الآخر لجارة القمر: والدها عامل المطبعة عارض التحاقها بالاذاعة اللبنانية لانها «فتاة مهذبة»

اسمها : نهاد الحداد ، ابنة وديع حداد ، وزوجته ليزا ولها شقيق يدعى جوزيف . يقول جواز سفرها انها من مواليد مارس عام ١٩٣٥ . ترعرعت في « محلة زقاق البلاد » ، وهو شارع فقير في بيروت ، في منزل متواضع يتكون من غرفة واحدة قرب مدرسة البطريركية .

كان وديع حداد عامل مطبعة يعمل في احدى المطابع القريبة من بيته وكان معروفا- رغم فقره -بأخلاقه وصبره على الشدائد ، في هذا الجو كبرت نهاد وهى بكر والديها . لقد عرفت البؤس في طفولتها وذاقت معنى الحرمان في صباها . فهل هذا النبع هو الذى مهد لها أن تصبح يوما من أكبر مطربات الشرق وان التاريخ سيسجل اسمها في صفحة كبار هذا العصر ؟

منذ نعومة أظفارها وهى تميل الى الغنـاء . فى البيت ، فى الشارع فى الحمـام . فى كل وقت تصدح وكأن شيئا ما يريد أن يخرج من صدرها . كأنها مـزمار أو أرغـول يعربد فيه الشوق !

كـان الراديـو فى تلك الأيـام من الكماليـات ولم يكن يقتنيـه إلا الميسـورون من النسـاء ، وكانت نهـاد تقصد بعض أهـل الحى لسمـاع أغـانى كبـار المطـربـين والمطربات فى ذلك العصر أمثال اسمهان ، وليلى مراد ، ومحمد عبد الوهاب ، وفريـد الأطرش وحليم الرومى .

□ حليم الرومى سمعها وامتحنها وتحمس لها وأطلق اسمها .. فيـروز !

فى الـرابعة عشرة من عمـرهـا انضمت الى الاذاعـة اللبنـانيـة تنشـد الأغـانى الحماسية ، وفى فترة وجيزة أثبتت وجودها وتألقت مواهبها . وتولت لجنـة استماع الحكم على صوتها . وكانت تتـألف من المطرب حليم الـرومى ونقولا المنى وميشـال خياط وخالد أبو النصر ، فاعجبوا بها . بل اعتبروها عطية نادرة فتلقفوها وضموها الى أسرة الاذاعة وكان حليم الرومى أكثر المعجبين بها وهو الذى أطلق عليهـا اسم . فيروز . ودخلت فيروز الاذاعة كمرددة فى جـوقة المـرددين والكورس . وثـار والدهـا وحاول أن يمنعها من الذهاب للاذاعة لكن حليم الرومى بمسـاعـدة أصدقـاء أقنعوا الأب بصـواب الفكرة فـوافق بشرط أن يصحبها شقيقهـا جـوزيف كلمـا ذهبت الى الاذاعة !

□ عاصى الرحبانى كان شـرطيا فى البلدية ويكتب، أحب فيـروز الانسانة وتزوجها

أول أغنية لفيروز .. كانت من الحان حليم الرومى : يا حمام يامروح بلدك . وقام حليم بتقديم فيروز الى عاصى الرحبانى الذى كان يعمل شرطيا فى البلديـة ، ولكن الى جانب عمله كان يهتم بالتأليف والتلحين ، وقد بدأ يشتهـر فى هذا المجـال . وكما ان لكل شىء فى هذه الدنيا من يدفعه ، فقـد كان فن الـرحبانى بحـاجة الى صـوت فيروز وصوت فيروز بحاجة الى فن الرحبانى ، فلما سمع عاصى غناء هـذه الفتاة أدرك انـه وجد ضالته وانطلق الصوت الذى تخال معه انك تخترق أسرار الكون . وجمـع الفن بين فيروز وعاصى الرحبانى ، فتزوجا عام ١٩٥٤ ، ووجهت الاذاعـة المصرية دعـوة لفيروز ورافقها عاصى وأمضيا فى القاهرة خمسة أشهر عادا بعدها الى بيروت لتضـع ابنها البكر زياد ، ورزقت فيما بعد بثلاثة أبناء ، هلى وليال وريما ..

واهتمت الحكومة اللبنـانية بصـوت فيروز فـدعتها لاحيـاء مهرجـانات بعلبـك الدولية ، ولتطل على الجمهور من وراء أعمدة جوبيتر وفى الهـواء الطلق وتحت ضوء القمر لتصدح بأجمل أغانيها (لبنان يا اخضر حلو) .

ليس هناك احصاء دقيق لعدد أغانى فـيروز ولكنها تعـد بالآلاف ويقف عـلى قمة أغانيها شدوها لوطنها لبنان (بحبك يا لبنان يا وطنى .. بحبك بشمـالك بجنـوبك بسهلك بحبك) ، فمن خلف المتـاريس ومن بين المـدافع كـانت ولاتزال تغنى بقلب جريح . وتشبثت بأرض لبنان . وأقامت فى بيروت وسط القصف الذى لا ينام .

ومنذ غاب عاصى الرحبانى عن عينيها ، دخلت فيروز محارتها الصدفيـة ولم تعد تطل منها إلا فيما ندر ، انطوت على نفسها وأصبحت وحيدة تدير ظهـرها لـزمانهـا وتمتطى حصان الحرية . فجأة ، تزورها ذكرى خاصة فتشحب ابتسامتها وتصبح كلمات مقتضبة وتنزف حزنا وان لم يفصح الحزن عن نفسه . ورغم الألم فإن فيروز صبورة الى حد انها تعترف لى مرة ـ فى مهرجان جرش الأردنى ـ « الصبر اخترعوه

لى .. » وقالت لى فى سهرة ضمت نضال الأشقر « صارت حياتى مثل لاعب الترابيز فى السيرك ، مطلوب منه يمشى ع السلك وما يقع » . فى نفس ذات السهرة ، طلبت من مضيفنا أن تكون فيروز فى الخلفية ونسمع شيئا لها ، فقالت : « مابحب أسمع حالى إلا فى حالتين التدريب على لحن جديد أو غنيوة جديدة تذاع لأول مرة » .

واستطردت فيروز تقول بكبرياء جميل : « ما بحب أفرض صوتى على جلسة هيك ، بحب الناس تفتش بالاذاعة ع صوتى » .

من يسأل فيروز (هل أنت متعبة) ردت بسرعة (أنا مهمومة) . من يدخل أكثر فى قلب فيروز يعرف انها تمردت على قوالب فى حياتها الشخصية حتى انها صرحت ذات مرة (القالب قبر) قالت فيروز لنضال الأشقر « لبنان بده أولاده وبناته نضال » « بترجعى بيروت نضال » .

□ تحب الغناء فى الاماكن الأثرية ولا تنام قبل الفجر وحياتها قطار !

تحب فيروز اللحم المشوى وتعشق الماء المثلج . لا تنام قبل الثالثة صباحا فى بيروت ! تسكن فى شقة بالايجار فى حى الروشة ملك سمير الغندور ، استطاعت أن تلتقط من بيتها فى انطلياس بعض السجاجيد والتابلوهات التى تستريح لرؤيتها يوم قررت أن تسكن ، ثارت الأقاويل ! ولهذا قررت أن تسكن الروشة : بيروت الجميع ولبنان المحبة والاخاء . تسافر فيروز الى موانىء الدنيا وتغنى وتقول لنا فى احدى أمسياتها الوحيدة (مالى قبر خارج تراب لبنان) .

وفيروز لا تظهر فى المجتمعات منذ ١٥ عاما . لا تدخل مطعما ولا تذهب لسهرة ، ولكنها تذهب الى العرض الأول لمسرحيات زياد رحبانى وتقول لى « ما بعرف لى أهل غير الناس . مابعرف شكل وجهى إلا لحظة الغناء . مافينى أحكى عن نفسى . أنا وحيدة وصبورة والفن بدمى . ما عندى شىء أغار عليه مثل فنى . أغار عليه بجنون » .

قبل أن تظهر فيروز على المسرح تكون عفوا « مثل ورقة الشجر بدها تقع بعد ٣ دقائق » . سألتها مرة : ما السبب ؟ قالت انه القلق . كلما كبر الفنان كبر قلقه ! تذكرت صديقى اللبنانى الفيروزى مثلى الذى قال لى مرة شيئا غريبا عن جارة القمر : (من فرط قلق فيروز وهى تستعد لتواجه جمهورها قد تصاب بحالة نفسية غريبة . يتخشب جسمها وتسقط كأى امرأة جبلية بسيطة على الأرض تنكفىء) !!

مرة قلت لفيروز : يظل الحب مرفأنا فى لحظات الهجير واليأس . قالت : « أعظم حب باق . حب الفن ، ما بيعرف يغدر إلا اذا أهملته » .

كانت والدة فيروز تملك صوتا حلوا ، ظل ملكا لأسرتها لا يتعدى جدران المنزل الأربعة . وكانت الوالدة تعرف الى أى حد هو حلو صوت ابنتها نهاد ، ولكنها تركت للمدرسة أمر اكتشافه وصقله .

قال لى الموسيقار محمد عبد الوهاب عن صوت فيروز « لو حاولت فيروز أن تنشز فى الغناء لما أطاعتها أوتار صوتها » . أولاد فيروز ، تعلموا البيانو ، وماتت احدى بناتها بحمى فى المخ ومازال الحزن يسكن الوحيدة الصابرة » زياد فقط الذى انطلق بشخصيته يصنع اسمه بعيدا عن شهرة الرحبانى ، الأب .

لفيروز ١٣ مسرحية و٣ افلام . وأصعب دور مثلته هو دور « لولو » فى المسرحية

التى تحمل نفس الاسم . واذا بدأت فيروز تتدرب على غنوة جديدة تحاشت الماء المثلج !

من أفكار فيروز ورؤاها .

١ ـ الغناء فى الأمكنة المكشوفة وخصوصا الأثرية يستهوينى .
٢ ـ أفضل العمل المسرحى على الفيلم السينمائى .
٣ ـ الموت افضل لى من لحظة الصقيع بين الجمهور والمغنية على المسرح .
٤ ـ أنا تناقض كبير . و« هيك بيكون الفنان » !
٥ ـ بقدر حزنى بحجم مرحى !
٦ ـ طفولتى لم تكن سعيدة ولم أحصل على كل ما أريد ! داخلى طفلة لم تمت .
٧ ـ أسرار أصدقائى تذهب معى الى .. القبر !
٨ ـ أصاب بالخجل عندما تحدق فى العيون .. أتوارى بسرعة !
٩ ـ فى وجهى سلام لأنى قنوعة وراضية ولو كان اسمى : النملة !
١٠ ـ حياتى قطار يركض بين الأحباب والأعداء (ترين بيلم) !

☐ تقيم فى جناح مونتجمرى بالفندق لتطل كل صباح على الاهرام

تصف غادة السمان صوت فيروز بقولها (ان صوت فيروز يمثل لى الحب والرضا والحنين والعفو والصفح والغفران والندم والبراءة والعطاء والشهوة والتضحية والصلاة والايمان . انه صوت حميمى يشعرك بأنه لك دون سواك وهو فى نفس الوقت صوت للجميع . كلما أحب انسان فى الأرض يظن انه أول انسان أحب وهكذا صوت فيروز ، كلما سمعته تظنه قد بدأ .. معك !)

فيروز ـ فى القاهرة ـ تقيم فى فندق مينا هاوس . لتكون على مقربة من « المسرح الذى تغنى عليه » . اقامتها فى جناح مونتجمرى وهو « جناح تاريخى » يختاره العرسان للاقامة فيه ليلة الزفاف الأولى .

فيروز ـ فى القاهرة ـ يقيم لها السفير اللبنانى حفل استقبال وتوجه فيه الدعوة للشخصيات الكبيرة ولعشاق فن فيروز . فيروز ـ فى القاهرة ـ ويتوالى وصول الطائرات الخاصة القادمة من ارجاء الوطن العربى حاملة شخصيات عربية مرموقة جاءت خصيصا للاستماع الى فيروز . من هؤلاء أصغر أولاد الملك فهد « عبدالعزيز بن فهد بن عبدالعزيز » .

أول أغنية تشدو بها جارة القمر هى « مصر عادت شمسك الذهب » وقد شدت بها فى مصر ، فى حديقة الأندلس . منذ أكثر من عشر سنوات . وسوف تجرى فيروز بروفاتها فى صالة خاصة خصصتها ادارة فندق مينا هاوس وخلال البروفة تغلق فيروز بابها وتحتفظ بالمفتاح فى جيبها !

فيروز قيمة سامية فى الحياة ، مثل الحب والعدل والجمال .



فاتن حمامة

« أنا لا أقود مظاهرة .. أصنع فيلما ! »

□ أنا وزوجي كلانا لآخر الاحترام .

استطاعت فاتن حمامة - بعد أن اكتوت بتجارب الزمن - أن تفصل تماما بين « فنها » و« حياتها الشخصية » . في حياة فاتن ثلاثة أزواج . اثنان منهم في بحر الفن والثالث وقف على شاطىء بعيد عن الفن تماما هو الدكتور محمد عبدالوهاب . أستاذ « الأشعة » المرموق .

ولا تفتح فاتن فمها عن والد « نادية » عزالدين ذو الفقار . ولا تتكلم عن والد « طارق » : عمر الشريف . وتعتبر فاتن حياتها الشخصية ملكا لها . وحين أردت لقاءها طلبت أن يكون ذلك « صباح يوم أحد » لماذا ؟ لأنها تتفاءل باليوم . وتسألني فاتن عن فنجان قهوتي ، هل هو مضبوط أم زيادة أم سادة . وتقول « حاشرب وياك » .

تستريح فاتن لمن تشاركه فنجان القهوة . وحين تساءلت بيني وبين نفسي « أين د. عبدالوهاب ؟ » وأخرجت السؤال من الهمس ، قالت أحب الأحاديث الصحفية وهو في العيادة أو الجامعة فكل منا يحترم اهتمامات الآخر ولذلك فصلت بين « العمل والحياة الخاصة » .

□ لم يعلمني التمثيل احد استاذى هو النـــــاس

تمنيت أن أعرف منها كيف رأت فاتن د. عبدالوهاب لأول مرة . كيف تعرفت عليه . كيف أحست بالراحة معه . كيف صارحها بالزواج . لكنها رفعت يدها أمام جهاز التسجيل رافضة بشكل باتر الخوض فى هذا الموضوع وقالت عبارة واحدة !

كل منا يحترم الآخر وهذا أهم ما فى الحياة الزوجية قبل الحب وخلافه .

واعتبرت هذه الجمل انتصارا إذ انها لا تنزلق فى الحديث عن زواجها بالدكتور عبدالوهاب وذات مرة عرضت عليها مذيعة الشرق الأوسط أن تتوسط لدى زوجها ليجيب عن أسئلة قصيرة سريعة فى برنامج « زوجتى مشهورة جدا » وصرخت فاتن بغضب :

معقولة دى ؟ده يزعل جدا ويتخانق معايا . إذا كنت أنا لامعة فى مجالى فهو لامع جدا فى مجاله . اصرفى النظر وحياة أبوكى عن التسجيل ده !

* فاتن :
السهل الممتنع !

عندما التقى بفاتن حمامة عبر تسجيل اذاعى أو حديث صحفى . أقول أسئلتى بأكثر من صيغة . فإذا جاء ردها الأول مقتضبا كالعادة ، ربما جاء ردها الثانى شافيا . وهكذا ، لأن فاتن تملك قدرا كبيرا من الدبلوماسية . فالدبلوماسى هو انسان يرفض الاجابة عن سؤال يورطه .. ولكنه يجيب بأسلوب ناعم يتضمن ما يريد . وفاتن قليلة الآراء فى زملائها وتعتبر انها اذا « سقط » أى اسم سهوا من حديثها غضب صاحب الاسم و« اتقمص » !

حين أسأل فاتن عن ينابيعها هل هى الاحتكاك بالناس أم الرؤية أم القراءة أم السفر والترحال ؟

قالت :

قطعا القراءة هامة . فهى بطاريات أى فنان .. ولكن الأهم بالنسبة لى وربما ليس بالنسبة لك هو « الاحساس بالناس » . تستطيع أن تقول وأنت مرتاح انه ليس لى أساتذة فى الفن علمونى . فأنا ولدت موهوبة كما يقولون . والذين حولى اكتشفوا موهبتى فى سن السابعة . ماتقاطعنيش ! لكن أستاذى الحقيقى هو الناس . من الناس تعلمت ألف باء التمثيل ! خذ كل الشخصيات التى قدمتها على الشاشة تكتشف ان المخرج يضع الاطار ثم أقدم أنا « النمط » من مثل أجتره لأنى أحسست به . فى فيلم « ليلة القبض على فاطمة » نمط هيستيرى . تسألنى من أين جئت به ؟ من صديقة أعرفها أصابتها الهيستريا عقب موقف خاص .. وأتذكر جيدا كيف تصرفت فى ذلك اليوم . بقيت الصورة فى ذهنى . خرجت من مرقدها لحظة التمثيل . فأنا آخذ من الناس وأعطى الناس فإذا كان هذا هو « السهل الممتنع » فليكن كذلك !

عندما قلت لفاتن « أنت اذن مرصد » !

قالت « بلاش أرجوك الكلام الكبير ده » .

قلت لها : ان « مرصد » ليست كلمة ايدلوجيا .

فقالت : حتى فى حوار أفلامى أطبق هذه القاعدة .. اختار الكلام الذى نقوله فى

حياتنا مع غربلة ولذلك يصلك . أريد أن أقول انى أفضل « الطبيعة » أو عدم الافتعال . لما أقول أنا اتعلمت التمثيل من الناس لأنى حاسة بيهم . افضل من أن فاتن مرصد للناس . حتى كلمة مرصد فيها ترصد . فيها سبق اصرار وترصد . وكأنى انتظر الفريسة لأقلدها . وطبعا ده غير وارد وبعيد عما أقصد . ان فى استطاعتى تقليدك بالطريقة التى تتكلم بها لأنى أركز فى حوارك . وبالتالى حاسة بأسلوبك فى الكلام . كل انسان له اسلوب وطريقة يعبر بها عن نفسه .

□ سينما ليلوش سينما التفاصيل الصغيرة والمرأة .

* « زوقونى » فى الأرياف !

تقول فاتن عن السفر انه « محطة هامة » فى حياة الفنان فالسفر حديقة كبيرة فيها كل الزهور . السفر كتاب مفتوح على طباع الناس وعاداتهم . السفر كتاب مفتوح على كل القارات . رؤية يوم واحد فى السفر تساوى كتابا وكل فنان يتزود حتى يعمق احساسه بالناس . فالحياة وجوه . وجوه . وجوه . وجوه بشرية . كل وجه مشكلة . كل وجه نمط حياة . طريقة . سكة . ابتسامة ما . حزن ما . الدنيا وجوه . وفى السفر لا أمكث فى الفندق . دائما فى الشارع ، اتسكع . وباريس أجمل مدن العالم لا تغدو جميلة إلا فى الشارع . فى مقهى أو مطعم أو أمام الفاترينات . ولذلك اقيس جمال مدينة بجمال شوارعها . الشارع فى باريس يخطفك من غرفتك فى الفندق . والمطعم فى شوارع لندن يأخذك من مطعم الفندق . وقرى ايطاليا تأخذك من روما . باختصار ، السفر ليس تذكرة سفر ومفتاح غرفة فى فندق . السفر لقاء بالوجوه . والفنان يتعلم دائما . كل فنان جيد تلميذ . يتعلم دائما . ويسعى للتحصيل بالسفر . بالقراءة . بالاحساس بالناس . وهذا هو مفهومى للنضج . عندما أجسد لك شخصية المطلقة وعذابها . فأنا أعرف صديقات مطلقات وأسمع صوت عذابهن الداخلى . وخوفهن الدائم الحذر من عيون الناس .

الشخصيات التى مثلتها . أخذت تفاصيلها من أصحابها . خذ مثلا فى فيلم الحرام": ذهبت الى فلاحة فى الريف وطلبت منها أن « تزوقنى » ولما رآنى المخرج هنرى بركات ظل يضحك ويقول « افتكرتك بهانة » ان طريقة التزويق فى حياة الفلاحة مختلفة تماما عن تزويق بنت البندر . واذا كنت تقول انى أتقنت لهجة الناس فى بورسعيد فى فيلم « ليلة القبض على فاطمة » فثق بأنى عشت وقتا فى بورسعيد .. وعايشت الناس فى الشارع والفندق والميناء . وجلست مع المؤلفة سكينة فؤاد لأعرف الكثير عن البطلة الحقيقية . انى أشرب الشخصية لتختلط بدمى . فأصبح أنا والبطلة سواء . فتصلك الرسالة وتقتنع بالشخصية .

وأسأل فاتن عن كلود ليلوش .

فتقول « أقرب المخرجين الى قلبى .. لأن أفلامه من حواديت الحياة البسيطة . نسج منها السيناريو والحوار ومن الحياة . انها سينما التفاصيل اليومية الصغيرة « قالت فاتن » وسينما المرأة أيضا . ان ليلوش له رؤية خاصة فى المرأة ظهرت جيدا فى فيلمه « رجل وامرأة » و« الحياة للحياة » . ان جيرالدو عملت دورا تحس به أى ست فى الصالة .

* سينما لا تجرح العين !

وفاتن تتحفظ فى رأيها بالنسبة للسينما التاريخية « ما لم تكن مرسومة بدقة وبتكاليف لا تعرف حدودا » . تبدو ساذجة ومثيرة للضحك . ولو انى لا أحب هذا النوع من الأفلام إلا اذا كان الانسان ـ لا المعارك ـ هو محوره الأساسى . أظنك رأيت الحلقات التليفزيونية البارعة عن ملوك وملكات انجلترا . وفيها أسرار القصور . لقد أزاحت السينما الغموض فى هذه الأماكن . أنا أنحاز للسينما الواقعية .

- مثل السينما الايطالية ؟

قالت فاتن : كانت السينما الايطالية تتمتع بجاذبية خاصة وكانت واقعيتها

مريرة .. وكنت أحبها ولو انى لا أحب الواقعية التى تؤذى العين . انا لا أجرحك بحجة انى واقعية .

قلت لفاتن : هل جربت الاخراج السينمائى ؟

قالت وهى تضحك من قلبها « أنا ممثلة ومخرجة لأدوارى » .

قلت لها : مانشيت جميل لحوارك معى !

قالت : هذا يغضب المخرجين . مع أن للفنان حرية ابداع للشخصية التى يجسدها . وأنا أطيع المخرجين كأى تلميذ ناشىء . لأنى أحب أن أضيف لرؤيتى رؤى الآخرين .. فهذا يثريها جدا . ولما أقولك مخرجة لأدوارى فمعناها انى أخرج الشخصية للناس كما أفهمها وأحسها وألمسها . ان الممثل « ينحت » الشخصية من الوهم .. ويصنع منها تمثالا من لحم ودم . ومع ذلك أخرجت فيلما واحدا فى حياتى وهو فيلم « عائلى » عن عيد ميلاد حفيدتى .. ابنة نادية . أمسكت بالكاميرا الفيديو وحددت اللقطات والبداية من الشمع والتورتة ثم وجوه الأطفال ثم وجه حفيدتى وتابعت الاحتفال بعين سينمائية . وحين أرى الفيلم على الفيديو استمتع به وأفرح . انه فيلم من اخراج فاتن حمامة . كم تبدو العبارة غريبة على سمعى ! ومع ذلك أقول لك ان المخرجين أصناف . مخرج قادر على سرد الحدوتة بفهم وببساطة وببراعة لا تفقدك سياق القصة . ومخرج قادر على ابهارك وتضيع معه تفاصيل الحكاية !

□ الفيلم الوحيد الذى أخرجته فيلم عائلى .

سألت فاتن حمامة : أنت تعيشين أكثر من جيل . كيف ؟

قالت : بالفهم . بالسفر . بالقراءة . بالاحساس بالناس . كل هذا بيعمل على تطوير داخلى . لو أنك انعزلت عن الناس وعن الجديد وعن الكتاب فسوف تصبح صحفيا متخلفا . الصحافة مثلا اليوم لم تعد المقالة الجافة . صار كل شىء حدوتة . أذكر ان الكاتب الجاد السياسى شديد الجدية أحمد بهاءالدين يكتب عموده اليومى أو مقاله بأسلوب يناسب العصر . يحكى لنا رؤيته بطريقة جذابة لا تخلو من معلومات .

ذوق فاتن حمامة . فى العمارة مثلا ؟

قالت فاتن : أبنى بيتى عربى وأخليه مودرن شوية . يعنى معنديش مانع الشباك يكون مشربية . وبعدين أحب الضوء القادم من وراء المشربية . وأتحاشى السلالم الكثيرة والدهاليز . أبسط الأمور بقدر المستطاع . يعنى التزاوج بين القديم والحديث بلا نشاز . وفى الأثاث أفضل البساطة والراحة . اللون الأبيض وكل لون لا يجرح العين . والشىء نفسه فى الملابس . أحب الوان الباستيل كلها ، أحب الأبيض والبيج . مش ممكن تلاقينى بفستان أحمر أو برتقالى . كل ست عندها بوصلة تدلها على الفستان الصح واللون الصح .

هل تدلك بوصلتك على الصح فى الطرب ؟

قالت فاتن « أحب صوت وردة » . وبالطبع أم كلثوم وعبدالحليم ويطربنى صوت صباح فى المواويل اللبنانية الجبلية ويهزنى وديع الصافى وفيروز فى الأغانى عن لبنان .

وذوقك فى القراءة ؟

قالت فاتن : ربما لا يعرف كثيرون شغفى وحبى للشعر . ذات مرة عرضوا على أن أشترك فى أمسية شعرية لشوقى فى كرمة ابن هانىء . بيت أمير الشعراء . ووافقت ورغم ان شعر شوقى من أصعب الأشعار إلا انى قلت سوف اقرؤه كما نتكلم . لن أبالغ ولن أرفع صوتى وأهبط .

قلت لها «كيف تقرئين خطابا من حبيب ؟»

قالت : السؤال خارج الموضوع ومع ذلك أجيبك . أقرأ الخطاب بلهفة وود وتأن شديد . والتهام للكلمات وضغط على الحروف وكذلك اقرأ الشعر . بعض الناس قالوا فاتن كانت تقرأ الشعر فى الامسية كما تقرأ المقال . وأنا أقول لن اقرأ الشعر بالطريقة التقليدية . ان فى القصيدة جرسا موسيقيا لا يحتاج الى اضافة جرس موسيقى من عندى .

وذوقك فى عواصم العالم ؟

قالت فاتن : أفضل القرى المحيطة بالعواصم الكبرى . حتى فى مصر أفضل العجمى على الاسكندرية . أولا : أحب الهدوء . ثانيا : أنا قد احتمل الحر والرطوبة ولا أحتمل الضوضاء . ثالثا : عندما أقصد الراحة فانى أحافظ على أعصابى من الانفجار . ولا شىء يعذبنى قدر الضوضاء . قرأت مرة أن هناك نسبة ما من الضوضاء يمكن أن تحتملها أذن الانسان وبعدها يصاب بالجنون وأراهنك اننا جميعا - من الضوضاء - على حافة الجنون !

قلت لفاتن : ان للكاتب أحمد بهاءالدين رأيا يقول ان الفنان والسياسى متشابهان . فيم ؟

قالت : أعتقد ان كل انسان له رسالة سواء كان صحفيا أو سياسيا أو فنانا . مقالة صحفى أو تحقيقه يمكن أن يثير ثائرة المجتمع . أغنية مطرب قد تحمسنا جدا . مقالة كاتب سياسى قد تغير وضعا ما . دور ممثل معمول بشكل متقن قد يعيد النظر فى قانون ما . لو تتذكر فيلم « .... » تكتشف انه فيلم سياسى جدا لكنه وصل للناس بجمال فنيته . خطبة سياسى متقنة ومنطقية قد تجعل الرأى العام يلتف حوله .

وأنا بالمناسبة نشأت فى بيت وكانت أمور « السعديين » تناقش أمامى ولم أكن أفهم حقيقة ما يدور . ونشأت وأنا لا أحس ان السياسة من صنع الرجال وحدهم ولذلك لا أقف مطلقا مع أى حزب نسائى . أعتقد ان عملا فنيا جيدا يلعب دورا هاما فى الحياة الاجتماعية . والتجمعات النسائية التى تحدد لنفسها شعارا ذكيا . تجذبنى . واذا كانت جين فوندا قد قادت مظاهرات . فأعتقد ان مواقفها من المعوقين « أبرز » من مظاهراتها . أنا لا أستطيع أن أقود مظاهرة . بإمكانى أن أعمل فيلما له الأثر نفسه وأكبر . فيلم « أريد حلا » مظاهرة ضد الرجل الذى يدوس مشاعر المرأة . وأعتقد انه مهد لاعادة النظر فى قوانين وأحوال المرأة الشخصية .

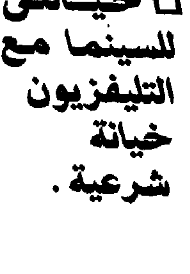
تقول لى فاتن : انضباط الشارع ، سياسة . الفيلم الذى يعيد النظر فى قوانين اصلاحية الأحداث . سياسة . كل عمل بسيط فيه فن هو عمل سياسى . السياسة ليست فقط الأعمال المتشنجة من القيل والقال .

انتقلت بالحوار الى فاتن الانسانة .

سألتها : ما ضمانات سعادة زوجية ؟

قالت بسرعة : مفيش ضمانات للسعادة أبدا . حياة الفنان أو ست البيت

العادية سواء . المهم فى العملية انسان أرتاح له وأشعر باطمئنان معه وبلا خوف .. وأحترمه ويحترمنى والباقى على الله . المهم بالنسبة للمرأة العاملة اذا كانت سعيدة فى بيتها فسوف تعطى للمجتمع واذا فشلت فى بيتها فسوف يتقلص عطاؤها .



□ خيـانتى للسينما مع التليفزيون خيانة شرعية .

قلت لفاتن : أشم رائحة خيانة للسينما بأعمالك للتليفزيون ..

قالت أميرة الشاشة العربية : التليفزيون يوصل أى مضمون بسرعة . والناس صارت ترفض النزول للسينما .. ولذلك هذه خيانة .. مشروعة !!



عادل امام
أنا حزب مستقل !

« .. انحاز لأي قصة فيلم تقف مع الجماهير بشرط أن تعطيك المتعة قبل المضمون .. ! »

كنت ـ وأنا تلميذ ـ أحلم بالعمل السياسى السرى تحت الأرض .
كنت أحلم باسم حركى . ولما أطلقوا على اسم « عادل » بكيت من الغيظ ، فقد تبددت أحلامى بالسرية فى البطولة ! وعندما كبرت ونضجت وجدت نفسى انحاز للكتل الكبيرة من الناس وهى الجماهير بشرط أن يكون لها عقل وتغيب عنها الغوغائية !

وعندما أصبحت ممثلا ، صرت اختار أفلامى برؤية خاصة . وأنا أعتبر نفسى قد نجحت فى نقل مساوىء الانفتاح على الشاشة . وأنا بعد هذا وقبل هذا فنان ولست رجل سياسة !!

لأول مرة ، أتقاسم حوارا مع الفنان عادل امام ولا يبتسم ابتسامة واحدة ! ان عادل امام - فى حياته الخاصة - انسان جاد . تسيطر الجدية على تصرفاته . يخذل بعض ضيوفه بهذه الجدية ! فهم يتوقعون دائما عادل امام .. السينما ! وفى أحاديث عادل امام الصحفية وهى نادرة يتكلم بجدية ولكنه من حين الى حين ينشر جوا باسما ضاحكا بقفشاته الذكية . ولكنى فوجئت به - هذه المرة - يتحدث دون أن يبتسم أو يعلق تعليقا ساخرا واحدا !

ربما لأنى دعوته للحديث فى .. السياسة !

وقال لى عادل امام قبل أن يبدأ حوارنا نقطتين . الأولى : أعتقد ان القراء من العقلاء الذين يشكلون « الصفوة » فى المجتمع العربى .

النقطة الثانية : أعتقد انك ستضع علامة تعجب بعد عنوان عادل امام يتكلم فى السياسة .

وطلب منى عادل امام التعليق على الملاحظتين . وافقته على الملاحظة الأولى وسألته عن اهتمامه بعلامة التعجب ، فقال لأنك حين تضع علامة التعجب انما تشير الى غرابة الأمر وكأنك تقول لقرائك ان هذا الفنان الكوميدى يجرؤ على الحديث فى السياسة . والواقع انى مواطن مصرى قبل أن أكون فنانا معروفا والسياسة لم تعد ملكا لطبقة .. أو حكرا على أحد ! ووافقته على هذا التفسير ، فاستراح !

حين سألت عادل امام : من هم نجوم العالم الذين تعتبرهم خاضوا بحار السياسة ؟
قال بعد تفكير : يحضرنى شارلى شابلن . ومارلون براندو وجين فوندا . هؤلاء الثلاثة أثبتوا ان بينهم وبين السياسة علاقة تجاذب وليس علاقة نفور ولكن من المهم - أولا - أن نعرف كلمة سياسة لكى نخوض فى بحارها . هل السياسة هى تصرفات الحكام والأنظمة الحزبية أم هى تحركات جماعية للشعوب ورد فعل فى وقت معين ازاء حدث معين ؟ أعتقد ان كلمة سياسة بغض النظر عن تعريفها فى القاموس هى الأحداث التى تكون رد فعل للجماهير سواء ضدها أم معها . وبهذا المقياس اعتبر نفسى « فنانا سياسيا » .

قلت لعادل امام : هناك من يرى ان السياسة هى مشاكل بسطاء الناس ؟

فقال : ليس فى استطاعتنا ان نفصل السياسة عن المجتمع . ولكن هناك سياسة داخلية وهى الجهاز الهضمى لمجتمع ما ، وسياسة خارجية وهى علاقة دولة ما بدول العالم على الخريطة الدولية .

كيف ترى عطاء شارلى شابلن ومارلون براندو وجين فوندا .. من وجهة نظرك ؟

أولا ، انهم « فنانون » عظماء . ثانيا ان وجه عطائهم هو التزامهم أمام مجتمعاتهم . ثالثا ، لو لاحظت القضايا التى تبنوها سوف تكتشف انها قضايا انسانية بحتة ، لها قيمة العمل السياسى .

واستطرد عادل امام يقول : الذى يغتال واحدا بقنبلة أو يفجر ديناميتا فى سيارة زعيم ، ليس عملا سياسيا وانما « حالة تخريب » . والفنان لابد أن يضيف ويكون مرآة لمجتمعه وهذا عمل سياسى . أحيانا أسمع عن مطرب فى قطر من الأقطار يقال عنه انه « مشاغب » بمعنى انه يشاغب سلطة بلاده . أغتاظ عندما يقولون انه سياسى ! انه « يتشعلق » فى السياسة . لأنه لو كان سياسيا بحق ، لوظف صوته فى خدمة قضايا مجتمعه . وعندما يكون هذا المطرب فى دولة نامية ، فالأمر يصبح فى حاجة الى تحديد معنى كلمة سياسة . لقد كان الصديق المطرب عبد الحليم حافظ يغنى للدولة ولمصر الاشتراكية وكانت أغانيه « أعمالا سياسية » بلون عاطفى فالتف حولها الناس .

هل من الضرورى - فى رأيك - أن يكون للفنان موقف سياسى ؟

الفنان أساسا ، موقف . الفنان تعبير . وبعض الناس فوجىء بحضورى اجتماع يندد بمذابح بيروت ولكن هذا لم يكن مفاجأة لجماهيرى . أنا لا أمارس السياسة بالمعنى التقليدى . لكنى لا أعتبر نفسى مفصولا عن أحداث المجتمع الذى أعيش فيه . أعتبر نفسى « ملتحما » بأحداث الوطن العربى ككل ، لأنى مواطن عندى بعض اليقظة وملم بأحداث الدنيا . موقفى من مذابح بيروت انسانى بالدرجة الأولى ، فاذا أعتبره الناس موقفا سياسيا ، فليكن !

هل من المهم أن يكون للفنان ايديولوجية معينة ؟ لقد سألت ذات مرة المخرج صلاح أبو سيف السؤال نفسه وقال ان الايديولوجية ضرورة للفنان ولما قلت له ان الايديولوجية قد تفسد الفن ، قال يومئذ يتوقف الأمر على الفنان ؟

ليس شرطا أن انطوى على ايديولوجية معينة . المهم درجة حرارة ارتباطى بالمجتمع ، وأين أنا من مشاكله . تكفى الهوية الاجتماعية لكى يتحدد الاطار الذى

أرى منه المشاكل . وأنا ابن الشارع والحارة . الشارع بالنسبة لى هو السياسة وهذا تجد له ترجمة فى أعمالى وأفلامى . وبهذا المقياس تجدنى منحازا للبسطاء والجماهير العريضة .

عد بذاكرتك الى الوراء ، متى سمعت كلمة سياسة لأول مرة ؟

ايام عهد الباشاوات قبل ثورة يوليو . كنت منحازا للشارع المصرى وضد الباشاوات . كان الباشا يجسد لى رمز « مص دماء الغلابة » . كنت أسير فى المظاهرات وأردد بحماس شديد الشعارات ولا أعرف معناها فى ذلك الوقت المبكر . كان الشىء الوحيد الذى سيطر على تفكيرى ان هذه الكتل من الناس على حق . والقلة من الباشاوات على باطل ! وفى احدى المظاهرات ، وجدت نفسى منساقا معها الى مكتب احدى الشخصيات ، ووجدتهم يدخلون عليه ويضربونه بلا رحمة . يومها تنبهت الى غوغائية المظاهرات المتقنة الصنع والمنظمة . فقلت لنفسى : ليس هذا هو الشارع المصرى ، وظللت اتحرى عن هذا الرجل الذى ضربوه فاكتشف انه الدكتور عبدالرزاق السنهورى مشرع القانون العظيم . وشعرت انى أريد أن أبكى خصوصا بعدما سمعت عن قيمة هذا الرجل وفهمت معنى أن تكون مظاهرة مدبرة . أنا أتصور السياسة هى العمل الفدائى ضد عدو واحد . فى عام ٥٦ أثناء العدوان الثلاثى على مصر ، انضممت الى معسكر فى بورسعيد يدربنا على استخدام البنادق السريعة الطلقات . كان فيه « هدف » . والسياسة معناها تحديد هدف تشتغل عليه . والسياسة لشاب صغير مثلى وقتئذ معناها « دفاع عن كرامة وطن » .

هل اجتذبك العمل الحزبى يوما ما ؟

كنت أحب العمل السرى تحت الأرض وكنت أتمنى أن يكون لى اسم « حركى » واغتظت يوم أطلقوا على اسم « عادل » يومها بكيت من الغيظ لأن حلمى لم يتحقق ! وبعد مضى السنين على هذا المشهد ، اكتشف ان فيه « ريحة الفن » . ربما المفاجأة . ربما البطولة الفردية . ربما الرغبة فى الزعامة ! بعد أن كبرت ودخلت الجامعة ، أخذت السياسة فى حياتى صورا أخرى . وجدت نفسى اقرأ التاريخ بنهم شديد . فأنا أعتقد ان السياسة هى استيعاب التاريخ . ونظرة واحدة لمكتبتى تكتشف ان معظم الكتب فوق الرفوف تاريخ . والتاريخ فى منطقتنا العربية ـ لمعلوماتك ـ حادثة واحدة تتكرر . خذ مثلا موسوعة الدكتور أحمد شلبى تكتشف ان قيام الدولة وسقوطها يتشابه مع وقتنا . الصراعات بين الأسرة الواحدة . الأطماع . الأمين والمأمون . التاريخ يعيد نفسه دائما .

متى يكون الوقت المناسب لكتابة التاريخ ؟

بعد مضى زمن .. ليكون الرأى صائبا وإلا ذبح الحاكم المؤرخ الذى يتعرض لكتابة التاريخ بأمانة مطلقة !

متى تقرأ هذه الكتب ؟

منذ دخلت عالم الفن ، كنت قد حددت لنفسى شعارا هاما . لو قرأت بانتظام فسوف أتميز كفنان . ولو أهملت القراءة فسوف أصبح مثل زيد وعمرو ! أنا اقرأ ما يقع تحت يدى . وأنا مزاجى فى القراءة اقرأ ما يغرينى ويجعلنى اقلب الصفحات بلا ملل . واقرأ تحليلات كتاب السياسة بامعان ولا مانع أن اتصل

بكاتب ما لأسأله فى نقطة غابت عنى !

هل أنت فنان ملتزم ؟

نعم ملتزم بقضايا بلدى .

هل أنت عضو فى حزب من الأحزاب ؟

أنا حزب فى حد ذاته . حزب مستقل اسمه عادل امام .

ما هى مبادىء هذا الحزب ؟

ليس له برنامج مكتوب . لأن برنامجه هو كل ما يحلم به الناس . المجاميع . الجماهير هدفه اسعاد الناس . وأنا أنتمى اليه . وأنا رئيسه وسكرتيره وأمين صندوقه .

هل رشحت نفسك فى الانتخابات ؟

رشحت نفسى فى انتخابات إتحاد الطلبة فى كلية الزراعة وكنت شابا محبوبا وضامن نجاحى مائة فى المائة الى حد انى سخرت من زملائى الذين عرضوا على أن أكتب يافطة تحمل عبارات رنانة مثل « عادل امام مفيش كلام » وغيرها وقررت أن أضع يافطة صغيرة كتب عليها « عادل امام » فقط . وكانت النتيجة انى سقطت فى الانتخابات سقوطا ذريعا . ويومها فهمت ان الانتخابات « لعبة قذرة » يجب ان تعرف قواعدها وأصولها لكى تكسبها . أما الاعتماد على السمعة وحب الآخرين فهذه رومانسية ! وسوف اكشف لك عن سر . أنا حتى الآن ليس لى بطاقة انتخابية . وأصارحك انه حين كانت تظهر نتائج الانتخابات فى وقت ما بأنها ٩٩,٩٪ جعلتنى أشعر ان صوتى « ملوش قيمة » وأنا أعتز جدا بصوتى . والمرة الوحيدة التى أعطيت فيها صوتى كان عقب رحيل السادات وقلت لابد أن أعطى صوتى لقبطان يقود المركب .

هل لك انتماءات سياسية معينة ؟

انتمائى لمصر بلا حدود . ولكن بلا اقليمية ، فأنا أعتبر نفسى مواطنا مصريا عربيا . وعندما يقولون ان مصر جزء من القارة الأفريقية ، تعجبنى الملحوظة من الناحية الجغرافية !

ما رأيك فى الشيوعية ؟

سؤالك شديد العمومية . حدد أكثر !

ما رأيك فى الأحزاب الشيوعية العربية ؟

حدد أكثر !

هل تتصور الشيوعية تسود الوطن العربى ؟

قال عادل امام وهو يضغط على حروف كلماته :

لا أتصور ذلك !

هل يحتاج المجتمع العربى الى اشتراكية من نوع معين ؟

اشتراكية تنبع من احتياجاته .

هل فى العالم العربى ديموقراطية ؟

لا توجد ديموقراطية حقيقية فى العالم العربى .

هل تؤمن بوجود أحزاب كثيرة ؟

هكذا الديمقراطية شرط أن تدرك أحزاب المعارضة فحوى رسالتها على الوجه الصحيح .

ما رأيك فى « الحزب الواحد » ؟

انه « الرأى الواحد » .

هل للفن دور فى السياسة ؟

دور خطير ، لو فهم الفنان ما يريد أن يقوله حتى لا يتحول الفيلم الى مانشيت جرائد !

كيف تختار قصص أفلامك ؟

انحاز لأى قصة تقف مع الجماهير شرط أن تعطيك المتعة قبل المضمون الجاف . أنا فنان بالمناسبة ولست رجل سياسة !

هل هناك « بعد » سياسى وراء اختيارك لأفلامك ذات الجماهيرية الشديدة ؟

اختار افلامى بوعى واحساس الفنان لأنى فنان أولا . وهناك افلام أرفضها لأن رؤيتها السينمائية متخلفة . وهناك أفلام اختلف مع مخرجها لأنه « حشر » فيها السياسة خشرا . مثلا ، فيلم « احنا بتوع الاتوبيس » كنت أرى انه ادانة لنظام وليس لشخص !

ما مفهوم الفيلم السياسى عند عادل امام ؟

الفيلم اللى تأثيره أقوى من ١٠٠ حزب !

أنت منحاز هنا ، للفن ؟

بل منحاز .. للناس .

أعطنى أمثلة لأفلام بهذا المعيار ؟

فيلم « المحفظة معايا » . وفيلم « الغول » . فى الفيلم الأول كنت أقول ان النشال ليس من يسرق محفظة فى اتوبيس ولكن من ينشل قوت الجماهير . وفى الفيلم الثانى كنت أضرب السيطرة على القوانين لحساب الانفتاح ! وفى فيلم « الافوكاتو » أسخر من ثغرات القانون التى تغرى بالتلاعب !

هل أعجبتك أفلام سياسية أخرى ؟

أعجبنى « الشريدة » .. وفيلم « لايزال التحقيق مستمرا » . الفيلمان لنجيب محفوظ من اخراج أشرف فهمى .

ما رأيك فى فيلم « الكرنك » ؟

انه فيلم تسجيلى .. جيد !

أنت تظلم هذا الفيلم !

أنا أنصفه حين أسميه فيلما تسجيليا لأنه يقدم لى بأمانة حوادث رهيبة جرت فى وقت ما ، وعانى منها الناس . وليس فى الفيلم رؤية لاستشراف المستقبل . ولكن هناك أمانة شديدة فى نقل الأحداث على الشاشة وهذه سمة الفيلم التسجيلى ! أنا ضد الالزام فى الفن . ضد أن تكلفنى الدولة بعمل فيلم ما .

هل أنت كفنان نجحت أفلامك لأنك نتاج مساوىء عصر الانفتاح . وأنت نقلت هذه « المساوىء » صورا على الشاشة ؟

اعترف ان نجاحى نبت من فشل سياسة الانفتاح ولكن لم أكن تسجيليا ازاء ما أراه . كان الفيلم يعطيك المتعة والضحك ويجعلك تسخر من اسلوب الانفتاح السيىء !

هل عبرت كما يجب عن هذا العصر ؟

ليس كما يجب . ولكنى عبرت .كان فى التعبير أحيانا .. مباشرة ! ومن عيوب السينما المصرية انها لا تزال « تحلب » فى بقرة مساوىء الانفتاح دون أن تتقدم خطوة واحدة ! واذا كنت قد نجحت بمجموعة هذه الأفلام ، فلإن الفنان افراز لمجتمعه وهذه الصور الحية فرضت نفسها على فرضا .

ما هو الرخاء عند عادل امام ؟

الحرية .

فى غياب الحرية لا رخاء .

نعم ، لا رخاء .

اشرح لى هذه النقطة !

من الممكن أن تكون مواردى ضعيفة . لابأس . ولكن اذا كانت هناك حرية ، فسوف يكون هناك شعب يحكم نفسه . شعب يصارح بمشاكله . وبالتالى يتحرك للانتاج .. والرخاء الحقيقى لا رخاء الشعارات ! الحرية هى المكاشفة والمصارحة .

هل تريد أن تقول مضمونا ما من خلال المسرح ؟

المسرح المصرى فى نكسة والسينما ليست هابطة كما يصور البعض . والمسرح فى كل بلاد العالم يقود الفكر . وعندنا كان هناك مسرح واختفى .. فى ظروف غامضة !

هل تعتقد ان هناك توقيتا ما لعودة مصر للصف العربى أو عودة العرب لحضن مصر ؟

على الصعيد الرسمى هناك شكليات . وعلى الواقع الانسانى ليست هناك قطيعة . والشعوب أبقى من الحكومات .

هل تتابع فصول القضية الفلسطينية ؟

أتابعها وأتأملها وعذبنى الانشقاق داخل المنظمة وأسعدنى انتصار عرفات على المنشقين والظروف والقنابل والدم . ومازال أمام الفلسطينيين كفاح طويل لكينونة تحقيق الوطن والأرض والهوية .

ماذا تقصد بكلمة « كينونة » ؟

استقلال تام بعيد عن الأنظمة والسيناريوهات الدولية ..

هل تتوقع حربا نووية ؟

القوتان العظميان لن تدخلا حربا نووية . بل ربما تحدث حروب محلية صغيرة فى مناطق معينة . ربما فى أمريكا اللاتينية . ربما فى الشرق الأوسط ولكن لن تندلع حرب نووية !

هل تحضر الندوات السياسية؟

حضرت ندوة عن الفيلم الفلسطينى فى نقابة السينمائيين وأنا بالمناسبة ، أمجد قيمة استخدام السينما الفلسطينية ان كان التعبير مجازا ، لخدمة قضيتهم . للسينما هنا وظيفة سياسية . وسمعت عن فيلم لتوفيق صالح لا اذكر اسمه قيل انه فن أصيل له مضمون عظيم .

ما موقفك من ايقاف فيلمى درب الهوى وخمسة باب؟

هذه ديكتاتورية وليس مجرد قرار . واذا كان قرارا فهو فردى . ومثل هذا القرار له آثار اقتصادية سيئة فى المستقبل !

هل تتدخل فى حوار الفيلم؟

من حقى أن أحذف عبارة ساذجة واضيف جملة تخدم بطريقة غير مباشرة المضمون .

فى مكتبتك مجموعة كتب د. زكى نجيب محمود.

لأنه يحترم عقلى وعقلك !

يقولون انك «ظاهرة» ما رأيك؟

دعهم يلوكون !

هل تؤمن أن الدبلوماسية هى فن الكذب السياسى؟

أعتقد ـ من التجارب ـ ان دبلوماسية الثمانينات أصبحت مفتوحة مكشوفة فلماذا الكذب ؟ ربما كانت كذلك زمان ، حيث أحاديث الأروقة والدهاليز والايماءات !

كنت أتمنى أن يسمع الناس هذا الشريط المسجل!

قال بفضول شديد . ليه ؟!

ليتأكدوا انك لم تبتسم ابتسامة واحدة، وكنت جادا بشدة.

يقول أهل البلاغة ، لكل مجال مقام !!

وصمت عادل امام واعتلت جبهته تكشيرة وسألنى : يا ترى قلنا ايه ؟!

* * *



الفريد فرج
ويل لأمة ضل مسرحها !

« .. سعادتى مهنية:
ستارة ترتفع ، وناس
سعداء .. ! »

قال لى الفريد فرج : ان حال المسرح فى مصر أولى بالكتابة من حوار مع كاتب مغترب مثلى ! وقال ، لماذا أعود الى جو مشبع بالاحباط ؟ فمنصة المسرح خرجت تتسول من التليفزيون .

وقال : ان التغيير ليس تغيير وزير أو رئيس تحرير .

وقال ، بالمناسبة يجب ألا يدخل الوزير فى أى صراع فكرى فهو ـ كمسئول ـ يعتبر مثقفا فى اجازة .

وقال : ان على سالم مؤلف مهمل وسعد وهبه يجب أن يعود الى أصوله ونعمان عاشور أحبطوه .

وتساءل : أين جيل النقاد العظام . لقد تفرقوا .

وقال : لقد سمع توفيق الحكيم منى مسرحية كاملة وأنا كاتب مغمور .

وقال ، ربما كنت كاتبا شغلته قضية العدل فى مسرحياته ولكنى لم أر وجه العدل فى حياتى !

ذات عام من أعوام « الزمن الضائع » و« اللغو الفارغ » ، كان منسوب الوحشية قد ارتفع وغرقت « جزر » البراءة ، فاضطر نفر من الناس أن يخرجوا من بيوتهم فوق جناح المجهول واستقروا فوق أغصان أشجار بعيدة !!

هل كانوا على حق ، أم انهم « استعذبوا » المأساة وخلقوا منها مشكلة شخصية ، وفكوا ضفائرهم مع مصر ؟!

لكن عيون مصر كانت تدمع وهى ترى أولادها البكر يهاجرون فى عتمة الليل !

واحد من هؤلاء هو الكاتب المسرحى الفريد فرج ، واحد من قليلين تحبهم خشبة المسرح ، وتتوق لأعماله بشوق حبيبة لابحار حبيبها فى .. أنوثتها !

من مصر ، ذات مساء ، الى صحراء الجزائر ، ثم الى لندن الرمادية .. حيث رسا قاربه المصارع . يتحدى الأمواج ومعه مجدافه : زوجة وهبت عمرها وشبابها للبحار المغترب ، لا تشكو مطلقا طول السفر أو متاعب الرحلة . وفى الغربة ، ترتفع مكانة الزوجة ، حيث الوحدة تمزق أعتى الرجال !

وفى لندن ، كان اللقاء واتفقنا أن يكوان « الحوار » أو « الثرثرة » فى شقته الصغيرة فى عمارة كبيرة .. فى أحياء لندن الغاصة بالعرب والمطاعم العربية وصوت أم كلثوم .. وأحمد عدوية !

وكان الوقت مساء ، وأنا أحب رذاذ المطر المتساقط من السماء الدامعة .. بحنان بالغ فوق الوجوه . دائما يعطينى لوحة رومانسية ، لامرأة تبكى ولا تبكى وتتكىء على كتف رجل يدخن ويمد كفه ليمسح دموعها ويعدل خصلات شعرها المبتلة !

فى الطريق الى الفريد فرج كنت أفكر وأتساءل مثلما تساءل مرة محمود أمين العالم : هل الفريد فرج مؤرخ أو مفكر أو فنان أو هو هؤلاء جميعا» ؟

وتوقفت عند عبارة أهدتها إلى ذاكرتى التى لم تصدأ بعد وسمعتها يوما فى الدوحة من الناقد الكبير رجاء النقاش حين قال ان « مسرحية حلاق بغداد جديرة بأن تؤرخ بها عصرا من عصور اليقظة فى المسرح المصرى » .

هل الفريد فرج مثلما وصفه الفنان الملتزم عبدالرحيم الزرقانى عندما قال لى ان الفريد « لم يتعرض لكتابة المسرح إلا بعد أن عرفه وعرف تطبيقاته . انه مفكر وشاعر وشخصياته الحقيقية تبحث عن الحقيقة والعدالة » .

وتساءلت : هل الفريد فرج «يبدع» مع مجموعة فى مسرح تجريبى لأنه مفكر ومنظر مسرحى ، ولكن ميخائيل رومان قد يفوقه فى مسرحياته القذيفة وقصصه القصيرة المتوهجة .. كما سمعت من زميلى «علاء الديب» وأنا أسأله عن الفريد فرج قبل سفرى الى لندن ؟ !

لكن كاتبا مسرحيا كعلى سالم ـ مثلا ـ يرى الفريد فرج ، « واحدا من أهم كتاب المسرح فى العالم . وان فترة عذابه الطويلة فى بداية عمله السياسى لم تترك فيه مرارة من نوع ما وان خسارتنا مؤكدة فى فترة غيابه عنا وعن بيته الحقيقى ، المسرح » !

واعترف ان التساؤلات شحنتنى قبل أن ألقاه وأعطتنى حجمه الحقيقى ككاتب مسرحى له « لغته الخاصة » حين كتب كوميديا بالفصحى وكان قلقا ولم ينم إلا بعد أن سمع فى الصالة « زئير الضحك » !

الشقة صغيرة . هى استديو أكثر منها شقة ! وتسمح لك أن تمد قدميك بتحفظ ! اللقاء يجمعنى بالفريد فرج وزوجته ثريا وأبريق من القهوة وليس الشاى . فبعد حوارى الذى امتد الى نصف الليل شرب الفريد عشرات من فناجين القهوة . يضع الفنجان أمامه . يحتضنه . يتركه يبرد . ثم يرشفه رشفة واحدة . وكل فنجان قهوة ، له عندى رمز وايحاء بشىء ما ! مرة يرمز فنجان قهوته الى أحزان الغربة ، ومرة الى الأشواق الغامرة لمصر . ومرة يذكره بطفولته وصباه ، ومرة يرمز الى الحلم والعدالة التى يبحث عنها ومرة يحس انه يشارك الزوجة . التضحية والرفقة . كانت فناجين القهوة ـ التى شاركته رشفها ـ أشبه بالفصلة ، تخدم الكلمات وتوصلها بعضها ببعض كقاطرة معان . أحيانا كانت تساعده على التفكير أو التوغل داخل النفس .. كلحظة الاكتشاف فى الحب ! وبدأ يتكلم الفريد فرج وكأن بيننا حديثا موصولا ! انه متواضع كالعشب . بسيط كالطفل ، ترتاح اليه . ناضج كعجوز عرك الحياة . صوته من النوع الذى يدعوك أن تسكن فيه . وتقيم ! حزين ، حزن التجربة الكبيرة فى الحياة والخبرة بالناس والأشياء . أصيل ، مشدود بخيوط لا مرئية الى قريته كفر أمون . مشدود الى ترابها ودوابها وجسرها الخشبى الكالح !

كفر آمون ، كانت البداية !

قال الفريد فرج « فى خريف ١٩٧٦ عدت الى القاهرة بعد غيبة وتنقلت بين الأماكن التى أحببتها وأحاطتنى البشاشة التى ألفتها . قضيت أياما أتحدث وأحكى وأنصت الى أن داهمنى فجأة شعور بالوحدة . كأنما أفقت لأرى نفسى

أتحدث وحدى آخر الليل وقد رحل السمار . لاحظت أن الأسعار ترتفع باصرار عنيد كل يوم ، ومع ارتفاعها تنكمش الثرثرة ويفقد التواصل قيمته بقدر ما تفقد العملة قيمتها . شيء ما فى ملامح الناس أتبين بعد التدقيق انه يتغير . لم تتبدل الملامح ولكن وجوها كثيرة اجهدت ذاكرتى لاستفزها وأنطق أسماءها . ذهبت الى جذورى فى قريتى كفر آمون التى تقع فى المثلث الجغرافى الذى يربط بين التل الكبير وبلبيس .

ركبت التاكسى بعد الظهر مع أربعة من رفاق السفر . وكل منهم وصل الى مقصده ، ثم ضل التاكسى فى الطريق . لم أكن أعرف قبلها ان قريتى بهذه الضآلة بحيث تاهت فى شبكة الدروب الصغيرة المتربة . حين قلت للسائق « الدنيا ضلمة ليه ؟» لم يعلق .. وكأنى أردد بديهية . ثم لمحت جسرا خشبيا مضاء بكشافين قويين وأدركت انه جسر قريتى « كفر آمون » . بعد أسابيع فى الكفر اكتشفت ان المكان هو المكان . القاهرة هى القاهرة . الناس هم الناس . لم يتغير فى الواقع ملامح أى شيء ، ولكن تغير الزمن لهذا عكفت منذ شهور على كتابة قصة قريتى ! القرية المنسية التى لم تصبها قوانين الاصلاح الزراعى لا سلبا ولا ايجابا !

قلت لالفريد فرج وأنا أستعيده مرة أخرى من حكايات قريته كفر آمون : لم أكن أعرف انك قرأت سلامة موسى وأحببته !

ابتهج الفريد فرج وقال : مثلما وصف طه حسين سلامة موسى أراه حقيقيا انه يخوض - فى وقت مبكر - غمار الأفكار الصعبة ولا يقتنع بالسهل الهين اليسير . انه رائد فقدناه كما قال العقاد يوم وفاته . فقد كان أسلوبه « يسبق عصره » .

قلت : أذكر انه فى الجزء الأخير من ثلاثية نجيب محفوظ (السكرية) صور نقطة التحول التاريخية التى أحدثها سلامة موسى فى جيل بأكمله .

قال الفريد : سلامة موسى الذى أحببته ووضع لبنات وجدانى ووجدان جيل ، يظل - بعد رحيله - أكثر حياة من أحياء كثيرين !

قلت : أعجبتنى عبارة قالها د. غالى شكرى فى دراسة ممتعة عن سلامة موسى . قال « القائلون لا .. على مر التاريخ ، هم بناة التاريخ دائما » .

أضاف الفريد فرج ، سلامة موسى وأبى علمانى أبجديات المسرح . سلامة موسى باستشرافه للمستقبل وأبى برواياته عن « الكفر » وحكاياته . كان أبى يحكى القصص بأسلوب تمثيلى وكانت متعة حديث أبى تذكرنى بمتعة قصص الجاحظ .

صمت الفريد وقال قرأت الشعر فى صباى وللشعر خاصية غريبة ، انه يعطى كنوزه وهو مسموع أكثر مما يعطيها وهو مقروء . وربما لأنى أعتقد وممكن تراجعنى فى اعتقادى ان « الدراما والشعر شيء واحد » .

سألت الفريد فرج سؤالا مفاجئا « هل وجدت العدل » ؟

ضحك بشدة ثم تلونت الضحكات بلون الشجن وقال: يقول النقاد عنى انى أبحث فى أعمالى المسرحية عن قصة العدل ويدهشك اعترافى انى لم أر العدل فى حياتى ، بل أنا أقل الناس استمتاعا بنعمة العدل . صحيح قضية العدل تشغلنى ولكن .. قل بعدها ما تشاء !

قلت له : كيف ترى « الشخصية الانسانية » ؟

قال بسرعة انها جهاز مركب لا مبسط . وأنا مسرحى - ان كان لى بيت مسرحى -

يتميز بأن أهم أدواته الرئيسية ، الانسان ذاته . لهذا أرى دوما انه فى مراحل التغيير الفكرى والحضارى والايدلوجى يصبح المسرح من ألزم الفنون . ففن المسرح عندى هو فن الجدل . فن صراع المتناقضات !

قلت لالفريد فرج : أنت صاحب « الاخوة الثلاثة » ١ ـ أبو الفضول الحلاق الذى سحب القاضى رخصته . ٢ ـ وبقبق الكسلان الذى يحلم ببنت السلطان . ٣ ـ وقفه الذى باع الحلم بثلاثين درهما ثم ندم وتبعه الى أقصى الأرض !

قال الفريد بسعادة : كل لغة فيها طاقة للفكاهة ، اشمعنى الفصحى ، قد كان فيها البحث عن لغة مسرحية فصحى بسيطة وقادرة على الاتصال الفكاهى التراجيدى ، لقد حاول توفيق الحكيم هذه المحاولة ، وأطلق عليها النقاد « اللغة الثالثة » ثم اكتشف انها لغة تصلح للنطق بالفصحى وتصلح للنطق بالعامية اننى أتذكر عبدالمنعم ابراهيم يوم سألنى فى البروفة النهائية لحلاق بغداد أنت مابتضحكش ليه ؟ فقلت له : لأنى المؤلف يا منعم ! فقال : لا .. فيه سبب آخر . علشان مكتوبة بالفصحى . وليلة الافتتاح تعانقنا وقد طاردنا زئير الضحك حتى بعد أن أسدلت الستارة .

قلت لالفريد : لماذا لم تعد لمصر . لبيتك المسرحى الذى هاجرت منه ؟!

قال بحدة : خرجت من مصر عام ٧٣ لسبب خارج عن ارادتى . وأرى المسرح فى مصر يمر باختناق شديد ، وكنت أخاف على نفسى من الاحباط ولو انى أرى ان مسرحياتى موطنها الأصلى مصر ، ربما الفتها فى لندن ولكن عبق القاهرة يفوح منها .

قلت لالفريد : ماذا يبقيك هنا فى لندن ؟

قال : وماذا يعيدنى الى جو مشبع بالاحباط ولو انى أرى ملامح ضوء لم أتبينه تماما . انى أعتقد أن أى نهضة مسرحية وراءها نقاد عظام . لقد تفرقوا . أين محمود أمين العالم ؟ أين لويس عوض ؟ أين رجاء النقاش ؟ أين على الراعى ؟ ربما كانوا موجودين بشخوصهم ، لكنهم خرجوا يبحثون عن المسرح ولم يعودوا .. وقد طالت غيبتهم !

تساءلت فى همس مسموع : هل هى أزمة مناخ سياسى ؟

قال يحدد كلماته ويضغط على الحروف : كانت أزمة مناخ سياسى ثم تفرعت الى مشاكل أخرى ، يصعب حلها ، بمعنى أن أبناء المسرح هجروه الى « روافد » أخرى ، تدفع أكثر !

قلت : فى الستينيات ، كان المسرح فى حالة رقى شديد !

قال الفريد فرج : نعم ، لأن كل شىء كان فى قمته .. ثم ان الثورة كانت فى حاجة الى المسرح وكان « ايمانها » به شديدا ، نتساءل : هل المسرح وسيلة للترفيه ؟ إذا كان الأمر كذلك فوسائل الترفيه كثيرة .. نتساءل هل المسرح منبر من منابر الثقافة ؟ وهل الثقافة مقوم من مقومات الأمة وعنصر من عناصر النهضة ؟ نحن أمة ـ ياعزيزى مفيد ـ تعيش فى مرحلة المنولوج ولن يقوم بالنصيب الأوفى فى التربية الاجتماعية للناس لكى ينتقلوا من مرحلة المنولوج قائلين أو متلقين .. الى مرحلة الديالوج إلا من خلال المسرح ، المسرح هو القادر على أن يميز بصيرتنا .. لنفهم

الديمقراطية فهما صحيحا وليس مجرد شعار ، فى المسرح نرى المتناقضات ، نرى الأبعاد بين الفكر والفكر الآخر والرأى والرأى الآخر . بين الموقف والموقف الآخر ليس فى السياسة ولكن فى كل شىء .

ولا تظن اننا لكى نلحق بالعالم الأول أو بالعصر ، نشترى شوية كومبيوتر . ونضعها فى بيوتنا ونشتغل عليها . ونقول (هيه ، لحقنا بالعصر) . هذا باطل ووهم كبير ! لابد أن نطلق ملكات الانسان المصرى للتطور . احنا بنتكلم سياسة . التغيير ، مش تغيير وزير الصناعة ورئيس التحرير ومدير المؤسسة الفلانية . هذا تغيير فوقى . التغيير لابد أن يكون فى الانسان نفسه لابد أن تطرح أمامه النقائض والخيارات ويتعلم كيف يختار سلوكه وتصرفاته من خلال الرأى والرأى الآخر ، الماضى والحاضر ، الليل والنهار ، الشمس والظلام ، المسرح ـ فى نهاية الأمر ـ هو الذى يطرح هذه الجدلية ويعلم الناس ويربى المجتمع على التفكير الجدلى وعلى التفكير بين النقائض وعلى الاختيار وبقول الرأى الآخر بلا تشنج . المسرح وأنا أرى من بعيد أوضح انه تعرض لحالة هجرة جماعية إما مختارين أو مرغمين أو بسبب ظروف طارئة . وعندما هجره أبناؤه ، احتار الجمهور ، أين يذهب ، فهاجر هو الى حيث هاجروا !

قلت لالفريد فرج : يبدو انك تشعر بألم كبير!

قال : نعم وهذا هو الذى يجعل هناك مسافة بين حماسى للعودة وتأجيل هذا القرار . اننى هنا فى لندن بين ٦٥ مسرحا يقدم ثلثها أفضل الأعمال . أنا هنا بين بيئة ثقافية راقية . أنا هنا فى مدينة ، المسرح يمشى ويعرض فى الشارع . تعال يوم أحد فى بعض الميادين ، ترى « منصة » وجمهورا . فى مصر خرجت المنصة ولم تعد ، وخرج الجمهور ، وطالت غيبته . وصدقنى يا مفيد ، ان تحقيقات مخلصة جادة عن حال المسرح فى مصر توقظ النائمين وتعيد المسرح للناس والناس للمسرح ، أفضل ألف مرة من الكتابة عن « كاتب مغترب » مثلى !

قلت لالفريد فرج : بالمناسبة ، كنت أرى أصدقاء أمس على العشاء . الصحفى الشاب الموهبة عماد أديب وزوجته الدارسة للمسرح هالة سرحان ، لقد هبطت هالة فى مطار قلب عماد أديب ولم تقلع طائرتها وفى تلك اللحظة ولدت « لحظة ميلاد » . تزوجها . كانت هالة سرحان تتحدث عن علم الحركة فى المسرح وكيف انه فى مصر يؤمن به قليلون ويتصورون ان الحركة فوق الخشبة عفوية ونصيب !!

قال الفريد فرج : المسرح بيت . منصة . ونص وممثلون . وعلم حركة كما قالت لك هالة سرحان ، والمسرح هو أبو الفنون ، وعلم الحركة تطبيقات رياضية لابد أن يحيط بها الممثل قبل المخرج .

قلت : الغربة صعبة ؟!

قال الفريد فرج : أنا أظن ان غربتى مضاعفة أنا مغترب لأنى بعيد عن الوطن . ومغترب أكثر لأنى أشعر دائما بمتابعة أخبار الفن والثقافة فى الوطن وهمومى الخاصة عن حالة الثقافة فى الوطن قد تفوق حالة زملائى داخل ضلوع

الوطن . ربما تمكنت أنا أن أعرف أشياء أكثر بغربتى وهى نفس الاشياء التى أبعدتنى عن أبناء مهنتى . أنا أشعر انهم لا يفكرون مثلما .. افكر . أنا أرى مثلا ، انه لن يكون فى بلادنا تليفزيون جيد أو سينما جيدة ما لم يكن المسرح فى القمة ، لأن المسرح هو أبو الفنون الدرامية . وأنا أرى مثلا ، ان أبو الفنون مريض ، فاذا مرض « ماتقوليش أنا ايدى أو رجلى مش عارف احركها لأن الايد والرجل تشفى اذا شفيت الراس .. » أنا أتساءل - وأجرى على الله كما يقول يحيى حقى - هل الدولة غير قادرة على ترميم مسرح الأزبكية ، ليس ترميم الجدران انما ترميم الروح . ان المسرح أولى بالترميم من أى اهرامات أو قصور أو قلاع أثرية قديمة ! هل من المعقول الا يستطيع مسرح الأزبكية أن يعول ممثليه .. فى حين يملك المسرح الخاص أن يدفع لنجومه . هل اللوائح المالية تعوق ابداع مسرح الدولة ؟ أغيرها . نعم وأدعو الى تغييرها .

أنا أدعو المسرح المصرى أن يرسل بسؤال مكتوب الى المسرح القومى الانجليزى أو رويال شكسبير كومبانى . ويطلب لائحة أجورهم ، ونجومنا ليسوا أقل من النجوم الانجليز ان لم يكونوا افضل . وعلى ضوء الاجابة على السؤال نقرر تغيير اللائحة بشجاعة .

سألت الفريد فرج عن بعض « الأسماء » المرموقة فى دنيا المسرح .

١ . سألته عن « سعد وهبه » فقال :

سعد وهبه يستطيع أن يعطى المسرح أفضل وأكثر مما أعطى لو رجع لأصوله وهى الريف ومفارقات العلاقات ويكف عن المسرح المباشر . وأفضل أعمال سعد وهبه هى كوبرى الناموس والسبنسة وسكة السلامة .

٢ . سألته عن « على سالم » فقال : على سالم مؤلف مهمل فى ناحيتين ، فى تطوير مسرحه وفى توسيع مجال الحركة كمؤلف وعلى سالم كاتب مسرح لا يصبر على فكرته لتزداد نضجا وعمقا انه يطرب للفكرة ويكتبها بسرعة دون أن يتأنى أو يتأمل ، لكن هذا لا ينكر ان على سالم أكثر الواعدين فى جيله . فهو الذى بدأ ساطعا .

٣ . سألته عن « د. يوسف ادريس » فقال : يوسف بدأ بالفرافير وكانت هذه المسرحية بابا واسعا للمسرح المصرى ، ثم أغلق يوسف الباب وذهب الى مسرحيات فى مجال آخر . ليته يعود للفرافير لشكلها وأسلوبها . الفرافير عمل مدهش حقا وساحر .

٤ . سألته عن « نعمان عاشور » فقال : نعمان هو الآخر يبحث عن « المنصة » التى ضاعت وخرجت ولم تعد . ان نعمان فنان كبير ولكنهم أحبطوه فلا منصة ولا بيت ولا ستائر ترتفع .

٥ . سألته عن « أنيس منصور » فقال : أنيس له عمل واحد هو حلمك يا شيخ علام وهو مقتبس ولكن لا بأس مادام الكاتب يضع فكره فيه ، ولكن المسرحية - فى معايير المسرح - عمل متواضع .

٦ . سألته عن « محمود السعدنى » فقال : محمود السعدنى فى المسرح زى عبدالعزيز محمود فى الغناء الشعبى .

٧ـ سألته عن « محمود ياسين » فقال: فنان كبير موهوب لا أدرى لماذا لم يكون مع نور الشريف وأحمد زكى فرقة مسرحية تعوضهم عن الارتماء فى أحضان السينما . مش شايف لورانس أوليفيه أو بيتر بروك أو جان لوى بارو .

٨ـ وسألته عن توفيق الحكيم فقال لى: ان مسرحيات الحكيم الذهنية لم تنجح على المسرح ، وأظن انها لم تنجح إلا فى مسارح الجيب والطليعة .

وقال الفريد فرج وهو يتذكر شيئا : عندما كنت شابا صغيرا لا يعرفنى أحد . أخذت احدى مسرحياتى وذهبت للأستاذ الحكيم فى مجلس الآداب والفنون وكان قد أنشىء حديثا . وجلست اقرأ أمامه بعض الصفحات الأولى . وكلما قرأت وقطعت شوطا فى القراءة . قلت له : كفاية بأه احنا تعبناك ، فيقول : لا .. دى حلوة أوى .. وأشهد انى قرأت له المسرحية كاملة على مدى ثلاث ساعات وتوفيق الحكيم بيقظة شديدة يتابع . لم أكن أتصور يومئذ ان توفيق الحكيم يتابع ـ بهذا الاهتمام ـ انتاج شاب مثلى !

٩ـ سألته عن « سمير خفاجة » ، فقال وهو يضحك : سمير خفاجه جرى فى حارة سد ، فاذا بالناس كلها تجرى وراه ولعل سمير خفاجه نفسه أول من تنبه ان الحارة سد . ومن بين هؤلاء الذين جروا ، القطاع العام . أظن هذا . ان لم يخطئنى التقدير . الناس تذهب الى المسرح لتضحك . نعم لتضحك . ولكن ليس لتضحك فقط . وهذا يحتاج لبعض التأمل . هل تتصور ان الناس كانت تذهب لأم كلثوم وعبد الحليم وفاتن حمامة لتضحك ؟! انهم يعلمون مقدما ان أم كلثوم وعبد الحليم وفاتن ، سيوقظون بشكل أو آخر مواجعهم ومع ذلك يذهبون لماذا ، لأن الانسان يحب أن يشحذ مشاعره . الانسان يحب أن ينفعل مع بصائر الناس على الشاشة أو على المسرح . يحزن ، يضحك ، يدهش يلعب . يمرح ، يفكر ! الانسان متعدد المواهب ، فهو ليس حيوانا ضاحكا . انه ضاحك وباك ومتأمل ومفكر وفاضل و.. أخلاق . لماذا نجرى جميعا لنضحك . لماذا نريد أن نزعزع الناس . انها حالة تدعو للدهشة الشديدة ! وأغلب الظن انها طريقة ليست أسهل فقط بل لعلها « الأربح » ! وياويل أمة ضل مسرحها !

سقطت الأمطار .. من خلف النافذة ، ودوى الرعد فى سماء لندن ولمع البرق . ولست أدرى لماذا كان هذا السؤال على لسانى، لعلك تابعت من بعيد خلاف الرأى بين وزير الثقافة ود. يوسف ادريس .. دون أن ندخل فى تفاصيله ، ما موقعك من « الصيغة » .

فقال الفريد فرج : أريد أن استأذن الاثنين فى القول . انه لا ينبغى لوزير الثقافة ان يدخل طرفا فى معركة رأى بين المثقفين لأن وزير الثقافة يمثل الدولة ، والدولة من شأنها ان تكون محايدة فى أى معركة بين المثقفين . ووزير الثقافة هو مثقف أو مفكر فى اجازة . يعنى طول ما هو وزير ثقافة يجب أن يكون فى اجازة من العمل المباشر فى مجال الثقافة . أنا لا أصادر رأيه ولكنه يجب أن ينأى عن أى صراع فكرى أو أى صراع فى الرأى .

ذات مرة ، أبدى وزير الثقافة فى حكومة ديستان رأيا فى مسرحية ما ونشر أحد الصحفيين رأى الوزير . قال انها « لم تعجبه » . فاضطر وزير الثقافة أن

يكذب الصحفى وينكر انه أبدى رأيه ، وقال يومها بحضارة : « أنا المواطن الفرنسى الوحيد الذى لا يستطيع أن يعبر عن رأيه فى المسرحيات التى تدعمها الوزارة . أنا مشاهد صامت ، والصحفى قد تجنى على .. لأن الوزارة هى الدولة » .

وصمت الفريد فرج ، كمن تذكر شيئا آخر بتداعى المعانى .

بمناسبة فرنسا ، نسيت أن أقول لك ، اننى دعيت الى فرنسا ذات عام قريب لأن اليونسكو راعه أن ينخفض عدد رواد المسرح من ٢٢ مليونا سنويا الى ١٩ مليون مشاهد . اعتبروها مصيبة كبيرة وعقدت الندوات فى كل مكان وكان هذا هو الشغل الشاغل للاذاعة والتليفزيون . تفتح التليفزيون فى أى لحظة ، تجد مفكرى فرنسا يتدبرون الموقف ويحللونه . تفتح الاذاعة ، تسمع مواطنين عاديين يشرحون لماذا انصرفوا عن المسرح الفرنسى . تقرأ فى الصحف مقالات تتناول الظاهرة بأسى . ولا أظن انى قادر على اضافة أى تعليق على ما أرويه لك الآن !

قلت لالفريد فرج : اذا كانت الصحافة « مهنة رأى » فماذا يكون المسرح ؟

قال : « مهنة فكر » .. لأن الفكر قوامه المسرح ، وأنا ضد استخدام كلمة « ايدلوجى » لأن استخدامها أقرب الى الدعاية . الفكر أفضل . وربما تعلم ان الكتاب المسرحيين يوضعون فى بلادهم موضع الفلاسفة مثل شكسبير وشو . وهذا يثير سؤالا : التأليف المسرحى هل هو فن أم أدب أم فلسفة ؟ شكسبير ـ مثلا ـ يعتبر المبشر بزوال الاقطاع .. كفولتير . شو هو أبو حزب العمال ، ومن آباء الاشتراكية الغابية . نحن نسمى توفيق الحكيم مفكرا من باب ريادته للمسرح المصرى ولأنه نقل المسرح المصرى الى موقعه الطبيعى من الفكر .

سألت الفريد: هل عوضك الفن فى أوروبا عن فن مصر؟

انتفض كعصفور وقال : فن مصر لا يعوض ، ومهما عرضت لى مسرحيات على مسارح بلاد أخرى ، فشعورى بالسعادة دائما ناقص !

الفن فى أوروبا ، كالبلور الصافى . فن معقم . وفى مصر ، الفن فيه التحام ، أسخن فن فى العالم ، وأمتع ، رغم قصوره ، فن له قلب !

قلت لالفريد: فى سنوات الاغتراب، هل اكتشفت مناطق أدب جديدة لا نعرفها ؟!

قال : نعم ، وكانت التجربة فى الجزائر . وأظن ان المغترب ـ مثلى ـ يزداد خبرة ومعرفة بالاغتراب ، فى الجزائر ـ يا عزيزى مفيد ـ أدب جيد جدا لا نعرفه فى مصر والشرق ، لماذا لا نعرف عبدالحميد بن هدوجه وطاهر وتار ورشيد أبو جدره وكاتب ياسين . لقد كان لى علاقات عميقة بكبار مثقفى الجزائر .

قلت : وأنا أراقب ثريا العجيزى زوجة الفريد فرج وهى تصب فناجين القهوة بانتظام لزوجها كلما فرغت: ما دور الزوجة فى الغربة ؟

قال : الزوجة تساعد على الصبر ، والاغتراب من سماته الصبر والوحدة .. والكآبة . انت ـ حين تغترب ـ تتطلع دائما الى العودة غدا . فالصبر هنا قضية

أساسية ، ثم ان الزوجة تساعد على الانتاج ، ففى غربتى كتبت مسرحيات مصرية مائة فى المائة ولم أنقطع عن التاليف . آخر عمل فنى لى هو السندباد وحكايات الزمن الضائع .

قال الفريد فرج وأنا وجهاز التسجيل ، نصغى . فاتنى أن أقول لك .

● انى أمرق عامى الخامس والخمسين .

● وان أقسى أزمة تواجه مسرحنا هى عروض بلا مستوى ومسارح بلا جمهور ومنصات بلا ممثلين .

● واننا بحاجة الى مسرح رأى لا مسرح رؤية .

● وان جان أنوى قال يوما (أجيد صناعة الضحك والبكاء لأنهما وجها الانسان) .

● وان المسرح ليس فى الحقيقة مرآة عصر ، بل وسيلة لتحويل مجرى العصر .

● واننا جميعا نحلم .. والمهم نوع العالم .

● وانه علينا أن نتنبه كما يقول جارودى لـ «الحرية التى تطمس الحريات لنصوغ منها العبوديات » .

● وان تقسيم د. زكى نجيب محمود فى كتابه « الشرق الفنان » ان الشرق مهد الفنون والغرب معمل العلوم .. صحيح .

● وانه يذهلنى ان تخلو برامج « المعارضة » أثناء الانتخابات المصرية من الدعوة .. للثقافة وكأن الانسان مولود للسياسة !

● وانك تستطيع أن تضعنى فى اليسار العربى ، كمفكر سياسى .. فأنا أنتمى لفكر ثورة يوليو !

● وان مسرحى متنوع ، تاريخى ، وتراث وتراجيديا .

وان من أفضل انجازاتى ـ كما قال النقاد ـ انى طوعت التراث الشعبى للشكل الدرامى الحديث كما ترى فى مسرحياتى الزير سالم وألف ليلة .

وكان الليل فى المنتصف . والشوارع خالية إلا من عدد قليل يتغطى بشمسيات سوداء ، فقد كانت السماء مازالت تنتحب ، ونحيب سماء لندن لايعرف الاعتدال !

ونزل الفريد فرج و«مجداف» قاربه فى الحياة والغربة زوجته ثريا ، يحملانى الى «جلوسترود» حيث أقيم ، وفى السيارة ضغط الفريد على زرار صغير وانطلق صوت عبدالوهاب القديم «ياترى يانسمة ...» .

فى تلك اللحظات الصافية ، يصدق الانسان .. فطرحت على الفريد سؤالا تقليديا : ماهى السعادة عندك ؟

ورغم تقليدية السؤال ، فقد شرد منى وفكر .. وقال : سعادتى مهنية .. ورق وقلم وحرية تعبير ومسرح يجسد هذا الفكر . وستارة ترتفع وجمهور غفير وناس سعداء وزئير ضحك .. أو نشيج بكاء !



سميحة أيوب

« ضعف امرأة قوية ! »

■ كنت أعامل « سميحة أيوب » بحذر، لأنى أعرف أنها - على حد تعبير الشاعر فاروق جويدة - « تجرح حين تمزح » ! كنت أقابلها أحياناً فى مناسبات مختلفة، فنتبادل التحية وبضع كلمات مجاملة ويذهب كل منا فى طريق، وأظل أحتفظ لها بصورة « ممثلة المسرح القديرة » فقط، ولكنى لا أعرفها كإنسان .. لم أرها مطلقاً فى لحظة ضعف .. لم أر دموعها فى أوقات تفرض الدموع ! لم أرها ضعيفة كامرأة ! دائماً فى حالة « قوة » .. وكأنها امرأة تخاصم الضعف البشرى ! إن نادية لطفى . امرأة قوية . ولكنى رأيتها كأم قلقة على ابنها والدموع خلف مآقيها، وفاتن حمامة، امرأة قوية . وفى لحظات الغربة لمحت حنينها الجارف لمصر ودمعة على خدها !.. أما سميحة أيوب فهى تحافظ على « إيقاع » القوة وتضبط نفسها على عقارب الصلابة، وإذا مزحت، جرحت !

ذات ليلة، التقينا .. سميحة أيوب وأنا فى العاصمة الأردنية عمان، ودعوتها للعشاء فى مطعم تركى قريب من الفندق الذى نسكن فيه، وتكلمنا عن الفن ثم لا أدرى كيف دخل الحوار قناة الخصوصية .. تكلمت عن أولادها وكيف يحرقها الشوق إليهم تكلمت عن ابنها علاء محمود مرسى وكيف انها رأته فى الحلم وتشعر بالقلق عليه .. قطعت حديثها المسترسل وقالت إنها تحب هذا المقطع الذى تغنيه فيروز « عندى حنين ما بعرف لمين »، وعادت سميحة أيوب تقول : إن السفر يساعد الانسان على لقائه بنفسه بعد وحشة ورأيتها تمسح دمعة تسربت رغم أنفها ! و .. لم أصدق ما أرى ..!

نعم أنا أجرح حين أمزح !!

أدهشتنى سميحة أيوب التى أراها ، لكنى كتمت دهشتى فقط قلت لها « تمزحين فتجرحين .. لماذا ؟» .

قالت : « لأنى فى حالة دفاع دائم ومستمر عن النفس .. أضع أقنعة . تماماً مثلما يحمى المحارب صدره بالدروع ، وقلما أخلع هذه الاقنعة ، أنت يا سيدى فى غابة .. هذا زمان الأقوياء .. ويل لمن يكشف عن ضعفه .. تأكله الاسود وترميه عظاما للبوم !» .

لم أقاطعها بكلمة أو همسة ، أو حتى بإيماءة .. شعرت - كمحاور - أن سميحة أيوب تبوح حين « أنكشها » وأصغى لها ..

وولدت فكرة حوار معها .. فى بيتها ، فى غرفة معيشتها وأسعدتها الفكرة !

انطباعى عن تلك الليلة والليالى التالية التى تقاسمت فيها الحوار مع سميحة أيوب ، كأننا - معاً - فى مركب ليس له شراع ، وليل بلا أفق .. ربما ساعد على هذا أن القمر كان مكتملاً وسميحة أيوب يسعدها « اكتمال » القمر وتحس أنها صديقته منذ صباها حين كانت تتحاور معه وتبثه أحلامها البكر وأحزانها الغامضة !

اكتمال القمر يجعل سميحة أيوب فى حالة « طفولة » بدليل قطعة الثلج التى « تقرقشها » أمامى الآن ! وعندما قلت لها إن « أريك سيجال » فى روايته الشهيرة « قصة حب » جعل الثلج ديكوراً لأجمل لحظات الحب ، حيث كان الحبيبان يتراشقان بكراته .

قالت : « أما أنا ، فقد كنا نتراشق فى الفلاحين بكرات الطين » !

وضحكت سميحة أيوب ضحكتها المجلجلة التى لا تخلو من رنة سخرية !

قلت لسميحة « لازلت وفية للقمر ؟» ..

قالت : تسللك الهادى جعلنى أخلع اقنعتى وأجيبك بلا تحفظ .. نعم مازلت .. المهم أن نبقى ولا نتبدل ولا نخون رموز طفولتنا حتى لو خانتنا !

ثم صمتت برهة ، شربت بعدها رشفة من فنجان قهوتها البارد وقالت : « لو فقدت هذا الجزء من داخلى ، ضيعت الفنان .. لهذا أحرص عليه من تضاريس الزمن وغدر الأيام »!

قلت لسميحة : إن صديقتى مذيعة التليفزيون الشهيرة ليلى رستم امرأة صلبة فى الواجهة التى تواجه بها الناس ، ولكنها ضعيفة عن قرب !

قالت سميحة عثمان أيوب بسرعة : « كل امرأة قوية ، هى ضعيفة تنقذ نفسها من ضعفها .. مرة بادعاء القوة ، ومرة بسلاطة اللسان ومرة بالسخرية ، إنها أقنعة مختلفة يا عزيزى !

قلت لسميحة : حين امتدت يدك لمصافحتى ، شعرت بيد قوية لامرأة تحرص على كينونتها ، وقامتك قامة امرأة تستحم فى بحر الثقة ، ووجهك وجه امرأة محددة المطالب من هذه الحياة ، وخطوتك تعرف موقع قدمك ، وصوتك ينبىء عن شخصية عاركت الأيام .!

قالت وهى تضحك : « صدقنى هذه صناعة محلية » !

قلت لها : « تقولين هذا عن تواضع ؟! »

قالت : بالعكس : لم تكن هذه سميحة أيوب ، كانت أبسط من هذا بكثير .. أنت

تعرف كما يقول بيكاسو أن «كل طفل فنان » والمشكلة ، كيف يبقى الإنسان فناناً حتى يكبر ، لقد كنت خجولة وشنقت خجلى . كنت مترددة وذبحت ترددى ، علمتنى الأيام أكثر مما علمتنى المدارس والمعاهد ، أعطتنى التجارب خلاصة الحكمة فى الحياة ، صنعت بإرادتى سميحة أيوب جديدة تلائم أخلاقيات هذا الزمان .. سميحة التى ظللت أنت تعاملها بحذر وتردد وتخشى أن تمزح فتجرح !!

□ أنا صناعة محلية وكان تكوينى هشا !

واستطردت سميحة تقول « كنت رقيقة ، النسمة تجرحنى ، كان تكوينى هشاً .. كنت أبكى بلا سبب .. كنت أدافع عن نفسى بالدموع .. كان إذا استشهد أحد بى فى واقعة ما ، لا أجرؤ على تكذيبه ! كنت أتمنى أن أواجه الناس بالحقيقة . فجاء من همس فى أذنى « يا ميكا » ـ وهذا اسم الدلع الذى يناديني به المقربون ـ لا تحولى الناس إلى أعداء لا أحد يحتمل الحقيقة سافرة .. ومن هنا جاءت حكاية أجرح حين أود أن أمزح دون ألم وبلا صدمة ودون أن تسيل الدماء ! أصبحت أواجه الآخرين وقطار العمر يمضى بى وصرت إذا استشهد أحد بى فى أى واقعة لم أكن طرفا فيها ، نفيت بلا خوف أو رهبة ! كانت جرأتى تدهشنى ويذهلنى صوتى ، ثم تعودت على المواجهة .. تحملت الكثير لأصل لهذه المرحلة .. مرحلة القوة ، وذقت طعم الصدمات وجربت الفشل الخاص فى حياتى ، لكنى ما عدت تلك البنت الهشة التكوين التى تغرى بالاغتيال ، ولذلك أعترف لك أننى صناعة محلية .. فسميحة أيوب ، مختلفة عن سميحة عثمان أيوب .. لقد وصل بى الأمر ـ وأنا ممثلة ـ أن أطلب من مخرج ما أن يسمع صوتى وأخاطبه هكذا .. أنت ديكتاتور ولا تطيق أن تسمع رأيا يخالفك .. اسمع بكل أدب وجهة نظرى ، فقد تتراجع عن هذا العناد ! كنت أقول هذا الكلام وأنا معجبة بنفسى .. فإذا به يصغى ويعترف بوجاهة ما أقول !

قلت لسميحة : « تحبين معاملة الأذكياء ؟» .

قالت : « لأن الأغبياء يضيعون الوقت » ! وقالت : « فى العمل يهمنى الذكى قبل المشتعل عواطف .. فليس فى العمل سوى عملة الذكاء . أما العواطف فهى لعبة غير الموهوب ! »

قلت لسميحة أيوب : « مم تخافين من المرأة ؟» .

قالت : أخاف من عجزها .. العاجزة تخربش وتحقد وتنبش أظافرها وتتحرك أشواك القنفد داخلها !

سألتها : « هل تحبين المعارك ؟»

قالت : لما تستاهل .

قلت : تسعدك الاستعراضية ؟

قالت : « من خلال عمل .. أما الاستعراضية الجوفاء فهى تضر بالفنان والإنسان !» .

قلت لها : « الجدية واحدة من ملامحك الأساسية » .

قالت : « الجدية اكتسبتها من التعامل مع الحياة ، المشاع عن المرأة أنها مائعة ، فإذا كانت أنثى ، استثمرت أنوثتها .. أنا أعتقد أن الجدية غير المنفرة وجه صادق للمرأة الملتزمة .. ورغم أنى امرأة جادة فأنا ساذجة أحيانا ! »

أنا ساذجة أحيانا ولكن شكلي يخدع الناس

ابتسمت وقلت : « ساذجة » ؟ لا أصدق !

قالت : شكلي يخدعك .. ويجعلك لا تصدق الإنسان الطيب داخلي .. وأنا أعرف أن الكثيرين يعاملونني بحيطة .. كم يجني شكل الإنسان وصوته عليه ؟!

يا سيدي انني أغلف خجلي ، فيظن الناس اني « السبع » كالنحلة أو أبطش بكلمة .. والمشكلة أمامي هي كيف يرى الناس حقيقتي ..

وإن كان المهم - بالنسبة لي - هو وجه سميحة أيوب الممثلة !!

للكاتب الفرنسي بومارشيه عبارة دقيقة تقول : «لاتقل المرأة إلا ماتود أن يعرفه الجميع» ! وبلزاك يرى أن قلب المرأة «تيه يضل السارى فيه السبيل» وأذكر أن إينوك ايميه قالت لي وكان عمر الشريف يقدمني لها في باريس «تفقد المرأة كل سحرها ودلالها وعمق شخصيتها حتى تصبح كتاباً مفتوحاً أمام الرجل أو.. القراء» .

فهل تحاول سميحة أيوب - عبر هذا الحوار - أن ترسم لنفسها أمامي وأمام قرائي صورة من وحي تفكيرها ؟! هل تريد الفنانة أن تقدم صورة للانسانة ؟ هل تتكلم سميحة بوعي الفنان الذي يعرف أن هذا الحديث سوف ينشر ؟ لقد حيرتني هذه النقطة فصارحت سميحة بها وقلت لها : « أنت لست في حاجة إلى اقناعي ، لأنك ممثلة قديرة ، بنبرات صوتك المختنقة سوف أصدقك » !

وغضبت سميحة أيوب ووضعت فنجان القهوة الرابع أمامها في عصبية ! قالت .. احتفظ بالشريط ولا تنشر الحديث ! ربما تحتاج إليه يوماً ما عندما أسكن التاريخ ! أنا أفتح لك قلبي وأتحدث معك عن سميحة الصناعة المحلية ؟ سميحة التي كانت تتصور أن الدموع تحل مشاكلها فاكتشفت أن القوة هي الحق وما دمت على حق .. فأنا قوية .. سميحة التي تعترف لك أن جديتها مكتسبة . سميحة التي تخفي دموعها حتى لا تفضحها . سميحة التي « تسخر » من نفسها أمام الآخرين حتى تسد الطريق أمام سخرية الآخرين منها .. فأسقط ! سميحة التي تعتمد على احساسها الفطري وهو هبة من الله وليس على حساباتها الدقيقة كما يتصور البعض من زملائي وزميلاتي ! سميحة التي تحمي نفسها بالأقنعة حتى تقف في الحلبة كالرمح .. هذه هي سميحة عثمان أيوب . امرأة قوية لأنها اكتشفت معنى الضعف الخاص .. انه لرجل أريده في حياتي ويربطني به رباط اجتماعي أنا امرأة قوية .. نعم لأني أعرف ما أريد .

لقد تركت أولادي في سن مبكرة وأنا أم حنون لأصنع سميحة أيوب . لقد صارحني ابني « علاء » بهذا المعنى في آخر لقاء به . أنا صديقة أولادي وأعرف مشاكلهم حتى العاطفية . ونتشاور أنا ووالدهم الفنان محمود مرسي في هذا ! ..

قاطعت هذا الاسترسال وقلت : « كم عمر زواجك من الكاتب سعد الدين وهبة ؟» .

قالت : بسرعة « ٢٣ سنة » .

قلت : هل أنت حرم سعد الدين وهبه ؟

قالت : لا . أنا سميحة أيوب .

ذات مرة أتصل بنا التابعي وقال مدام وهبه ؟
قلت له : لا النمرة غلط .
بكل بساطة أنا سميحة أيوب زوجة سعد وهبة .
قل نرجسية . قل ما تشاء !!

☐ أنا لست مدام وهبة أنا سميحة أيوب

☐ لا أحاسب المرأة الاخرى واحاسب زوجي

كانت نبرة حديث سميحة أيوب تنطق بالقوة وهى تنطق اسمها فسألتها لأثقب هذه القوة « ممن تغارين كامرأة ؟» .

قالت : ممن تهدد مكانى عند رجلى .

حاصرتها وقلت : « صفى لى هذه المرأة !» .

قالت : « أنا لا تهمنى الست . ليس لى علاقة بها . أنا يهمنى سلوك الرجل .. اللى عاهدنى .. وعاهدته . أنا مليش دعوة بها . أذكى منى ، أجمل منى . هذا لا يهم . المهم هو ! الحساب معه ، هو ! بالعكس . قد أقابلها وأبادلها التحية ولا أهاجمها !

سألت سميحة أيوب عن تجارب الزواج فى حياتها وأنا أعلم أنها تزوجت ثلاث مرات الفنان محسن سرحان . والفنان محمود مرسى والكاتب سعد الدين وهبه (٢٣ سنة زواجا) .

قالت سميحة .. الحياة تسير . فى بعض الأحيان هناك أمواج وأحيانا نتوءات . وأصارحك بحقيقة بسيطة ، عندما يتزوج اثنان فهما يكونان شركة فإذا اختلفا قليلا فهذه عافية للعلاقة . فإذا اختلفا كثيرا وكان بينهما حب ، اشتريا نصيبهما فى الحياة وحافظا على الشركة ، فإذا استحال التفاهم ، يفضون الشركة !» .

قلت لسميحة : هل تكررين أخطاءك ؟

قالت : من منا لا يكرر أخطاءه ثم يكتشف أنه كرر نفس الخطأ ، ثم يعود لنفس « النقرة » .. الإنسان طبيعة لا تختلف ازاء مواقف الحياة ! قد نندم ولكن كما تقول أم كلثوم « تفيد بأيه يا ندم » . الحياة صعود وهبوط . المعاشرة حياة والشغل حياة ، لا شيء يستمر كما هو . ولا شيء يتوقف ، هل يتوقف النهر عن الجريان ؟!

قلت لسميحة « هل أى قرار يسبقه لحظة نفسية .. بمعنى أدق هل هناك محاكمات هادئة بينك وبين نفسك ؟

قالت : هناك جلاد ومحاكمات فى الفن وفى الحياة وبالمناسبة لا تستطيع أن تفصل الفن عن الحياة بالنسبة لممثلة . الفنانة تحيا . تحيا كفنانة وكإنسانة الاثنين متلخبطين . كالماء والزيت لا يمكن فصلهما .

قلت لسميحة أيوب : لقد ذكرتنى عبارتك بشيء مهم جداً سأطرحه عليك وصارحينى بحقيقته :

قالت لى مرة اينوك ايميه وهى نجمتى المفضلة أداءً وجمالاً .. إن مشكلتى مع حبيبى الأول أنه لم يكن يستطيع أن يفرق بين اينوك ايميه الممثلة .. واينوك ايميه الانسانة . وكان حبيبى حين يناقشنى فى أمر ما وأرد عليه . كان يوجه لى إهانات قاسية بعبارات بسيطة . كان يقول لى « أينوك أنت تمثلين » . لعلها مشكلة المرأة الفنانة . كيف تقنع الرجل القريب منها . أن هناك انسانة داخل هذه الفنانة !!

قالت سميحة أيوب « مشكلة المرأة الفنانة . ان الرجل القريب منها يأخذها

بحذر . إنه يشعر أنها ممثلة عظيمة وقادرة على تصوير أى احساس بمهارة بالغة ويحس أن لحظات ضعفها « مصنوعة » ولحظات عطائها مصنوعة .. وتبراتها الضعيفة التى فيها شبه استجداء فى لحظة صدق .. مصنوعة ! إنه أكبر عذاب فى حياة امرأة فنانة . هذه المرأة تشتاق للصدق والعفوية وللتلقائية وللطفولة .. هذه المرأة ليست قطعة مطاط وليست عروسة خشبية تتحرك بخيوط . هذه المرأة انسانة من لحم ودم واحساس ومحال أن تكون كل حياتها مصنوعة . ولكن كيف يقتنع الرجل . كيف يقتنع أنها ليست قوية إلا امام الناس فقط . كيف يقتنع أنها تشتاق لأن تتكوم كقطة فى صدر رجل وأنها طفلة .. وأنها أسقطت فى لحظة كل الأقنعة وتتعرى نفسياً و« مصاريفها تبان » ! حين يعامل الرجل المرأة الفنانة بحذر فهو معذور ولكنه يفقد كنزا نعم لأن المرأة الفنانة هى امرأة قبل ان تكون فنانة . هى صانعة المرأة الثانية ، لكن الأولى فطرية . خسارة أنه لا يلتفت لهذا .

إن فن المرأة الفنانة المجيدة يجنى عليها .. تماماً كما تكتب ـ وأنت كاتب لك أسلوب ـ خطاباً إلى حبيبتك ، ربما تظن أن عواطفك تختفى خلف أسلوب جميل وقد تشتاق إلى أسلوب ركيك صادق !

المرأة الفنانة ، يجرحها أن يعاملها الرجل القريب منها بحذر . يجرحها عدم تصديقه . تجرحها نظرته المتأرجحة بين الحلم واليقظة ! تسألنى ما هو الشىء الذى يرضيها . أقول لك أن ينصهر الرجل ويرى جوهرها يحس بما يختفى من مشاعر وراء هذا القفص الصدرى . ينسى الشكل والاسم والمهنة . ينسى المعجبين والشهرة ويلتفت إلى المرأة بعطائها وصدقها دون أى « زينة اجتماعية » ولو فشل فسوف يظل يتعذب ولن يقتحم هذا الجبل الذى يهمس له مستجدياً « أنا لا جبل ولا حاجة . أنا مخلوق احتاج إليك » !

طلبت من سميحة أيوب فنجان قهوة ، فقامت وبعد قليل عادت به .. وكنت أستعيد كلمات يوسف ادريس « إن الانسان نفسه ليس سوى ظاهرة خلقت لتستفز كل ما فى الكون من مادة وجماد وحيوان وحتى الانسان ، وبقدرات الخلق الاستفزازية يحولها إلى ما يشبه الحياة أو الحياة الأسمى » نعم إن حوارى مع سميحة عثمان أيوب أخذ شكلاً مستفزاً فأفرجت عما تخبئه .. وربما أخذ نمطاً تصادمياً فجعلها فى حالة « دفاع » عن النفس ، فأخذت « تبوح » !!

قلت لسميحة : أنت ـ عفواً ـ أم فاشلة . لم تعرفى الأمومة إلا ربما بضعة شهور . وكلما نظرت فى صورك وأنت أم ، ابتسمت ولم أصدقها !

□ اعتمدت على والدتي في تربية أولادى لأسباب !

قالت : أنا اعتمدت على والدتى فى تربية أولادى . وكان المسرح قد نشلنى حتى من حياتى الخاصة . وثق تماماً وأنا أتحدث معك وأفكر بصوت عال أن حياتى اضطربت . اعتمدت على أمى فى تربية أولادى حتى لا يتسلل إلى حياتهم هذا الاضطراب . كنت أذهب إلى المسرح وابنى مريض واستطعت ، اعترف لك ، أن أصنع سميحة أيوب . ثم كبر الأولاد فى غمرة الزمن واكتشفت أن الحوار غائب بينى وبينهم . وكنت أراهم كما تقابل إنساناً عزيزاً فى صالة الترانزيت ..

وبعد هذه السنين الطويلة كنت أسافر لهما فى أمريكا ، وأعترف لك ، تعرفنا على بعض .. أحدهما الأصغر ـ علاء ـ يدرس الجيولوجيا فى أمريكا والثانى يدرس

الإخراج ، كل واحد منهما يعيش فى ولاية .وقد اكتشفت أعماقهما وعرفت كيف يفكران فى ولم يغضبنى هذا التفكير ، الغربة ـ صدقنى ـ تفتح مسام الإنسان ، وتنضجه ربما قبل الأوان . هما يعتبران أن الفن سرقنى من الأمومة ، وهذا صحيح رغم أنى أم حتى النخاع . وأنا أعتقد أن حياتهما نضجت حين أصبح من المهم عليهما مواجهة الحياة فالأب فنان يشغله الفن والأم فنانة التهم المسرح وقتها كله .

□ أنا لست مخلوقا حجريا وأعرف اللهفة والأشواق !

قلت لسميحة : هل أنت انفعالية ؟

قالت : « الانفعالية ، خاسرة » .

قلت لها : فى بكائك نشيج أم نهنهة أم ماذا ؟

قالت : « حسب كثافة الحالة . وبكائى دائما يحمل معنى الأسف على أشياء كبيرة . ومن الممكن أن أبكى فى صمت » .

سألتها : « هل تسألين الآخرين فى قراراتك »؟

قالت وهى تضحك : نعم .. تقدر تقول باعمل استفتاء على ما اتخذه من قرارات وأطلع فى قرارى القطط الفطسة حتى لا أشك فى سلامة تفكيرى !

قلت لها : « هل قراراتك كلها سليمة ؟» .

قالت : بعضها طلع غلط فى العلاقات الانسانية .

قلت : « ماذا أفشل هذه العلاقات ؟» ..

قالت سميحة : زعزعة الثقة بين الطرفين !

قلت لها : « هل أنت معتزة بعقلك؟» .

قالت : هو نوع من النرجسية المستترة !!

قلت : « ما حجم التلقائية فى سلوك سميحة أيوب ؟» .

قالت : أنا إنسانة تلقائية !

ضحكت . فغضبت ! وقالت سميحة أيوب : نعم أنا تلقائية ! حتى ولو لم تصدق . أنا هلهلية وبنت بلد . أنت مثل كل الناس تتصور أنى « مخططة » وهذا غير صحيح !

قلت لسميحة : « متى كان الحب سيدك ؟» .

قالت : كلنا عندما نحب يصبح الحب سيدنا .

قلت لها : « هل تصدقين كل كلمة من رجل تحبينه » ؟

قالت : أصدقها لأنى أحترمه .

سألتها : « تعرفين اللهفة والأشواق ؟»

غضبت سميحة أيوب وقالت : هل أنا مخلوق حجرى ؟ أنا عرفت اللهفة والأشواق والصد والفراق وعرفت الانتظار وهو شىء سخيف ، قوتى أمام الناس لا تمنع ضعفى الشخصى الانسانى ، اعترف لك أن عقلى يقوم بمهمة ترشيد عواطفى ، وبزيف أحاسيسى ، وأعرف نقط ضعفى ولا أسلمها بارادتى إلا لمن أحب . تماماً كما يقول كامل الشناوى : وتطل من رأسى الظنون تلومنى وتشد أذنى فلطالما باركت كذبك كله ولعنت ظنى ! كل منا ـ يعرف الحقيقة ـ ولكنه يضحك على نفسه لأنه لا يريد تعذيب ذاته !

□ تهمني صورتي عند الناس غير المرضى !

قلت لسميحة أيوب : « ممثلة وكاتب فنان ، هل هناك مساحة للتنازلات في حياتكما ؟» .

قالت : لا أحد يتنازل من أجل الآخر . ولا أحد منا يطالب شريكة بأي شيء . ربما كان التنازل في بعض السلوكيات وارداً . لكن التنازلات الانسانية غير واردة ، كل منا حر تماماً إذا كان يكره البامية ، فانا - مثلا - احبها ، ولن اتنازل عن استمتاعي بالبامية . وإذا كنت تتصور أن هذا تحرر فانا لست امرأة متحررة ، أنا امرأة عندي افكار وأحياناً أتناقض مع نفسي ، امرأة شرقية تعرف كيف تتصرف وماذا تقول ومتى تصمت . المهم كيف تكسب احترام المجتمع . وأنا تهمني - بالمناسبة - صورتي لدى الناس . ولكن لا أخضع ذليلة لاقوال الناس ما دمت مقتنعة بما أقول وبما أفعل ، فإذا كانت نظرة الناس مريضة ، فلماذا أشغل نفسي بها وأتأخر وأضيع وقتي ؟!

قلت لسميحة أيوب : « هل تحافظين على صورة سميحة أيوب عند الناس ؟» .

قالت : لاشك أني مشغولة بهاد ائما ولكن الشهرة لا تصنع أخلاقيات إنسان أو تصوغ له نظرته في الحياة ، انني سعيدة بحديثك لأني لم ألتق من قبل بكاتب محاور إلا وطرق مسائل المسرح وآرائي في الزملاء والزميلات بحثاً عن « إثارة » !

قلت لها : « إن أقوالك في المسرح محفوظة .. وقد شبع الناس منها ، وآراؤك في زملائك وزميلاتك كانت مرحلة في الصحافة وأتصور أن الناس يهمها الوجه الانساني للفنانة يريدون التعرف على « الأشياء الصغيرة » و« اليومية » في حياة النجوم . انني أريد ببساطة أن أبحر في الانسان لأقدم الصورة البشرية لفنانة كبيرة مرموقة وقوية !

قالت سميحة أيوب : مازلت أقرأ في عينيك أن ضعفي كإنسان يثير دهشتك وربما دهشة قرائك !

قلت لها : لجبران خليل جبران عبارة تقول « الرجل أرجوحة بين ابتسامة المرأة .. ودمعتها » وأنا أعتقد أن هذا ينطبق عليك بتحفظ ! ان قناتك الدمعية تتحكمين فيها بمهارة !

قالت بضيق : هذا رأي فيه قسوة .

قلت : عندما مرضت ووقعت على قدمك عرفت من صديقة عمرك نادية لطفي أنك كنت تعبرين الألم وتدوسين الأنات ، كنت جبارة !

قالت بسرعة : أمام الناس فقط ، اما انا - بعيداً عن الناس - فاسأل بولا - نادية لطفي - عني . أنت تعرف أن فريد شوقي وحش الشاشة ، طفل قماص ، يفرح بكلمة ويثور بكلمة ويبكي من كلمة !

قلت لسميحة أيوب وفي رأسي صدى صوتها وهي تعيش شخصية سمارة التي تفتحنا عليها في المسلسلات الاذاعية وفي رأسي أيضا « سوسو » بطلة سكة السلامة ، أنضج ما قدم المسرح السياسي في الستينيات : أريد أن أسألك هل اللجوء إلى الرجل عند سميحة أيوب ، خوف أم استئناس به في الحياة ؟ هل باستطاعة سميحة أيوب أن تواجه الحياة دون الاعتماد على ذراع رجل ؟ هل تستمدين احترامك من رجل محترم في حياتك ؟ لماذا تتمسكين بالندية مع الرجل ، مع أن الضعف الانساني يجعلك تسكنين تحت جلده وفوق أهدابه ؟

تنهدت سميحة أيوب طويلا ، وقالت :

لن أكون ضيفتك يوماً ما فى التليفزيون ، إنك مقتحم . أنت لا تحاور ..أنت تحارب سكينتى ، لكن أحب هذه الندية !!

....

....

....

وأجابت سميحة أيوب ، ولذت بالصمت من فرط دهشتى !

* * *

ينساب الحوار بينى وبين سميحة أيوب ، كانسياب ماء عذب فى جدول رقراق .
ربما لأن كل حوار ناجح . كما تقول صديقتى الحميمة غادة السمان . « أشبه بحكاية حب فيها اللغة المشتركة ومحاولة الالتقاء .. ومحاولة معرفة وصدق عميق فى اللحظة ذاتها على الأقل ! » .

وأنا أضيف على كلمات غادة « إن الحوار الصحفى الحقيقى حكاية حب لا تعقبها المرارة .... » !

□ سميحة أيوب تعترف لى : لا أستمد احترامى من رجل ما !

كنت أسأل سميحة أيوب « أم علاء » : هل اللجوء إلى الرجل خوف أو استئناس ، وهل باستطاعتها أن تواجه الحياة دون الاعتماد على ذراع رجل وهل تستمد احترامها من رجل محترم فى حياتها ولماذا تتمسك بالندية مع الرجل مع أن الضعف الانسانى يجعلها تسكن تحت جلده وفوق أهدابه !

وأجابت سميحة ، وهى عندما تتأهب للكلام تبدو أمامى وكأنها محامية أخذت «الاذن» من قضاة المحكمة بالمرافعة . «منذ أن كانت سميحة طفلة وحتى عندما صارت صبية يافعة وهى تشعر أن الأنثى فى مجتمعنا متهمة ولذلك تواكبها دائما حالة الدفاع عن النفس».

قالت سميحة : أنا لا أستمد احترامى من رجل ما ، أنا أستمد احترامى من احترامى لذاتى وهو ، مجموعة تصرفاتى ومواقفى فى الحياة . بل ان هناك رجالاً محترمين يسقطون فى فخ نساء غير محترمات ! وأنا أعترض على كلمة « لجوء » إلى رجل . أنا لست بلاجئة عاطفية . أنا إنسانة « تلتقى » لا « تلجأ » برجل وتقيم معه علاقة مبنية على احترام متبادل ومن ثم دفء إلى آخر المشوار . أنا لا أنتمى لرجل ما من أجل « البرواز الاجتماعى » لأنه أرخص أساليب الانتماء تماما مثلما تبيع امرأة نفسها لرجل تزوجها بمهر خيالى ! صحيح أنه تزوجها ولكنه دفع « ثمن » الصفقة . وأنا لا أطيق المثل القائل « ضل راجل ولا ضل حيطة » أنا أؤمن بالندية وهى علامة على صحة العلاقة . عندما أكون فى احتياج للكلام مع رجل أحبه ، ينبع هذا من أقصى بئر فى ذاتى !! إنما المأساة أن أحتاج إليه لأنه « يعيشنى » فقط !

وضحكت سميحة أيوب ضحكتها المجلجلة وقالت : هناك فرق !

سميحة أيوب عندما تضحك ، إما لتجرح ، أو لتزف لك خبراً . أو لتقاوم البكاء ، الضحك عندها - كما يرى برجسون - حالة كيميائية . معادلة التحام مع الحياة وأستطيع أن أميز ضحكتها - من القلب - عندما تفقد السيطرة على ذهنها المتوقد دائماً .. المتأهب للدفاع دوماً ! هناك دائما عند سميحة شىء جاهز : حروفها أو .. حضورها ! هناك دائماً عند سميحة شعار يختفى وراء قفصها الصدرى : لا تضعفنى ضربات الزمان من الخارج مهما قست !

قلت لسميحة : الرجل احتياج !

قالت بسرعة « الرجل مشاركة . احتياج للحوار . عندما يموت الحوار بين رجل وامرأة فاعلم يا سيدى الكونت أن العلاقة بينهما ماتت » .

سألت سميحة عن المرأة بعد الأربعين .

فقالت .. أنا لا أشعر بالنسبة لى بوقع إيقاع الزمن ، ثم أضحك بطريقتى وأقول كبرنا سنة ، إحنا فى العد التنازلى ولكن من الداخل لا أحس بذلك !

قلت لها : « أنت امرأة قوية ، هل تحبين رجلاً ينصاع إليك ؟»

قالت : أبداً أحب أن يكون معى على قدم المساواة بل أفضله أقوى منى وأكثر فهماً و« مفيش مانع أدوحر معه » ! الرجل عندى باختصار ، يتقدمنى بخطوة ، بخطوتين ، بثلاث فقط . حتى لا أتحول إلى تابعة . هكذا أفهم العلاقة بينى وبين الرجل . وأكره المرأة التى تحاول تسفيه « الرجل بتاعها » أو تجعل الناس يشعرون أنها أقوى منه . وأنا يجذبنى سلوك الرجل لأنه أهم بكثير من أى عسل ينقط من

لسانه ، فربما كان يحترف الكلام المعسول واللسان دائما كذاب والسلوك يكشف لى عن مدى « نقاء » رجل .

قلت لسميحة أيوب « ما الفرق عندك بين نيتشه وآلان ديلون » ؟

قالت ضاحكة « عليك أسئلة !!» ثم أجابت : نيتشه مخ . وآلان ديلون عضلات . والعضلات بدون مخ . قوة فى طريق الشر واستعراض .

سألتها « أيهما اقترب منك فى الحياة رجل (مرمطته) الحياة أم رجل شديد البراءة » ؟

قالت : لا هذا ولا ذاك ! أنا أحب من مارس الحياة عن فهم ، والذى مارسها عن فهم لابد أن يكون بريئاً ونقياً من الداخل ، فهو قد فهم حكمتها وفلسفتها . أما مَنْ « مرمطته » الحياة ، فقد زودته بالانتهازية سلاحاً والكذب سلاحاً !

قلت لها « ماذا يغتال براءة إنسان ؟» .

قالت سميحة أيوب : الحياة نفسها تجعل من الإنسان نقياً أو شريراً إذا كان عنده استعداد لأحدهما ، لأن هناك شيئاً اسمه المقاومة ، قد تغتالنى الحياة فى نقطة ما ، وعلّى أن أدافع عن نفسى بصلابتى .. فلا أغتال ..!

دق جرس التليفون وكان الوقت متأخراً وبشكل أوتوماتيكى ، نظرت سميحة أيوب فى ساعة يدها .. وقامت لترد على التليفون والدهشة تسبقها : أيوه ؟ مين ؟ أهلاً وسهلاً ؟ مين اللى بيتكلم ؟ أيوه مين يعني ؟ الأستاذ سعد خلال نص ساعة يكون وصل أيوه حضرتك لما تطلبه بعد نص ساعة حاتلقاه أقول له مين ؟!! ممكن تعلى صوتك شويه ؟ طيب وطى التليفزيون الأول. مع السلامة !

قلت لسميحة أيوب .. كنت أظن أن التليفون المتأخر فى بيت ممثلة مسرح وكاتب كبير ، شىء عادى بل أقل من عادى !

قالت سميحة .. هذا بيت مصرى عادى ، التليفون المتأخر مزعج ! الدقات على باب الشقة فى ساعة متأخرة مزعجة لا أحد يزورنا بدون موعد سابق احتراماً للخصوصية !!

قلت لسميحة : هل تفضلين الرجل الانسان على المرأة ؟

قالت : أنا أصدقائى معظمهم رجال !

قلت لها : هل تتألمين يا سميحة ؟!!

غضبت وقالت : هل أنا إنسان آلى لا يعرف الألم ، فكرتك خاطئة عنى . مع أن لك صديقات فى منتهى القوة . نادية لطفى ، فاتن حمامة . غادة السمان . القوة هنا يا سيدى الكونت قوة شخصية فقط لكن الإنسان بضعفه البشرى وارد ولكن ليس من المعقول أن يرى « كل الناس » هذا الضعف . ومن هنا فأنا أعرف الألم ، وأعرف جيداً كلمة « آه ...» !! المهم هو إرادة الإنسان . مرضت ذات مرة بمرض خطير والتزمت السرير . وكان الوقت غارات ٥٧ وصممت أن أعيش ، وشفيت ! عندما تنزل درجة الإرادة عند إنسان إلى الصفر .. تهبط درجة حرارته وتحمسه للحياة !

قلت لسميحة أيوب : هل هناك شخصية جسدتها على المسرح وتشعرين أنها قريبة منك ؟

قالت وقد أغلقت جفون عينيها لتتذكر بعمق : فى شخصيتى ملامح من مسرحية « الإنسان الطيب » لبريخت . البنت كانت طيبة جداً وتعطى بسخاء واكتشفت أن الناس يذبحونها ليأكلوها « ذراع تمد إلى الجائعين تعض وتنهش من فورها » فبدأت تضع قناعاً وتعيش ثلاثة أيام طيبة ، وثلاثة أيام جامدة . هناك أيضا شخصية سوسو فى سكة السلامة . لحظة التعرية أمام الله ، تكشف عن الإنسان فى أسمى لحظات ضعفه .

قلت لسميحة : هل تخاطبين الله كثيراً ؟

قالت « علاقة الإنسان بالله . علاقة ليست للنشر ، ومع ذلك أنا أخاطبه عندما أشعر بالظلم وكثيراً ما أحس بهذا الظلم ! »

قلت مندهشاً « شعور بالظلم » ؟

قالت : نعم هل هذا يدهشك ؟

قلت : أنت تظلمين « بفتح التاء لا بضمها » الآخرين ممكن ؟

قالت بغضب : يقع علىّ الظلم كثيراً وأبتلع المرارة فى جوفى فلا يشعر أحد .!!

قلت لسميحة أيوب .. فى أحد مشاهد مسرحية الوزير العاشق تقولين بلغة عربية سليمة وفصيحة « أنا لم أخنك . والله لم أخنك » .

أسألك أولاً : ما هى الخيانة ؟

قالت : خيانة امرأة هى فعل حمق رجل !

قلت .. وأسألك ثانياً : أراك ـ مثل أم كلثوم ـ شاعرة لم تفصح عن نفسها .

قالت : أحب الشعر وأوافق شيلى على رؤيته أن الشعر « تزداد به التحاماً برحم الطبيعة والأصالة الإنسانية » .

قلت لها : أتذوق الشعر واستحم فى بحيراته الأنيقة لأنى أعتبره رد الاعتبار إلى الأشياء الصغيرة والعادية وإعادة خلقها من جديد فى ضمائر الناس !

قالت سميحة : هل قرأت مقدمة أليوت عن الشعر ؟ إنه يقول : الشعر خلاصة المعرفة الإنسانية واكتشاف حقائق الوجود عبر أداة تفوق أداة العلم والتاريخ والأديان ، تلك الأداة هى رؤية الشاعر الثاقبة النادرة » .

قلت لسميحة : هل الشهرة هى مطلبك ؟

قالت : مطالبى هى الحب والصحة والمال ، والشهرة من خلال عمل ! الحب ليس كما تقول لتوازن الشخصية أو الوقود ولكنه احتياج Need والمال ضرورة .. والشهرة إن أتت من خلال عمل فنى ، فأهلاً بها ! فأنا عندما أقف على خشبة المسرح أشعر بأننى امتلك العالم فى قبضة يدى . لا شىء فى الدنيا يعادل هذه اللحظة من المتعة والتحليق والعظمة ليس هناك ولا مال قارون يعادل هذا الاحساس .

قلت لسميحة : هل تخافين الزمن والعمر ؟

قالت « طبعا » ثم استطردت تقول .. فى رأسى مشاريع وأعمال والحيز الزمنى محدود إذا القضاء والقدر لم يتدخلا لوأد الطموح !

قلت لسميحة أيوب : هل هناك رجل وراء نجاحك كامرأة ؟

قالت باعتداد « لا » .

قلت: بكل الوضوح؟

قالت بثقة « لا .. بكل وضوح » !

وقالت: محدش بيعمل وقود للثانى كل نجاح منبته كفاءة وطاقة ومواهب وظروف وطموح الفرد.

سألت سميحة: هل فى حياتك جرح لازال أخضر؟

قالت: كلنا، فى حياتنا جروح، إنها تعادلية الحياة. تعطيك وتأخذ منك! جروحى ليست خضراء « على طول » أحيانا « تنشف » وأحيانا تطل من بين الشقوق! وقد خلق الله الذاكرة للإنسان كعامل لطف. والنسيان نعمة، والتذكر للمرارة نقمة.

سألت سميحة: ماذا يحاصرك دائماً؟

قالت « الكمبيوتر فقط يرد بإجابة واحدة محددة لا تتغير اما انا كإنسانة فكل وقت يحاصرنى شىء ما .. مختلف لكن الحصار لا يطول وانا أصدر قرار الافراج بعقلى! »

قلت: هل يمكن أن تذهبى لطبيب نفسى يوماً؟

قالت ضاحكة « أنت تحاصرنى بأسئلتك الوديعة الشرسة. ومع ذلك اجيبك. سميحة أيوب تذهب لطبيب نفسى إذا دعت الحالة، وإذا وجدت صديقاً يعوضنى الطبيب النفسى لجأت إليه!! »

قلت لسميحة.. تربطك صداقة عميقة بنادية لطفى ما عمقها؟

قالت .. عمق بئر وعرض محيط! بولا « فيها جدعنة بمائة رجل، وكتومة كتمان رجل أصيل، بولا، إمرأة تحاورها، وكأنك تكلم نفسك. فيها صلابة فولاذية ودموع طفلة تاهت فى مولد. والباقى أنت بالذات تعرفه ».

قلت لسميحة: لك صورة وأنت شابة تمسكين مسدساً!

ضحكت سميحة من قلبها وقالت « حالة دفاع عن النفس » .. وعندما كبرت وأصبحت أنثى، كان المسدس هو عيناى! وعندما نضجت كان المسدس هو المنطق والحجة. كان الندية!!

قلت لسميحة: أنت ترفضين الاعتراف أن هناك قضية ما للمرأة منفصلة عن قضية الرجل وقضية المجتمع لماذا؟

قالت الفنانة الكبيرة: ببساطة شديدة لأننى لا أرى هناك قضية ما .. لهؤلاء المضطهدين ومنهم المرأة وأرى أن اضطهاد المرأة هو جزء من أسباب اضطهاد بقية بؤساء المجتمع، التخلف - يا سيدى - هو المرض الأساسى، أنا لا أعتقد أن الرجل يتعمد إذلال المرأة إلا إذا كانت هى ذليلة .. من هنا أعتبر القضية مفتعلة. الندية كإحساس يجعل الأمر متساوياً فلا فروق نفسية ولا فروق شخصية، هل تصوبت يوماً أن للتميز جنسية؟!!

« هل أنت امرأة عادية؟ »

هكذا فاجأت سميحة أيوب بسؤالى وفاجأتنى هى بالرد: انا امرأة عادية جداً حتى اقف على خشبة المسرح.

قلت لها: ألا تزال بقايا طفولة فى أعماقك؟

قالت سميحة أيوب : عرفت المسئولية وأنا فى الرابعة عشرة لم أكن طفلة أخذت دور السيدة المسئولة ! لم ألعب بعرائس ! أحن للأطفال ، أنت رأيتنى بنفسك أحتضن الأطفال فى بهو فندق القدس . وقرأت دهشتك الآن وأنت تفسر لى سر سؤالك ! نعم ترقد فى أعماقى بقايا طفولة لم تهاجر بعد !

سألت سميحة أيوب: ماذا يستفزك يا سيدتى؟

قالت « الفجاجة» ثم أكملت : الفجاجة فى كل شىء فى ملبس ، فى تمثيل ، فى إبداء وجهة نظر .

هل أكل الزمن رقتك؟

قالت : ربما أكلتها الورشة ! الورشة هنا .. « وأشارت إلى رأسها » الورشة تعمل باستمرار . لا تتوقف . هل التهمت الورشة رقتى ؟ ربما يجب أن تدرك أن إشغال العقل بصورة دائمة يقلل من رومانسيتك ! أنا مثلاً ، أعرف أنك رقيق الكلمة ، عذب الأسلوب ومع ذلك أشعر أنك إنسان « عملى » للغاية يبدو فى عينيك حركة عقلك !

سألت سميحة أيوب بإيقاع سريع ، كضربات مجداف قارب حوارنا ونحن نقترب من الشاطىء.

★ إلى أى حد يغيرك الحب؟

- بقدر ما تتغير شمعة حين تشتعل !

★ هل انهزم كبرياؤك مرة؟

- مرات ، ولكنى أخفى هزائمى عن نفسى !

★ ما سر توازنك كامرأة؟

- عزلت أنوثتى عن .. عقلى !

★ تغفرين نزوة الرجل؟

- الرجل مجموعة .. نزوات !

★ تبحثين فى ماضى .. رجل؟

- يهمنى مستقبله .. أكثر !

★ ضعف المرأة، متى؟

- فى الحب فقط !

★ هل عندك تفسير للحب؟

- الحب يفسده .. التفسير !

★ هل يقلل النقاد من قدرك؟

- لا .. تستفزهم نجاحاتى المتواضعة !

★ هل حدث أن جافاك المسرح؟

- حصل . ولم أقترب من خشبته حتى .. صالحنى !

★ تستعدين لعمل مسرحى لفاروق جويدة؟

- لا أستعد بل أشتاق !

★ **تنشدين التحرر؟**

- تحرر عقلى من قيود سخيفة!

★ **ماذا تنتظرين من الحياة؟**

- لا أنتظر شيئاً، أتركها تلحق بى!

★ **هل أنت عدة نساء فى امرأة واحدة؟**

- على المسرح نعم!

★ **الصداقة عندك؟**

- طوق يمنع عزلتنا عن الآخرين!

★ **التصفيق على المسرح؟**

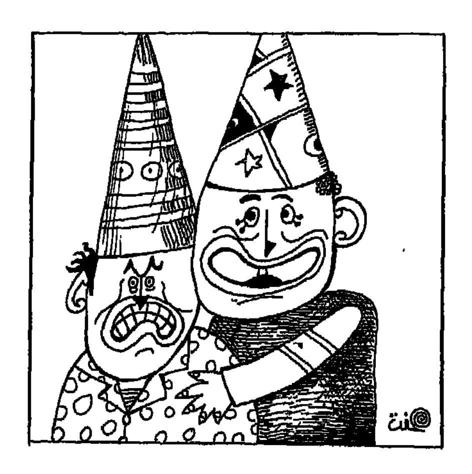
- مكافأة فورية لإبداع ما!

★ **من هى سميحة أيوب.. السينما؟**

- فاتن حمامة!

★ **من هى سميحة أيوب.. الغناء؟**

- أم كلثوم!





النجم الساطع !
فريدة فهمى

« .. ألقيت بقنبلة وأنا أسألها :
ألا تشتاقين للأطفال ؟ »

شاطىء بلطيم .. ذات صيف بعيد .

صبية في الثالثة عشرة ، أدارت ظهرها للطفولة .. فقد بدأ صدرها يتكور .. وخصلات شعرها تتطاير في زهو . العيون ترمقها وهي تعرف وتتجاهل . تمسح جبينها من العرق ، وكانت « حافية » وعلى ساقيها آثار اللعب بالرمال . تلبس « شورت » وتشرب من « قلة » ، وحولها صبيان في مثل عمرها وربما أكبر ينتظرون دورهم في الارتواء بعد العطش . ولا أحد يجزم على وجه التحديد ، هل كانوا بالفعل عطاشى للماء أم لرؤية الصبية التي زارتها الأنوثة مبكرا . لقد كانت تبدو انحناءات جسدها النحيل وكأنها منحوتة ! وكان « هو » واحدا من هؤلاء الصبيان ، يكبرها ببضع سنوات .. ويتأملها . ولأنه لا يملك أن يحدثها ، فقد احتواها في عينيه ، وراح يجتر أحلام يقظته !

وبعد قليل ، لم تعد أحلام يقظة . فقد شعرت « ميلدا » بعيون « على » تثرثر بأشياء كثيرة ، أحست بها الصبية وان لم تفهمها !

وشهد الشاطىء الأمين ، قصة حب بين شاب و« بلطيه » ! إذ لولا ظهور على رضا في حياة فريدة فهمى ، ما كانت قصة الحب الكبير « فرقة رضا » .

وحين يستعيد « على رضا » هذا المشهد يقول لى : في الرابعة عشرة علمتها الرقص في النادى .. وكنت أشعر انها تستجيب للموسيقى ، فالرقص كفن لا يحتاج الى أداة خارجية . لا يحتاج لفرشاة وألوان كفن الرسم . أداة الرقص في داخل الجسم نفسه .. بالجسد يمكن أن أروى لك حكاية تفهمها وتقتنع بها . وكانت « ميلدا » ترقص وهى تتكلم . ترقص وهى تأكل . كان قوامها النحيل يهتز طربا اذا سمعت موسيقى . وكأن القدر دبر لنا هذا « اللقاء » فوق رمال شاطىء بلطيم .. لنهدى للناس ، مصر الأرض والحياة والتراث ! وكان ان التقينا بالرجل « المعجزة » الذى سبق زمانه وزمان الآخرين ، د. حسن فهمى ، والتقط الحس الذى كان « يسكن » فريدة ، ولم يصادره كالآباء المتشنجين ، بل شجعه ورعاه وعلى يديه ولدت فرقة رضا . التى كان ظهورها عام ١٩٥٩ ، حدثا اجتماعيا هز المجتمع وصار فيما بعد تيارا سرى في نفوس الشباب ولم يعد يخجل أحد من الرقص مادام فنا يخاصم الاثارة ! ان الأفكار الكبيرة تحتاج الى عقول وقلوب كبيرة كحسن فهمى .

من كتاب د. حسن فهمى راعى فرقة رضا « عينى على ابنتى » وهو لم يظهر بعد ولم تلتهمه أسنان المطبعة يقول: فريدة لا ترقص يا سادة . انها - في الواقع - تواصل تأكيد الثورة التى تقودها . انها في معركة . وهى تكسب كل يوم أنصارا جددا وهى تحاول أن تضع شيئا في عيوننا وعقولنا . انها « شيخة طريقة » انها تثبت أن قيمة العمل في جودته . انها تفرض علينا ان نتخلص من الازدواجية . فكلنا نحب أن نرقص ولكننا نخجل . فربما اهتز وقارنا !

تقول لى فريدة فهمى وهى تقرأ هذه السطور من أوراق كتاب لم يصدر بعد : كان بابا حسن كالنسر الذى يحمى صغاره لم يكن فنانا فحسب . كان أبا عظيما . عرف كيف يكتشف ذاتى وأين أخفى مواهبى ! أعطانى الثقة ومنذ أول يوم دفعنى فيه للرقص سلحنى بنصيحة هامة لاتزال تطن فى أذنى بصوته الحبيب حتى الآن : لا تجعلى جسمك يوما ما يسيطر على عقلك . فالجسم « يرشو » أحيانا صاحبه ويقنعه بأنه متعب ، فيتعطل العقل عن العمل ويتبلد . ليكن عقلك دائما - باميلدا - يا عصارة العمر هو الذى يسوس جسمك !

وتصمت فريدة فهمى ، لأن نزيف الذكريات لا يتوقف اذا جاءت سيرة والدها . ففريدة تقول عن نفسها صنعنى أبى كانسانة ، ثم وهبنى الله « على رضا » وقابلت « محمود رضا » .. وعزفنا وأخرجنا ما عندنا ، وطفنا قرى مصر وسافرنا لمسارح العالم ورقصنا أمام شعوب تعرفنا وربما لم تطأ شواطئنا ، فقصة الحب الكبيرة (فرقة رضا) لم تفتر يوما . ولا أظن انها تفتر ! صادفتنا العقبات . قفزنا فوق المتاريس . وبقينا . صرنا فرقة حكومية وانتصرنا . حوربنا أحيانا ولم نسقط قتلى . وأتذكر كلمة كتبها المخرج العالمى « اليا كازان » فى اليوم الذى زار فيه فرقة رضا عنى . قال « ان هذا الرقص الذى رأيته الليلة فيه نقاء الرمال وحلاوة الصدق » !

يوما ما ، حين عرضت مجموعة الشباب والبنات رقصاتها وألهبت الأكف ، بكى حسن فهمى من الفرح واحتضن فريدة ومحمود وعلى وقال عبارة قصيرة « نجحنا فى الامتحان يا أولاد » .

وكتب احسان عبد القدوس يقول فى خواطره : « كلما رأيت فريدة فهمى ترقص ، تمنيت أن تكون أخت كل منا أو بنت كل منا » ! وكتب أنيس منصور يقول « ان فرقة رضا نموذج محترم للهواية والاحتراف والمجهود الفردى والروح الجماعية » . وقال أحمد بهاءالدين فى يومياته « لقد جعلت هذه الشابة الموهوبة فريدة فهمى من الرقص فنا محترما لا يخجل الانسان أن يصفق له » .

اثنتان لا تتألقان أو تتوهجان إلا أثناء « الابداع » الفنى . ولو لمحتهما بعيدا عن هذا « العطاء » فربما لا تعرفهما ! سعاد حسنى .. وفريدة فهمى ! سعاد حسنى - فى الحياة العادية - قد لا تلفت نظرك . أنها صموته ، منطوية ، خجولة ، قليلة الكلام ، ليست باهرة اجتماعيا . ونفس الشىء بالنسبة لفريدة فهمى . انها متواضعة ، تواضع ست بيت تسكن فى حى المنيرة . انها صموته باستثناء الحديث عن والدها . خجولة جدا .

كانت تنتظرنى فى بوفية مسرح البالون فلم أعرفها إلا حين سألت عنها . ببلوزة بسيطة وبنطلون وبلا مساحيق أو باروكة قابلتنى ! ودعتنى لأركب سيارتها الفيات البيضاء المتواضعة ، ومرقت السيارة شوارع القاهرة الى بيتها فى شارع بيروت رقم ٨ بمصر الجديدة . وربما لم تلفت فريدة فهمى نظر أحد بالمرة . لم يتطلع مخلوق من سيارته لفريدة ويعرفها ويحييها مثلا . فلو كانت « نبيلة عبيد » فى سيارتها مثلا ، لصارت فى الشارع مظاهرة سيارات ! ولكن هذه الفنانة الجادة العظيمة الملتزمة لا يعرفها أحد ، ولا يصفق لها أحد إلا اذا رآها على المسرح « تنحت » من جسدها أشكالا ، تروى لك بها حكاية !

في الطريق ، حاولت أن أقطع طوله بالثرثرة ، فقلت لها : ألا يضايقك تجاهل الناس لك ؟

ضحكت من القلب وقالت : أنا عارفة أين أكون مبهرة . على المسرح !

أنا كالسمك الذى يخرج من الماء اذا ابتعدت عن المسرح . لما أرقص أكون بكامل هيأتى ! أنا أتجمل للمسرح وأبدو رشيقة للمسرح . وأمارس طقوسى الجادة قبل الظهور على المسرح . والذى يرانى أرقص محال أن يصدق ان هذه « السيدة » هى فريدة فهمى ، ولست معقدة من هذه الملاحظة .. بالمناسبة !

وقلت لها : « فى عمان ، فى المسرح الملكى . حين نودى على اسمك لتتسلمى من الملكة نور ملكة الأردن تذكار مهرجان جرش ، فوجىء بك الناس وصفقوا طويلا وأخذوا يتأملونك ، وربما لم يلتفتوا لوجودك وأنت جالسة » !

ضحكت فريدة فهمى وقالت لى « أنا أقل من الست العادية بعيدا عن المسرح » !

قلت لها : سمعت من سعاد حسنى نفس الكلام . قالت لى مرة « أنا فى البلاتوه سعاد حسنى ، وربما كنت فى حياتى الخاصة ، خضرة ، سميحة ، ست أبوها . أى حاجة ! » .

وتذكرت قول « البير كامى » : « ان فلانا فنان عظيم ، ولكنه انسان عادى » !

قلت لفريدة فهمى : « هل لك هوايات تأخذك من الرقص أحيانا » ؟

قالت : ربما لا تعرف انى سباحة ماهرة . فمنذ السادسة وأنا أعرف فن العوم .

وقلت : ألم تركبى الخيل ذات يوم ، وتمارسى رياضة الفروسية ؟!

قالت بتواضع أسرتى : كنا تقريبا نعيش فى كلية الهندسة مع « بابا حسن » . وكان هناك حمام سباحة . ووجدت أنها أرخص رياضة . فأنا من أسرة متوسطة لا تستطيع وقتئذ أن تتحمل أعباء رياضة ، كالفروسية !

قلت لفريدة فهمى : « كان الراحل الموسيقار على اسماعيل يقول لى ان محمود رضا ، موهوب ومبدع وفنان . وانه وسام على صدر مصر من حقها ان تفخر به » .

قالت فريدة : « لا أزيد حرفا واحدا على كلام المرحوم على اسماعيل . فهو ما قل ، ودل ! » وكنا قد وصلنا الى البيت الذى ولدت فيه فريدة ، كما قالت لى .. وظلت تحمل اسم « ميلدا » حتى بدأت ترقص أمام الناس على المسرح !

ولأنى فضولى و« النكش فى البشر » صناعتى كما يقول لى الموسيقار عبدالوهاب ، قلت لفريدة ما معنى كلمة « ميلدا » ؟!

أجابت « بالتركى معناها القمر الساطع » . ثم سكتت ثانية .

وقالت : « ولكن بابا حسن ـ وأنت تعرف ابحاره فى محيطات اللغة ـ كان يقول ان ميلدا هى كلمة تركية أو ايرانية ، معناها : المثقفة » !

حين دلفنا من باب الفيلا ، سألت فريدة « فيه هنا كلاب » ؟ قلتها وأنا معقد من حادث مداعبة كلب الست أم كلثوم للصديق كمال الملاخ مداعبة سخيفة .

قالت فريدة « أيوه » !

فتراجعت قليلا ريثما يتم حبسه !

لكن فريدة طمأنتنى انه كلب ودود ، ويشعر بمشاعر الغرباء نحونا ، فاذا كنت ـ لا قدر الله ـ تنوى بنا شرا . فتك بك . واذا كان يستشعر حبك لنا ، ظل يحرسك

حتى نودعك . اسمه « سمره » وهو كلب ذكي ومحب للناس ويعرف الوفاء . ادخل لا تتردد !

ولما دخلت ، هجم على سرب من القطط !! وتذكرت في الحال ما أصاب صديقة قديمة من قطة ، فقد خربشتها بضراوة ، قادتها الى مستشفى الكلب ، واستسلمت لعلاج قاس استمر أسابيع وكان من بينه ألا تعرض نفسها للشمس وإلا انتكست !

وقالت لى فريدة وهى ترانى أتحاشى « هزار » القطط : الحيوانات مخلوقات ضعيفة ولا تعبر عن نفسها إلا لمن يحبها ويفهمها . وأنا صديقة القطط والكلاب والخيل ! أعتبر القطة ودوده . وأحب « وفاء » الكلب . وتعجبنى شهامة الحصان ورقصاته اذا انطرب للمزيكة !

قالت لى فريدة فجأة : عندى مشكلة تحيرنى وأنا استعد للسفر لامريكا كما تعرف لمدة عامين . أين يذهب « سمره » . الكلب الوفى ؟! لا أستطيع أن أصحبه معى . وأعرف انه قد يموت حزنا اذا أحس بغيابى . ولو تأملته الآن ، ستكتشف انه فى حالة كآبة . سرها ببساطة انه أحس بحالة « عزال » فى البيت . فنحن نحزم حقائبنا منذ شهر ونصف ، منذ تلقيت من جامعة UCLA فى لوس انجلوس الموافقة على ذهابى كمدرس مساعد لقسم الرقص . القسم الوحيد الفريد فى جامعات أمريكا .. بلوس انجلوس !

همست لنفسى : هل سنحرم من فريدة ؟ على أى شاطىء سترسو سفينتها ؟ نسيت مشكلة « الكلب الأسمر » واكتئابه ، وأمطرت « النجم الساطع » بعشرات الأسئلة .. وأجابت ميلدا ، أو فريدة فهمى .

فى هذه الجامعة ، يدرسون بعمق نظريا وعمليا ، رقصات الشعوب . القسم اسمه « رقص الجنسيات » فلسفتهم فى ذلك محددة : رقصات الشعوب تعبر عنها . اذا أردت أن تعرف شعبا ، فابحث عن رقصاته وأمثاله الشعبية . الرقصات تعطيك صورة عن حركة الانسان ، وأمثاله تقودك الى موطن حكمته ! الاتفاق مع هذه الجامعة ، كان أيضا محددا . ان أعلم الرقص المصرى المعاصر . رقصات المدينة . الرقص فى الصحراء . رقصات الواحات . الرقص الشرقى . ومن خلال ذلك سأتقدم برسالة دكتوراه عن « جهود فرقة رضا على مدى مشوارها الزمنى والفنى » . سأرقص واضع أمامهم ابعاد هذه الحركات . فنحن فيما أظن من شعوب البحر الأبيض المتوسط ، شعوب راقصة !

مشوار فريدة فهمى فى الرقص ٢٤ عاما .« تعلمت خلالها الصبر والاصرار والتحمل والمسئولية . لم أعرف الدلع . لم أعرف الاسترخاء . عرفت طعم العمل وحلاوة النجاح . لم أنس نصيحة أبى . لا تجعلى جسمك يسيطر على عقلك » !

وقلت لفريدة : هذا المجد .يا ميلدا. صاحبه فى نفس الوقت ألم عظيم !

قالت « المثقفة » حقا : سمعت مرة الدكتور النابغة ياسين عبدالغفار يقول لك على شاشة التليفزيون وأنت تحاوره « وراء كل مجد ألم . هذه معادلة الحياة » !

قلت لها: كان يتحدث عن عبدالحليم حافظ!

قالت ميلدا « حليم كان يشعر الانسان انه أخ . ابن عم ، صديق ، يدخل القلب بلا استئذان . وكانت آلامه فى مستوى أمجاده كفنان ، أما أنا فآلامى لا تقاس بآلام حليم » .

قلت لها: لعلها الصلابة التى تجعلك تقللين من حجم الألم فى حياتك!

قالت فريدة فهمى : ماذا أقول لك ؟ أقول ان الصداع النصفى يلازمنى العمر كله ، كظلى ! هل تتصور انه ذات يوم ، سيفارقنى ظلى ؟! ذلك هو موقف الصداع النصفى منى ! قرأت كثيرا عنه ولم أعرف لغزه . انه عندما يزورنى بسلامته ، يحيل الحياة الى جحيم . وأنفر من كل المسرات فى الحياة . ان زيارته ثقيلة خصوصا اذا شرفنى وأنا على المسرح . لحظتها أقاوم الصراخ وهذا يعذبنى أكثر . ناهيك طبعا ، عن آلام الظهر فقد منحنى الله عظاما غريبة . هناك مادة بين فقرات الظهر تجعل الألم سياطا على ظهرى . وكل طبيب عالمى زرته نصحنى بالكف عن الرقص بشرط عدم الكف عن الحركة . وأنت تجدنى كل ساعة ـ خلال حديثنا ـ أتركك بلا مناسبة ، فقط لأتحرك .

قلت لفريدة: ظننت انى ممل ولهذا تقطعين الملل وتعودين!

ضحكت فريدة وقالت برقتها الشديدة « أبدا ، دى نصايح الدكاترة ، لا تجعلى ظهرك لفترة طويلة فى وضع واحد . فأنا اذا مرضت بالانفلونزا مثلا ، لا أستسلم للرقاد فى السرير . أحاول أن أتحرك . وأنا أعتقد ان ما اصابنى فى ظهرى هو من أمراض المهنة » !

أضافت فريدة : أمراض المهنة تزور الانسان ـ عادة ـ بعد الستين . ولكنها جاءتنى مبكرة ربما لهذا الوفاء الشديد للرقص . فأنا قدمت أغلى ما عندى ، وحصدت من الرقص آلاما ! لكنى لست نادمة ، ولو قدر لى أن أعود للوراء ، لعشت العذاب كله مرتين ! فى لندن قالوا لى : لا ترقصى . ورقصت ٥ سنوات قبل زيارة الاتحاد السوفيتى وهناك قيل لى لا ترقصى . ورقصت بعدها ٨ سنوات ! انها ليست مكابرة كما تتصور .. ولكنى أعتقد ان ارادتى ترفض الاستسلام !

وقلت لفريدة فهمى: ان علاقتك بوالدك، ليست مجرد «ولاء عاطفى ساذج» انها فى البداية والنهاية ولاء عقلانى! ان نصيحة والدك «بابا حسن» لا تجعلى جسمك يسيطر على عقلك هى التى تدفعك للضرب بنصائح الأطباء عرض الحائط! ان ما يربطك ببابا حسن ـ ياميلدا ـ هو «ارتباط روحى وذهنى». لقد ترك بصماته .. وجعلك تتبنين أفكاره حتى بعد رحيله . انه «يحيا» معك!

قالت ميلدا ، وشىء أشبه بالدموع فى عينيها : رحيل أبى ، ألم كبير . رحيل أختى نديده ألم كبير . الصداع النصفى وآلام الظهر .. آلام كبيرة .

قلت : قرأت مرة لزميلتى الكاتبة سناء فتح الله تقول «لقد ألغت فريدة فهمى عامل الزمن».

قالت : ربما كان هذا صحيحا .. لأنى لم استسلم لعذابات الجسم !

قلت: يبدو ان الرقص هو «مرضك وعافيتك»!

قالت لى مجاملة: انتظر لأكتبها هنا.. على ظهر هذه الورقة لأحتفظ بالعبارة، انها تصفنى تماما! وقامت فريدة وأحضرت قلما، فلما وجدته لا ينطق، أخرجت «قلم الحواجب» من حقيبتها وكتبت العبارة!

قلت لفريدة فهمى بصوت هامس (وهى صفة تلازمنى فى الحوار حين أريد أن ألقى قنبلة)!

ألا تشتاقين للأطفال؟!

مرت لحظات من الصمت قبل أن تجيب فريدة على السؤال. بل انها أعادته بنصه على نفسها مرة ثانية. ثم قامت لتعدل وضع صورة على الحائط.. وعادت وقالت لى اشتقت بشدة هل هناك أنثى فى هذا الوجود لا تحلم بالأمومة. ورغم انى من مواليد برج السرطان، محبى الخيال فأنا انسانة واقعية جدا. حاولت مرات ومرات أن أكون أما.. ويصبح لى بنت، اسمها نديدة، وفشلت. أحيانا يتطلب سيناريو الحياة، عدم الاعتراض على مشاهده القدرية! الأمومة حلم أى امرأة. ولكن شاء الله أن يحرمنى منها، وهذا الم أكبر على المستوى الشخصى جدا! حين ماتت «نديده» وقفت أشكو لله. ولكن أبى قال «ان الله استرد وديعته يا ميلدا». يعوضنى الله عن أختى بحب الناس المذاب فى احترام على حد تعبيرك! يعوضنى الله عن أختى، بحب الأطفال الخرافى. انهم يتعلقون بى.. وكأنهم يحسون، انى فى حاجة الى هذه الضمة وهذا العناق وهذه الابتسامة النقية. يعوضنى الله عن «أختى» بحب الناس للتيار العميق الى أحدثته فرقة رضا فى شباب وبنات بلدى. أصبحت قدوة لهم. عشرات الفرق الشعبية ظهرت. فرق عربية ولدت. أخذ الرقص الشعبى احترامه. فذات يوم، تحمل أبى «اهانات» شديدة من الجامعة عندما قيل له «ازاى تبقى أستاذ جامعة وبنتك رقاصة»؟!

فريدة فهمى...

١ ـ طولها ١٧٥سم ووزنها ٦٠ كيلو.

٢ ـ عمرها كراقصة ٢٤ عاما، هو عمر فرقة رضا.

٣ ـ تحب من النجوم: (عادل أدهم لتميزه كفنان)، (سعاد حسنى، لأنها ساكنة القلوب)، (نيللى لأنها مجموعة مواهب مشتعلة)، و(محمود عبدالعزيز لأنه شباب الفن).

٤ ـ محمد عبدالوهاب فى نظرها (هرم)، يجيد الحديث بنفس طلاوة الغناء.

٥ ـ اذا غضبت فريدة فهمى الزوجة من على رضا، أعلنته «أنا مخاصماك يا على».

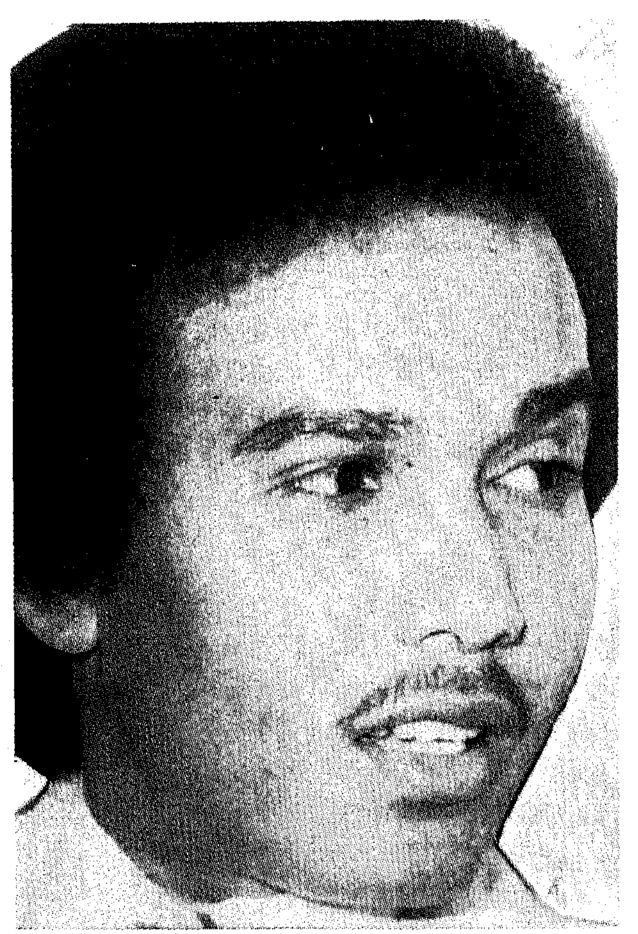
٦ ـ لو لم تكن فريدة فهمى راقصة، لاختارت مهنة فيها (حركة): مهندسة ديكور مثلا.

٧ ـ فريدة فهمى تصمم الآن ملابس الفرقة. بدأتها بملابس الموشحات.

٨ ـ تخاف الميكرفونات وعدسات التليفزيون والأحاديث الصحفية مع غرباء عنها.

٩ ـ تحمل « وسام » من الدولة : جائزة العلوم والفنون عام ١٩٦٥ .
١٠ ـ لا تقتنى أشياء ذات قيمة . تتعمد نسيان ساعتها .
١١ ـ تقرأ قراءات جادة عن كل بلد تعتزم الفرقة زيارتها . (أحب أعرف انسان هذه القارة) .
١٢ ـ تقول (بامكان راقصة الفن الشعبى أن ترقص شرقى ، وليس بامكان الراقصة الشرقية ، العكس) .
١٣ ـ تحترم « دور » السيدة تحية كاريوكا .
١٤ ـ أهم ما تطلبه من الآخرين « احترام الموعد .. والوعد » .
١٥ ـ زارت ـ كراقصة ـ نصف الكرة الأرضية ، وقابلت مشاهير العالم .
١٦ ـ مرتب فريدة فهمى ـ بعد ٢٤ سنة ـ هو : ١٢٤ جنيها !!





طائر المملكة !

محمد عبده

« .. أنا أنتقى أصدقائى بشدة وأدقق فى اختيارهم ، حتى لا أواجه لحظة غدر يوما ما ..»

عندما سألت عندليب الجزيرة العربية ، طائر المملكة الحنون عن اللحظة النفسية التى دفعته للزواج ، قال بهدوء :

صونا لشبابى !

ودهشت من إجابته ، فأعدت السؤال مرة ثانية ؟

فقال : أردت أن أصون نفسى من الزلل ، فتزوجت !

قلت لمحمد عبده : هل عشت تجارب عاطفية ؟

قال متحفزاً : كيف ؟

قلت : إن سؤالى شديد الوضوح ، مثل صوتك وأنت تغنى .

قال محمد عبده : لا يوجد شاب لم يدق الحب بابه . وأنا كأى شاب ، عشت هذه الأحاسيس . ومعظمها كان فاشلا وأنا لا أخجل من هذه الحقيقة ، بل أذهب لأبعد من ذلك وأقول لك ان الانسان الذى يدخل الحياة بلا تجارب ، تقضى عليه قسوةالحياة ويدوسه قطار الزمن ! لقد كان بودى أن اكون مطرباً هاويا ، ولا أحترف الغناء ، وتحقق هذا الأمل فأنا مازلت بعد هاوياً ، وأتصور أن الهواية حب . وإذا أنت ككاتب مثلا فقدت شعور الهواية ، ماتت الكلمة داخلك .. وشنقت فن الاحتراف . وأنا ـ كمطرب ـ أردت الهواية وتحققت . ثم استطعت أن أقيم مشروعاً تجارياً فى نفس الخط . استديو مثير .. وتجارة كاسيت وتسجيلات . ثم حلمت بحياة زوجية مستقرة . تسألنى ، هل خططت لحياتى ؟ نعم ، خططت ! تسألنى : فى هذه السن المبكرة ؟ نعم ، فى هذه السن المبكرة يجد الانسان بجانبه أصدقاء أوفياء يسدون له النصح بلا مقابل . يعطونه الود بلا إيجار . وقد استمعت إليهم طويلا ، وخططت ، وقررت ! نعم ، خططت لنفسى . كان لابد أن أحيا حياة عائلية مستقرة . كانت لدى فكرة عن الزواج سيئة ! أحيانا كنت أتصور الزواج عائقا أمام الفنان . وكنت اتصور الزواج قيدا على انطلاق الفنان وأحيانا أخرى ، كنت أشعر أن الزواج « اعتقال » مهذب للزوج فى سجن له سقف يمارس فيه هذا السجين كافة نشاطه الإنسانى ! كنت أسمع من أصدقائى المتزوجين سخريات كثيرة عن الزواج ، والبعض كان يتبسط معى ، ويسمى الزوجة : الشاويش ، والآخرون يسمونهاالحكومة .. وآخرون يقولون : السجان الناعم !

كنت أسمع كل هذا وأضحك وأتساءل : لماذا هذه النظرة للزواج .

وكنت أرد قائلا : « إن الزواج يتحول إلى جنة بالتفاهم .. ويصبح واحة حقيقية إذا كان الود مقسوماً على اثنين » . وصارحت نفسى : أنا كفنان محتاج لإنسانة تفهمنى وتعرف دورى فى الحياة ، وتتعاطف مع همومى الخاصة .. وتتحمس لصوتى .. وتعرف أنى فنان ولكنى بلا نزوات . ولكن كيف أعثر على هذه الزوجة ؟ انها لا تستورد . ثم أنى لن أتزوج إلا سعودية من المملكة . ووجدت مسامى مفتوحة لاستقبال التجربة . أولا ، رفضت الزواج التقليدى . أن يأتى لى صديق ويهمس فى أذنى أنه ينصح بزيارة فلان لأن ابنته « تستاهلك جداً » لم أكن أوافق على هذا الأسلوب ، فمهما بلغت من الشهرة فليس هذا هو تأشيرة الدخول لقلب فتاة . رفضت الفكرة تماما ! رفضت أيضا ترشيحات أختى الكبيرة . فالزوجة ليست رقعة شطرنج . الزوجة إنسانة لها قلب وعقل وبصيرة !

وحدث أن كانت إحدى المعجبات بصوتي ، تناقشني في فني متى سنحت لها الفرصة في الحفلات العامة . والفنان حساس يستطيع أن يميز المعجبين بسهولة . وقد اكتشفت أنها معجبة من نوع خاص . موجهة جادة . وناقدة خطيرة وحساسة للكلمة . وأنا إنسان ، الحياة هوايتي ، ولكن خارج الزيف والتهريج التقينا في نقطة الجدية . هي إنسانة جادة وأنا رجل جاد ! نعم أنا رجل جاد . يقولون عني أن أتصرف وكأني ابن الخمسين . وفي بعض الأحيان ، أبدو مع أولادي وكأني ابن العشرين .. كانت نقط الالتقاء معها ، أكثر من نقط الخلاف ، فتزوجتها . لا توجد زوجة على مقاس رجل ولكن الود يقربهما ..

قلت لمحمد عبده : عندما يختار الانسان زوجته ، فإن بعض العوامل الخلفية تلعب دوراً مهماً .

أصغى لكلماتي ...

فتابعت الحديث ، وقلت : مثلا ، تلعب الطفولة دوراً هاماً في الاختيار .

رد محمد عبده : هذا حقيقي . أنا حرمت من الحنان ، وبحثت عن زوجة حنون ، نصف وزنها حنان !

قلت : تلعب التجربة السابقة مع المرأة دوراً هاماً في الاختيار .

رد محمد عبده : هذا حقيقي ، تجاربي نصفها فاشل ، والنصف الآخر لم يكن تجارب جادة . وقد اشتقت لنموذج جاد ..

قلت : تلعب طبيعة الانسان وسماته الشخصية دوراً هاماً في الاختيار ..

رد محمد عبده : هذا حقيقي ، فأنا بطبيعتي إنسان هادىء ، وأميل للهدوء ، وكنت أتمنى زوجة هادئة الطباع . فأنا من الذين يعتقدون أن أجمل ما في امرأة هو طباعها ، أما الجمال البدني ، فزائل ، ويتضاءل مع الزمن !

قلت : إن علاقة الرجل بأمه تلعب دوراً هاماً في الاختيار .

رد محمد عبده : هذا حقيقي ، إن زوجتي مثل أمي ، تحترم الحياة العائلية وتميل للجدية وتعتبر تربية أولادها أسمى المهام .

قلت : إن اهتمامات الرجل في الحياة تفرض عليه في الاختيار نمطاً ما من الزوجات !

رد محمد عبده ، لو لم تكن زوجتي معجبة بمحمد عبده ، ما كانت زوجتي ، اني أحب فيها هذا الاهتمام الحنون بصوتي . إنها توفر لي أسباب النجاح .

قلت لطائر المملكة الحنون : خذني إلى دارك لأعرف كيف تهيىء لك زوجتك أسباب النجاح .

قال محمد عبده بخجل : في يوم الحفل ، تساعدني على النوم أطول مدة ممكنة بدون إزعاج لأنها تعلم أن النوم هو أعظم وسيلة لراحة الصوت . وفي نفس الوقت تمنع عني بذكاء المنغصات حتى لا تتأثر حالتي النفسية فهي تعرف أن الصوت يتأثر بسرعة بأي تعكير نفسي .. وبعد الحفل تزرعني في واحة راحة ، لأستعيد نشاطي ويدخل الأولاد ، فأمارس أبوتي ، وأنسى الفنان !!

سألت محمد عبده : هل تشغلك أمور الغناء فقط في المملكة ؟

قال : عندي - بفضل الله - استديو للموسيقى ومعمل كاسيت ومصنع إلى جانب

أعمال الكترونيات . وسيارة لتصوير الحفلات بالفيديو . إن هذه الأشياء جعلتني أبقى في المملكة كثيراً ، أديرها . لقد كان عدد حفلاتي في القاهرة أكثر من ٢٠ حفلة كل عام .. وجاء الوقت الذي أستريح فيه من هذا العناء . لقد كافحت حتى أستطيع الا أتنازل عن مستواي في الغناء . وبفضل الله نجحت . قل عدد حفلاتي في القاهرة وانتبهت لأعمالي في المملكة ، وحظيت بالاستقرار العائلي .

قلت لمحمد عبده : لماذا تهرب من الغناء ؟

أصابه الذهول فقال : من قال اني أهرب من الغناء ؟ أنا أهرب من غابة الوسط الفني .

قلت : ألم تتدرب على ترويضها ؟

قال محمد عبده : للأسف ، أعترف لك أني لست قادرا على عملية الترويض هذه . إن فيها من القيم الغريبة ما يعجز الفنان المسالم عن التصدي لها !

قلت : هل هي بهذا السوء ؟

قال محمد عبده : لا اقصد أنها سيئة ، ولكني لست ناجحاً في فهمها . إنها لعبة قط وفأر . إنها لعبة شد حبل . إنها لعبة فيها تنازلات كثيرة وقد تعلمت منذ طفولتي الا أتنازل بسهولة . الفن عظيم ولكن بعض الذين يعملون بالفن ينقصهم الصدق والصراحة وانفتاح القلب ! ثم دعني أصارحك أكثر . أنا في القاهرة لا أنطلق من قاعدتي ولكن في المملكة انطلق من قاعدتي ولذلك افرض ما أشاء .. وبالتالي انسج نجاحي المطلوب ، أما في القاهرة فلا زلت أشعر بالوحدة بل وبالغربة ولا أحقق ما أريد . وأستسلم أحيانا لما لا أريد .

قلت لمحمد عبده : هل أنت مناضل في الحياة والفن ؟

قال : أنا مناضل في الحق ولكني لست مستعداً للنضال في الباطل .. وهذه سمات المجتمع الذي خرجت منه . أنا محمد عبده عثمان الجيزاني . من جيزان في جنوب المملكة . وناس جيزان ضئيلو الحجم كما ترى . مسالمون . يتميزون بالوداعة والبساطة . والمسحة الطفولية ، يميلون للفن ويعشقون المثاليات وسريعو الصدمات .

قلت لمحمد عبده : هل عرفت الصدمات في حياتك ؟

قال : الإنسان بدون صدمات كمنفضة سجائر مسطحة .

قلت : أي نوع من الصدمات واجهتك ؟

قال : صدمات عاطفية في مطلع عمري . صدمات في أصدقاء . صدمات في العمل . وهذه الصدمات قوتني ولم تقتلني !

قلت : لماذا يغلب عليك طابع الحزن والشجن ؟

قال : أنا لست حزينا ، أنا إنسان جاد ومرح ، والجدية ليست حزنا !

سألته وأنا أنظر إلى ملابسه : هل تشترى ملابسك من باريس؟

قال بسرعة وكأنه ينفي عن نفسه تهمة : لا .. من المملكة !

قلت : هل تختارها لك زوجتك؟

قال : أختار ما يعجبها من ألوان الذوق وأهمها الرماديات والكلاسيك ! واستطرد يقول : الألوان المزركشة لا تناسبني . ومع ذلك بعض الناس

يدهشهم تمسكى بهذه الألوان الجادة ويقولون ان الشباب يحب المرح والبساطة وإن العمر القادم للجدية لا يجب أن أسرع إليه بالخطوات !

إذا كان الزى كالأسلوب فأنا جاد فى ملابس ، ولكنى مع آهات الشباب وأغنى عن الحب والحزن والحرمان . وبعض الناس يلومونني على كم الحزن فى أغانيّ ! وقلت لهم انا أعبر عما فى الغناء العربى من سمات !

قلت لمحمد عبده: احكى لك قصة قصيرة ربما أرويها لأول مرة:

ذات مرة اصطحبت معي صديقي المرحوم عبدالحليم حافظ الى بيت العالم الاجتماعي الكبير د. سيد عويس بناء على رغبة عبدالحليم. وكنت قد حددت له موعدا مع د. عويس. وعندما جلس عبدالحليم في غرفة مكتبة العالم الاجتماعي الكبير. سأله بعذوبة.. ممكن يادكتور أعرف أسباب الحزن في الشخصية المصرية؟ وشرح د. سيد عويس عناصر الشخصية المصرية وأسباب الحزن وتأصيله وتاريخه وتطرق الى الحزن النبيل الايجابي والحزن الهدام السلبى ووصل الى نقطة دور الفن في تناول هذا الحزن بالكلمة والصورة وأهدى العالم الاجتماعي، عبدالحليم حافظ واحدا من أهم كتبه اسمه «هتاف الصامتين» الذى يشرح باسهاب قضية الحزن في الشخصية المصرية.

وقرأ عبدالحليم حافظ الكتاب واستوعبه تماما، وبعد شهر من قراءة أشعار نزار قباني. اختار بنفسه قصيدة «قارئة الفنجان».

ونجحت قارئة الفنجان نجاحاً ساحقاً لأنها ببساطة عزفت على أوتار «الحزن والموت والمجهول» وقال بعض النقاد ان حليم كان يرثي نفسه بهذه القصيدة! الخلاصة أنى أريد أن أذكر لك كيف كان عبدالحليم يعتمد على العلم في فنه! كيف كان يريد أن يعبث بأوتار النفس البشرية ليصيب الهدف.. ويلقى الاستجابة. ولذلك كانت أغانيه مثلا في عصر عبدالناصر.. واجهة نظام.

وصمت محمد عبده ثم تنهد وقال : الله يرحمه عبدالحليم . قابلته ٣ مرات . اثنتان فى السعودية ، والثالثة فى مصر . كنت أشعر أنه يعشق فنه . كان فنه قبل المرأة والشهرة والمال . كان يبذل قصارى جهده فى اسعاد جمهوره . رأيته يتحدث مع أحد كبار الشعراء فى المملكة ليكتب قصيدة جديدة . وعرفت دأبه لاقناع الشاعر السعودى . كان صوته الحنان كله . يقولون ان صوتى حنون ، ولكن صوت عبدالحليم كان نبع الحنان . ذات مرة ، ناقشنى عبدالحليم فى احدى الأغانى السعودية التى قدمتها . كان يريد أن يعرف « الطبقة » التى أغنى منها اللحن . وظل يحاول غناءها بكل إصرار . ولما عرف أنها من التراث الشعبى السعودى ، فرح وقال ، لابد أن يتخصص ملحن موهوب فى جمع هذا التراث ! وبعد شهور قليلة فوجئت بالفنان الكبير بليغ حمدى يطوف الجزيرة العربية والخليج ويجمع الألحان الشعبية وموسيقى التراث ، ولما قابلته ذكر لى أن عبدالحليم أبلغه بحلاوة التراث الشعبى السعودى . وطلب بليغ أن يسمع بعضا منه . إن عبدالحليم حافظ ظاهرة حقاً . كانت أذناه تستقطب أى جمال ، ليفرزه صوتا ويسعد جماهير الأمة العربية . وأنا واحد من هذه الجماهير .

أعجبنى تواضع محمد عبده .. ابن جيزان البسيط الذى يعيش حياة هادئة فى بيته .

قال لى : « لا أسهر خارج البيت إلا نادراً . معظم سهراتى فى البيت . أنا وزوجتى أمام الفيديو .. نشاهد أفلاما عاطفية وبوليسية . أنا تأسرنى الأفلام العاطفية وزوجتى تحب الأفلام البوليسية وترى فى « الاثارة » ما يحرك الذهن ! وفى بعض الأحيان أمضى وقتا فى القراءة . وأحيانا أنسى الفن فى السباحة . وأحب الشعر وأتذوقه ولكنى لا أحفظه . ولعلك لا تعلم أنى كمطرب سعودى أغنى « الموال الفصيح » لأن المغنى السعودى لابد أن يدرب نفسه وامكاناته الصوتية على « المجسات » . كالملوف فى تونس والموشحات فى مصر . المجس باختصار هو لون قديم من الغناء السعودى . وأنا أحب أن أرضى جمهوراً من الآباء والجدود ! إن كل مغنى سعودى قد تتلمذ على المجس . والسلفيون فى المملكة يعشقون هذا الغناء . إنه صعب فى أدائه ولذلك هو المدرسة الأولى فى تدريب الصوت .

سألت محمد عبده : من صديقاتك من الآلات الموسيقية ؟

قال بسرعة : العود .

سألته : هل صوتك جميل كما تصفه الفتيات السعوديات ؟

قال بسرعة : إنه حماس إقليمى !

قلت : هل تعرف مقاس صوتك ؟

قال : صوت طلال المداح أجمل من صوتى !

قلت : من جمهور محمد عبده ؟

قال : كل من يمسه الصدق ، من الكبار أو الصغار !

قلت : لماذا تلحن أغانيك بنفسك ؟

قال : أحس بالكلمات إحساساله إيقاع ، فأترجمه إلى موسيقى .

قلت لمحمد عبده عندليب الأغنية السعودية : أريد أن أتعرف على ذوقك الخاص . افتح لى قلبك . لا تحبس عنى أى معلومة ولو صغيرة . إن الانسان مجموعة أشياء وعادات صغيرة . إن زجاجة العطر فى بيت الفنان من أشيائه الصغرى تماما مثل لون ربطة العنق . وقد قال مرة الناقد الفرنسى سادول « إن ذوق الفنان الخاص لا يتجزأ . إنه مساو فى الأهمية للفيلم الذى يفضل ، والشاطىء الذى يختار . كل هذا يدخل فى نسيج الشخصية » .

وتذكرت ماذا قالت لى مرة اينوك ايميه عن عطرها المفضل . وماذا سمعت من غريغورى بيك يوماً ما عن شغفه بالساعات القديمة .

سألت محمد عبده عن عطره المفضل . فأجاب بسرعة ! ظللت أردد إجابته وأضحك من قلبى وهو مصاب بالدهشة ! شعرت كأن عادل إمام قال نكتة !

لم يخجل عندليب الجزيرة العربية محمد عبده وهو يقول لى :

أنا لا أستخدم الروائح الباريسية والعطور الايطالية الشهيرة والذائعة الصيت .

أنا أستخدم كولونيا الليمون ! وانفجرت ضاحكا!

سألنى محمد عبده ببراءة : لماذا تضحك ؟

قلت : لأن اجابتك كانت مفاجأة بالنسبة لى .. اننى عادة أشم العطور الغالية تطل برأسها من بيت الشداشات البيضاء .

قال محمد عبده بسرعة : لهذا السبب بالذات ، أنا أكره هذه العطور وأشعر انها « تغطى » روائح أخرى كريهة !

واستطرد طائر المملكة الحنون يقول : لقد فطمت على الأطايب كما قلت لك ، ولكنى لا أطيق أى رائحة قوية تعلن عن نفسى . إذا تجولت فى حديقة ما ، فسوف تبهرك روائح الطبيعة . زهر البرتقال ، زهر المشمش . ولهذا افضل الليمون . انها كولونيا عادية رخيصة ، ثمن الزجاجة بضعة ريالات .. لكننى استريح لها !! ثم أن هناك علاقة كيميائية بين العطور وجسم الإنسان . أنا أعتقد أن مطلب جسمى هو نوع من العطر غير نفاذ !

ان حياة التقشف ،والقسوة فى الطفولة جعلتنى لا أميل مطلقا للرفاهية المبالغ فيها . جعلتنى أميل للبساطة ، أنا لا أحب مثلا الذهب ولا أستريح له وأشعر أنه استعراض لمدى ثراء الإنسان .

قلت له : يبدو أن الجمال عندك وظيفى . ما يخدمك ويحقق الهدف يصبح جميلا. جماله من أدائه لوظيفته !

قال محمد عبده : لا خلاف !

جاءت ـ أثناء الحوار ـ ابنة محمد عبده الصغيرة «ود» شرد منى محمد عبده . قام يقبلها ويحتضنها وهى مبهورة مستسلمة لعدسات التصوير ، أخذ يتحدث معها وهى صامتة . حملها فوق كتفيه وأخذ يجرى بها فى غرفة الفندق . وكلما جرى بها ، ضحكت وامتلأ وجهها سعادة ، فيشعر محمد عبده بسعادة أكثر ، قال لى وهو يغنى لها أغنية سعودية قديمة :

أعظم ما فى الحياة .. الأطفال !

عاد يغنى لابنته «ود» التى أبديت استحسانا لاسمها.. وقال محمد عبده : أجمل الأسماء هى الأسماء العربية ، ابنتى الكبّرى نورا فى الرابعة من عمرها أما هذه « الشيطانة الصغيرة » فهى عامان فقط . وعندما يكون لك بنات . تصبح مسئوليتك كأب ، أكبر !

سألت محمد عبده : هل ترى الطفولة ، بنتا ؟

قال : نعم ، ولكنى أشتاق لصبى يحمل اسمى ..

قلت لمحمد عبده : هل تخصص وقتا للأسرة ؟

ضحك وقال : وقتى كله ، ملك للأسرة .. يتخلله مهامى التى أباشرها بنفسى .. ثق تماما أن الرجل الذى يواجه مسئولياته بنفسه ينجح فى الحياة ، أما الذى يعتمد على أحد .. فلا أمل .. وأنا من النوع الذى أصحو مبكرا وأباشر عملى مبكرا ، حيث الذهن صاف والهموم غائبة نسبيا ، وحيث الأمل والشروق والصباح الجديد يعطى طعما للتفاؤل ، وحيث يصبح اليوم الجميل ذا بداية حلوة .. تنتشر طول الصباح حتى المساء .

عندما سألت محمد عبده عن أحلامه لبناته .

قال : هذه ارادة الله .. فهو علام الغيب وأنا أتوكّل دائما على الله ..

قلت : فكر معى بصوت عال ماذا تريد لهن من مستقبل !

ضحك وقال : مستقبل سعيد بإذن الله .

قلت : لو كان لابنتك « نورا » صوت جميل . هل تسمح لها بالغناء ؟

وصاح محمد عبده : أبدا !

سألته عن السبب .

فقال : لا أريد أن أكرر التجربة !

قلت : هذه شهادة على الفن .

قال بسرعة : باستطاعة الرجل أن يجابه الحياة ، ولكن المرأة ضعيفة أسلحهن بالعلم ، بالإيمان . بالتقوى وبالحياء .

وقال محمد عبده : عندما أسافر خارج حدود المملكة .. اشعر انى مسئول عن ٤ نساء . والدتى وزوجتى ونورا وود !

أحس أنى سفيرهن فى دنيا المتاعب ولو أنى أصارحك القول أنى منذ أسست مشروعا تجاريا لنفسى فى السعودية أصبحت أغنى من منطلق مريح . ولكن هؤلاء النساء الأربع أظل قلقا عليهن لدرجة أنى عندما أصل إلى أى عاصمة ، أطلبهن تليفونيا هذا ان لم تكن زوجتى تصحبنى فى رحلاتى ، وغالبا ما يحدث ذلك .

سألت محمد عبده عن والدته ؟

فقال : من والدتى تعلمت أشياء كثيرة . تعلمت التواضع والسماح وتعلمت كيف احترم « المال » لأنه وسيلة حياة . وقد كانت والدتى تنصحنى دائما وأنا طفل أن اعتمد على نفسى وكانت تقول « بيدك شق طريقك » . وكانت عندما ترانى غاضبا من شىء تقول « الغضب ما يفيد الإنسان » كانت تطلب منى دائما أن أعبر الغضب ولذلك اصبحت حليما ولكن « اتق شر الحليم » فعلا ! إن والدتى كانت يوما ما ضد الفن وكانت تقول إن « الفن معذب » لأنها تعتبر الفن فى بلادنا فى مراحله الأولى .. وعندما اشتهرت بصوتى .. كانت تحلم أن أكون موظفا يمر بالترقيات حتى يصبح « مديرا » . ولما قلت لها ذات مرة أن الفنان مهم جدا فى أى بلد . قالت : لكن الموظف أهم ! وحاولت أن أبين لها كيف أن فى أى بلد يوجد آلاف الموظفين وبعض الفنانين يعدون على الأصابع ، لكنها لم تصدق ولم تعترف بذلك ! ويبدو أن الصيغة التى وصلت لها أراحتها تماما . فأنا صاحب مشروع تجارى ، وفى نفس الوقت ، أغنى وأشبع حبى وعطشى الدائم للغناء .

سألت محمد عبده عن إحساسه بآداب الاستماع فى العالم العربى .

فقال : عندى انطباعات لا أكثر !

١ ـ جمهور العراق ، جمهور سميع ومتذوق .. وكان يغنى فى العراق يوما ما ، ناظم الغزالى قمة الغناء العراقى .

٢ ـ جمهور تونس ، جمهور يحب الغناء ، وتستطيع أن تقول وأنت مستريح أنه تحت جلد كل تونسى ، شاعر أو مغن !

٣ ـ جمهور المغرب ، جمهور فنان ، أحببت هناك صوتين .. صوت عبدالهادى

بلخياط ، فهو صوت قوى ورائع ، وصوت عبدالوهاب الدوكالى فهو صوت « مغربى » يعبر عن التربة المغربية أكثر .

٤ ـ الجمهور اللبنانى ، متذوق للحياة ، فكيف لا يتذوق الغناء .

٥ ـ جمهور مصر ، امتحان لأى مطرب يفكر فى الغناء !

قلت لمحمد عبده : هل رأتك والدتك تغنى على المسرح ؟

قال : نعم .. ولكنها تتعذب !

سألته : كيف .

قال : إنها تعاملنى كمطرب وعندها حق . انها ترانى محمد ابنها الذى تقلق عليه . إذا رأت بعض الشرود تصورت أنى متعب ، وإذا طلبت كوب ماء ، أحست أنى سأسقط على المسرح ، إذا كنت أغنى أغنية جديدة تحتاج للاستماع الشديد ، قلقت من الأصوات المشوشة على صوتى ! إنها لا تستطيع أن تستمع لغنائى . ولهذا طلبت منها أن تسمعنى فى الإذاعة وترانى فى التليفزيون .

قلت لمحمد عبده : هل افتقدت والدك ؟

قال : أنا ما عرفته أصلا ، حتى افتقده .. ولكن والدتى ، كانت الأب والأم فى آن واحد . « والله ما خلتنى والدتى أحس أن فيه شىء ينقصنى أبدا » .

قلت لمحمد عبده : هل جربت السينما ؟

قال : ليست فى تخطيط حياتى لثلاثة أسباب : أنا لا أحب الاستعراض واستثمار الشهرة ، والسبب الثانى أنى لست ممثلا موهوبا ، والسينما بحاجة لممثل موهوب . والأمر الثالث ، أن موضوعات السينما لا تجذب فنانا مثلى لهذه المغامرة ! لقد عرض على بعض المنتجين موضوعات مكررة .. فاعتذرت تماما !

قلت لمحمد عبده : هل تسمح لى بأن أتعرف على ذوقك بصورة أعمق .

قال : أنا أتكلم معك على سجيتى ..

قلت : هناك أصوات شابة ظهرت بعد عبدالحليم حافظ ولا أعرف كيف تقدرها ؟!

قال : أحب صوتين : صوت محمد ثروت فى الشباب وصوت سوزان عطية .

أما صوت ثروت فهو صوت كله شجن وإحساس ، ويصلح للأغانى الدينية والتواشيح وبإمكانه أن يغنى المجسات السعودية وينقصه الألحان التى تستنطق صوته . وصوت سوزان عطية صوت تربى فى مدرسة أم كلثوم وأشعر بنضجه وباعتزازه بنفسه إلى حد كبير . هذان الصوتان فيهما الخامة والإحساس . وأنا أعتبر المطرب خامة صوت وإحساساً وليس معنى هذا أنى ضد الأصوات الأخرى ، ولكن أنا أميل لهذين الصوتين على وجه الخصوص .

قلت لمحمد عبده : ما أحلى أغانى عبدالحليم حافظ بالنسبة لك كمطرب .

قال بسرعة : ظلموه !

سألته عن السبب ، فقال : لها ذكرى حلوة عندى . فضلا عن أدائه الحنون ، وموسيقى اللحن والكلمات .

قلت : ما أحب نجمات السينما إليك ؟

قال : فاتن حمامة وسعاد حسنى ، وكلتاهما من مدرسة السهل الممتنع فى التمثيل . أنا من حزب فاتن ، وزوجتى من حزب سعاد حسنى !

المسألة : أين مكانك فى الغناء السعودى ؟

قال : بعد الأستاذ طلال المداح !

قلت : أنت تتواضع !

قال محمد عبده : أنا اقرر حقيقة .

قلت لمحمد عبده : دعنى أقترب منك أكثر ، ليعرفك جمهورك أكثر .. هل تكتب خطابات خاصة للمعجبين ؟

قال : عندما يهزنى خطاب بعد قراءته خصوصا الخطابات التى يسألنى أصحابها عن مشاكلهم الخاصة . اننى أشعر اننى أخ أكبر .. وليس فنانا مشهورا ، لمعلوماتك ، كل صورة أرسلها لمعجب أو معجبة ، أوقعها بنفسى .

قلت : هل تحب الزهور ؟

قال : أحب « الفل والياسمين المصرى » .

قلت : هل تخاف من الظلام ؟

قال : أخاف من حشرات لا أراها فى النور !

قلت : ما أجمل عواصم العالم عندك ؟

قال : جنيف فى سويسرا . أحب السلام الذى يرفرف بجناحه فوق المدينة . أضف إلى ذلك نظافتها . انها مريضة بالنظافة يا سيدى .. أضف إلى ذلك أدب أهلها الذى يضطهدك .

قلت : قرأت مرة فى مجلة « سيدتى » حديثا لبابا طاهر ينتقد انك لا تذكر مراحلك الأولى باسهاب وانك تقفز فوقها عبورا !

قال بغضب : أنا لا أخفى شيئا فليس فى حياتى ما أخفيه . إنا ما قصرت فى دراستى .. وحصلت على قسط من التعليم معقول . حصلت على دبلوم الصناعة من المعهد الصناعى الثانوى (عام ٥٩ / ٦٠ عام دخولى المعهد ، وعام ٦٣ هو عام تخرجى) ، وأنا أعتبر هذه المرحلة هامة فى حياتى ، لأنها كانت مفترق طرق . هل أتجه لمواصلة رحلة التعليم أم أتجه للفن .. وعاله فكيف أمر على هذه المرحلة مرورا عابرا .. انها واحدة من محطات مشوارى !

قلت ماذا يعجبك فى المرأة ؟ قال طباعها . **قلت ثم ؟**

قال محمد عبده : أن تكون امرأة . أن تكون أنثى . أن تكون مثقفة .

سألته : ماذا يلفت نظرك فيها ؟

قال : الوجه البشوش .

قلت : إن الموسيقار عبدالوهاب يحب « عينى » المرأة .. يقول انهما « المدخل » لعالمها . عبدالحليم حافظ كان يحب القوام ، ويقول إنه « الاطار » ونزار قبانى يقول أن صوت المرأة عضو من أعضاء جسدها .. وأنت ؟

قال طائر المملكة الحنون بخجل :

لماذا تضعنى مع عمالقة ؟ أنا رجل بسيط ، أعتقد أن المرأة الوديعة هى

أجمل النساء . لأن الوداعة جمال معنوى باق ، أما جسد المرأة وتفاصيله فهو بالنسبة لى قضية ثانوية ، صحيح أن « الجمال المادى » مهم ، ولكن ما رأيك بإمرأة جميلة روعة الجمال وطباعهاسيئة بالغة السوء ؟! ما رأيك بإمرأة تقاطيعها جميلة مذهلة ولكنها « مسترجلة » ؟ ما رأيك بإمرأة باهرة للرجال ولكنها دساسة وتوقع الآخرين فى حبالها تغدر وتهجر ؟! ما رأيك بإمرأة تهز أوصال رجل ، ولسانها يطلق الرصاص كل ثانية ؟! أنا أحب المرأة الوديعة الطيبة المسالمة .

وسأعطيك مثلا عن طباع المرأة حسن تصرفها . من الممكن أن تكون أنت وزوجتك مثلا ، أو أنا وزوجتى جالسين فى حفل عام ويحدث أن يتطوع أحد السخفاء لمعاكسة زوجتى أو زوجتك هنا موقفان : أحدهما أن تتصرف الزوجة بحكمة شديدة وتطلب منى همسا تغيير المقاعد والأماكن حتى تتفادى المشاكل . وموقف آخر أن تثور الزوجة وتقلب المائدة وبالطبع لابد أن تتصرف كرجل وتدخل معركة غير مضمونة النتائج ؟! إن الطباع هنا تملى على المرأة سلوكها ، ولذلك الوداعة أعظم من الجمال العضوى .. صدقنى : إن وداعة المرأة هى سر أصالتها أن تشعر أن المرأة كل ما فى الحياة تهتم بك كإنسان ليس كمشهور . وأنا أعلم جيدا أن الأيدى التى تحنو ، أعظم من الأيدى التى تصفق ! أيدى الزوجة الحنونة الباسمة البشوش . تساوى كل لآلىء الدنيا ، نعم يا سيدى ، الزوجة الفاضلة ، لؤلؤة من قاع البحار لابد من الصياد الماهر الذى يذهب للأعماق ليحصل عليها ويحملها ويحفظها فى حدقات عينيه .

قلت لمحمد عبده : هل فى بيتك اسطوانات أجنبية ؟ هل تحب الفن العالمى ، خوليو ، مثلا ؟!

قال بسرعة عندى اسطوانات أجنبية ، ولكنى مغرم صبابة بكل ما هو شرقى وعربى . وأنا لا أسمع خوليو .. ولست من جمهوره العريض !

قلت : قد تغضب معجباتك .

قال محمد عبده : هل الصدق يغضب ؟ هل أنافقهن لأكسبهن ؟! أنا أتمنى أن تقام « ندوة موسيقية عربية » هدفها البحث عن صيغة للموسيقى العربية تعيدنا للأصالة إننا ندور فى موسيقى (البوب ميوزيك) وتتوه منا الأصالة العربية . هل تعرف سر عبقرية السنباطى ؟! انه حافظ على ثوبه الموسيقى . حافظ على شرقيته طوال عمره الفنى . أخضع أم كلثوم لفنه الأصيل . ولما طلبت أم كلثوم فى لحظة أن تجرب موسيقى الغير ، فقدت بعض الشىء من أصالتها وإن ظلت هى أم كلثوم العملاقة ، لماذا نحب عبد الوهاب القديم ؟ لأنه حافظ على ثوبه الشرقى وأمتعنا بأنغام عربية أصيلة . وإذا كان الموسيقار عبد الوهاب قد واكب العصر بموسيقى أخرى ، فهو عبد الوهاب الذى يهضم ، ويفرز !

أنت لم تسألنى عن « محمد القصبجى » إنه قمة هو الآخر .

قلت لمحمد عبده : هل أنت « أكول » ؟

قال : إنك تتقاذفنى مثل كرة التنس بمضرب من أسئلتك . لماذا تسألنى هذا

السؤال ؟

قلت: ان لى أصدقاء يجدون المتعة فى الطعام وهم نحفاء مثلك!

قال : الاكل عندى لا يمثل مشكلة . وأنا أتناول وجبتين فقط وغذائى الوحيد . النوم وراحة البال ، أحب الطعام السعودى والعب رياضة كل صباح ، ولا أطيق الحياة فى لندن أكثر من أسبوع . وأحب نيل مصر ، وأسعد أوقاتى فى مركب شراعى ساعةالعصرية . هكذا أجبت بسرعة على أسئلتك السريعة المتلاحقة !

سألت محمد عبده: ما دور «الكورة» فى حياتك ؟

قال : شأنى أى شاب عربى يعشق كرة القدم . نجمى المفضل من مصر الخطيب ، ومن المملكة مجموعة على رأسهم أحمد الصغير ، نجم النادى الأهلى .

قلت لمحمد عبده: ما حجم الذكاء الاجتماعى فى حياتك ؟

قال : لا يخدم الفنان سوى موهبته وعطائه للفن ، الذكاء الاجتماعى عامل مساعد لا ينبغى أن نبالغ فى حجمه !

قلت: ماذا تكره فى رجل ما ؟

قال الطيبة التى تتسم بالغفلة والقانون مثلا لا يحمى المغفل . والمرأة مثلا ، تنفر من الطيب المغفل !

قلت: هل تحتاج المرأة إلى رجل ليس طيبا ؟

قال بسرعة : المرأة تكره الشرير ، ولكنها تنفر أيضا من المغفل ، المرأة تريد إنسانا متزنا يحميها بعقله اليقظ .

سألت محمد عبده: هل أنت من مواليد العذراء ؟

قال : لا .. أنا من مواليد العقرب ؟

قلت: هل تؤمن بالأبراج ؟

قال : لا ..

قلت: إن فاتن حمامة تؤمن بشدة بتطابق الصفات من مواليد برج وآخر. فعندما تبدأ عملا ما ، مع مخرج أو ممثل لا تعرفه فإنها تسأله بذكاء عن «برجه» ثم تقرر، هل تعمل معه أم لا.

رد محمد عبده على الملاحظة وقال : إنها قناعات ! واستطرد يقول : أنا مثلا أرى أبواب البخت فى الصحف ، من باب الفضول ولكنى لا أسمح لها بأن تؤثر على سلوكى !

قلت: ما هى العبارة التى تكتبها وأنت تهدى صورتك للمعجبين ؟

قال : أكتب «مع تمنياتى بالشباب الدائم» !

قلت: ما سر العبارة ؟

قال : السعادة هى الشباب .

قلت لمحمد عبده: كم وزنك ؟

قال : ٥٥ كيلو !

قلت : متى يزيد وزنك ؟

قال : عندما أكون حزينا ! أضع همى فى الطعام !

قلت : لاحظت أن قدامى الناس من السعوديين ، يفضلونك كصوت ، ما السر يا ترى ؟

قال : لأنى أخاطبهم من خلال أنغام المجسات ، وأعيد إليهم ذكريات ..! وهناك أمر آخر ، أنا أحب صحبة الكبار . لماذا ؟ ما أدرى . ربما أبحث فيهم عن .. أبى !! ملاحظة صغيرة أضيفها لك ، يقولون عنى « أنى تربية عجوز » .

سألته : ماذا يقصدون ؟

قال محمد عبده : انها تنطبق على حالتى . الذى يفقد والده ، ثم تربيه أمه أو جدته !

سألت محمد عبده : مم تخاف ؟

قال : من الله سبحانه وتعالى .

قلت : مم تخاف من الطبيعة ؟

قال : أخاف غدر البحر !

قلت : هل تخاف غدر الأصدقاء ؟

قال : أنا أنتقيهم حتى لا أواجه الغدر يوما !

قلت : هل ثمة تشابه بين البحر والمرأة ؟

قال محمد عبده : نعم ، كلاهما عميق .. وممكن الإنسان يغرق فيه !

قلت لطائر المملكة الحنون : يقول الكاتب الجزائرى محمد ديب « لولا المرأة والبحر لمتنا من الجفاف ».

أعاد محمد عبده العبارة وقال : إنها دقيقة للغاية !

قلت لمحمد عبده : إن الابحار فى أعماقك يوشك أن ينتهى . لقد اقترب الشاطىء .. وتبقى بعض اللمسات !

● **أى الفصول تحب ؟**

ـ الشتاء ، لأنه فصل الحركة .

● **ما أجمل رقص فى العالم ؟**

ـ رقصة الفلامنكو الأسبانية . انها ثورة الأصابع والقدمين .

● **ما نظرتك للموت ؟**

ـ واقع مر !

● **كيف ترى الميلاد ؟**

ـ بداية لخوض معركة .

● **كيف تحس بالشيخوخة ؟**

ـ خطوة تمهيدية لمقابلة الإله .

● **ما احساسك بالخيانة ؟**

ـ نوع من شراسة الانسان .

● **ماذا يصدمك فى امرأة ؟**

ـ جحودها .

● ماذا يصدمك فى ملحن ؟
ـ عندما يشترط على الأجر !
● ما آخر كتاب قرأته ؟
ـ اعلام الحجاز لمحمد على المغربى .
● هل درست موسيقيا ؟
ـ انا تثقفت موسيقيا !
سألت طائر المملكة الحنون محمد عبده : ما أكثر شىء تمتلكه أو تقتنيه فى بيتك ؟
قال : أكثر ما أملكه هو الاستقرار والهدوء .
قلت له : ماذا أعطاك الفن ؟
ـ قال : امتص عذابات الأيام الخوالى .. وأضاء طريقى ، وأعطانى الشهرة .. وبعض القلق !
سألته : كم فى جيبك الآن ؟ أدهشه السؤال :
وأجاب : أعتقد أنهم ثمانون جنيها مصريا . وبضعة دولارات !
سألته : ما نوع قلمك الحبر ؟
قال : قلم جاف رخيص جدا !
سألته هل ساعتك غالية الثمن ؟
قال : غالية لأنها هدية من زوجتى !
سألته : إلى أين أنت ذاهب الآن والساعة تقترب من منتصف الليل ؟
قال محمد عبده : عندى موعد مع مركب شراعى فى النيل !

● ● ●

صمتنا !
قال محمد عبده : كأنى كنت فى عيادة طبيب نفسانى ، أعترف وأعترف ولا أملك سوى الاعتراف !
قلت لمحمد عبده : عندما أعرف مطربا ، معرفة جيدة .. أسمعه بأذن أخرى . إن الخلفية الجديدة تشاركنى الاستماع !
قال طائر المملكة الحنون : كيف ستسمعنى ؟
قلت : سأسمعك بقلب شاب وعقل عجوز .
صرخ محمد عبده : أنت تصفنى بالضبط !!



نضـــال الأشـــقر

« أنا حيــوان مســرحى » !

لمحت دموعها من بين خصلات شعرها !

كانت هذه أول مرة أراها ، وأذكر انى قلت لها فيما بعد « رأيتك فى لحظة دراما » !

كنا فى عمان ، العاصمة الأردنية ـ فى فندق الأردن ، وكان الوقت منتصف الليل ، وكانت هى ـ الفنانة اللبنانية المرموقة نضال الأشقر ، هى الداعية لحفل عشاء تكريمًا لفيروز التى جاءت تغنى فى مهرجان جرش . ووسط جو من المرح وعدد من الأصدقاء قليل ، قالت فيروز ـ فجأة ـ لنضال :

ـ نضال ، ارجعى بيروت . ماباتصورك بعيدة عن بيروت ! ويبدو ان العبارة فتحت جرحا فى قلب نضال الأشقر فلاذت بالصمت وأغرورقت عيناها بالدموع !

عادت فيروز تقول : نضال . ارجعى بيروت . كونى معنا !

وهنا سمعنا نحيب نضال الأشقر وقالت من بين الدموع :

ـ نهاد (اسم فيروز الحقيقى) ماباقدر أشوف بيروت هيك .

قالت فيروز : كل اللى يحبوا لبنان مابيفارقوها !

قالت نضال : أنا أموت حبا .. لكن مابقدر أشوف تراب لبنان من الجماجم والجثث . هذا جنون . عاوزه مسرح . عاوزه فن !

وغلبت الدموع على نضال الأشقر ، وسكتت فيروز واستطاع صديقى الصحفى الناقد سمير نصرى أن يحول دفة الحديث من « الدراما » الى المرح !

ذلك كان أول لقاء بنضال الأشقر .

ومرت الشهور والتقينا منذ أيام فى .. عمان !

حزمة أعصاب مشتعلة

أسخف المهام الصحفية هى الذهاب لشخصية ما لاجراء السين والجيم فى الحال وكأنى اتخلص من « المهمة » لأتحرر من عبئها ! وأجمل المهام الصحفية هى « التوغل » فى نفس وقلب وعقل انسان .. والعزف على أوتاره ، ومحاولة البحث عن مفاتيحه !

تذكرت « ونضال » تعد لى كوب شاى بنعناع ما قاله لى الفنان صلاح أبو هنود ، نقيب الفنانين الأردنيين . قال : نضال اسم على مسمى . فحياتها منذ كانت طفلة حتى وقتنا هذا نضال« نضال ! وقال : يكفى ان تعلم انها بطلة مسرحيات كارت بلانش ، ومجدلون ، وشجرة الدر . انها فنانة تفرض عليك الاحترام .

تذكرت أيضا ما قاله لى الشاعر الأردنى حيدر محمود نضال الأشقر حزمة أعصاب مشتعلة دوما ، كالضوء . ونضال الى جانب اهتماماتها السياسية ، تحب الرسم وتتابع أى حركة فن تشكيلى وتحب الشعر وتهوى الموسيقى . نضال يا سيدى « باختصار » « حيوان مسرحى » كما تطلق هى على نفسها !

تذكرت أيضا عبارة موجزة للكاتب الأردنى الكبير محمود الشريف : نضال ، فنانة بارعة وتحيا حياة الفنانة الملتزمة ، لا انفصال بين الاثنين !



وجاءت نضال ، فقلت لها : لماذا كان المسرح السياسي هو اهتمامك وحبك و .. هواك ؟!

قالت وكأنها تستفز ذاكرتها . طفولتي تجيب على سؤالك . طفولتي رأت والدى يطارده البوليس . ورأت أمى تطرد ضابطا جاءنا بعد منتصف الليل وقالت له « أنت ما بتستحى » ؟ طفولتي رأت مطاردات غريبة لوالدى ـ وماكان بلص ـ ولكنه كان صاحب آراء سياسية تغضب السلطات .

طفولتي رأت والدى يجيئنا هاربا ليرانا .. ثم قبيل الفجر يفر حتى لا يراه أحد من العيون المبثوثة فى كل مكان ترصد تحركاته . طفولتي عرفت ما معنى النضال فى وقت مبكر . وعندما جئت الى الدنيا اختار لى والدى اسم : نضال !

□ كـــان أبى تـطارده الشرطة وماكان لصا !

فى كتف جبل !

كنت احتفظ برقم هاتف نضال الأشقر . وذات مساء تحدثت معها ، فأرسلت لى سائق سيارة تاكسى لأن سائقها « فى اجازة » . ويبدو ان السائق كان يتعرف مثلى على العنوان الذى يبعد ٢٠ كيلو عن عمان فى منطقة مترامية اسمها « الهاشمية » ، اختارت نضال الحياة فيها بعيدا عن ضجة العاصمة . وقد قضيت داخل التاكسى ساعتين نبحث وسط جبال ووديان سحيقة عن « امرأة .. بلا عنوان » ! ونشط « خيالى » فى تلك اللحظة وتصورت انى وقعت فى فخ ، لولا انى أعرف طبيعة الشعب الأردنى ، لذهب خيالى أبعد من هيك

فجأة ، لمحت ضوءا من بعيد ، وقلت للسائق : لابد أن يكون هذا بيت « أبو نعيم » وهذا اسم زوج نضال . ولكن كيف نصل اليه . ومرة أخرى ناضلنا حتى نصل . ووصلنا !

حين رأتنى قالت « الحمد لله ع السلامة » وفهمت انها كانت تسأل الشرطة عنى فالطريق من قلب عمان الى بيتها لا يستغرق أكثر من ربع ساعة على حد قولها !

وبدأت . بعد اللهاث الطويل . أتأمل المكان بعمق . فالهدوء يحيطنا من كل جانب وكأنه بحر . والفيلا صغيرة ومعلقة فى كتف جبل . والبيت حديقة تتخللها أثاث ، وليس العكس ! فكل ركن تعلن فيه « الخضرة » عن نفسها . وشعرت بأن هناك « حوارا موصولا » بين نضال وأشجار حديقتها .

وصرخت نضال عندما واجهتها بتأملاتى « ما معقول هذا حقيقى ، كيف فهمت هاالحوار » .

وقلت لها : ذات مرة كنت أحاور أستاذ نبات ، فقال لى ان للنبات لغة . وهو أحيانا يغضب وأحيانا ينتشى . وعندما تريد ايذاء النبات ، فهو يعرف وقد يحترق وكأنه ينتحر ! وجلست نضال أمامى فى « بوز » مسرحى تستمع لمعلوماتى المتواضعة ! أثناء جلستنا كان هناك « كلب » يجثو تحت قدميها .

وقالت لى ان فى البيت ثلاث قطط . وأرانب ودجاج وأردفت قائلة « الحيوانات تعطينى جو الريف . البداوة . البساطة . هل تعرف انى من برج الميزان . برج الفنانين والمجانين . برج بريجيت باردو ؟! »

مأتم في .. قلبي !

تقول لي نضال الأشقر .. ليس مصادفة ان اسمي نضال ، واسم أبي : أسد . لكن الثابت أن قصة الواقع عندي أكبر من القصص التي لعبتها على خشبة المسرح . يقولون ان الفنان يهرب من الواقع الى الخيال ، وأنا أعتقد انها ـ أحيانا ـ نظرية خاطئة . الفنان يفتش عن الواقع الحقيقي ، ويلتحف به !

وأقول لنضال .. أحيانا يفشل الانسان في حياته الخاصة .. فيفتش عن تعويض . عمل كبير . نشاط رياضي . اهتمام سياسي .

□ الفن ـ ايها السادة ـ احتراق !

قالت نضال : أبدا . حياتي هي « نمط » اسلوبي . كنت في المدرسة أخطب في زميلاتي . وفي الجامعة أعقد الندوات . الطفولة تفرض على الانسان « طعم ومذاق الحياة القادمة » . كنت أحب ان « أفتي » في موضوعات شتى . كنت أحب القضايا الصعبة . حتى في مراهقتي عندما أحببت لأول مرة ، جاءني حبيبي مكسور اليد . لم يذهب لمستشفى . جاءني والدم يتساقط من ذراعه . أعجبني هذا المشهد الدرامي . أعجبني لجوؤه الى ! كنت بسيطة وكنت أفهم الحياة جيدا . كان عندي مشاعر سامية تكسو مسامي ولهذا لم تكن مشاعر الحب العادية ترضيني ! لم أكن بريئة كل البراءة ولكني كنت أعرف أين أقف في هذا البحر . وأعرف التيارات المؤذية ولا اذكر ان أحدا ، سبب لي أي أذى ! عندما كبرت ودرست التمثيل في لندن ، كنت مشهورة في لبنان ربما قبل أن أعود الى بيروت . بدأت في التليفزيون اللبناني مخرجة ، و« شقيت طريق طويل حفرته بأظافري عشان أكون فنانة لها قيمة وأثر ..» وتستطرد نضال : اعطاني المسرح هويتي الحقيقية وفهمت ان المسرح حوار بين نص يحمل مضمونا ويجسده ممثلون وممثلات .. و« جمهور يتصف بالوعي ، مسام عقله مفتوحة للتلقي » . وتستطرد نضال ـ حزمة الأعصاب المشتعلة ـ « الفن ياعزيزي احتراق » ! ولا تتوقف ـ كالنزيف ـ عن الحديث ، فالموجة واحدة بيني وبينها . تقول نضال « قرأت مرة ناقدا كبيرا يقول انه يذهب للمسرح ـ أي مسرح ـ ليتسلى فقط ، فأقمت له ، لهذا الناقد مأتما في قلبي » !

الخادمة .. ياقوت !

اسأل نضال الأشقر : « لماذا شخصية الخادمة ياقوت التصقت بك ؟»

تضحك نضال ضحكة عالية مجلجلة من القلب نصفها براءة أطفال:لعبت هذه الشخصية في مسرحية (المفتش العام) .. أنا شخصية انسانة جبلية ساذجة . تعرف لماذا أحببتها لأنها أنا !! نعم ، أنا بنت جبلية قروية من قرية ديك المحدى . عندي بديهة انسان الجبل . وعندي الالتصاق بالحياة القديمة التقليدية مع نزعة الحداثة . هل تعرف ماذا يقول زوجي فؤاد نعيم عني ؟ انه يقول ان نضال « تشبه جدتي ، وابنتي » . لست أدري ، كيف كانت هذه المعادلة . لكنها حقيقة .

وأقول لنضال « سرقت حرب لبنان منك المسرح » !!

قالت « حزمة الأعصاب المشتعلة » : سرقت الحرب كل شيء ..سرقت الحب ، والبساطة ، والمسرح ، والفرح . وتركت الحطام والعذاب والحجارة واليتامى

□ لن أذهب الى بيروت لأموت برصاصة واحد يتسلى !

□ لبنان هى ميلودراما العصر والأوان !

والأرامل . تقويض انسان برصاصة فى بيروت أصبح شيئا عاديا يفعله العاطلون . ما عاد للرصاص قيمة . ولو انا ذهبت الى بيروت ، يمكن أن أدفع حياتى ثمنا لشخص أبله يتسلى !! جئت الى الأردن واخترت بقعة بعيدة .. وكانت الأردن كريمة معى ، أكثر مما تخيلت . وأحببت البقاء هنا حتى تنتهى مسرحية الحرب التى تعرض منذ سنوات بفشل كبير !!! منذ ٧ سنوات لم أقف على مسرح ، وطيلة هذه السنوات ، كنت أشعر بصداع مزمن غير عادى واحتار الأطباء فى تشخيصه . أنا الوحيدة التى أعرف سر الصداع . انه البعد عن المسرح . ٧ سنوات لم أسمع تصفيقا مدويا له طعم خاص . ٧ سنوات لم اقرأ نصا يقول شيئا . فى سنوات الحرب ، ما كان للكلمة دور يذكر . ما قيمة الكلمة واحياء كاملة تهوى وتستوى بالأرض من قصف المدافع . ما صار للقصف الاذاعى ـ مهما تصاعد ـ قيمه . صارت لبنان هى ميلودراما العصر والأوان . وكنت أنا أتفرج وأتعذب . أصرخ وأبكى . كنت مغمورة بالغموض ، وأتمنى لو كنت حشرة زاحفة وليس انسانا له عقل وقلب ولسان !

لست جميلة !

سألت نضال عن « الضعف الانسانى ، الحب .. والزواج » .

قالت تصحح لى العبارة : الحب ليس ضعفا . عندما تجد الانسان « المضبوط » الذى يعيد اليك توازنك مع نفسك ، تعطيه كيانك وحياتك دون تردد ! أنا لم أعرف نفسى إلا من خلال فؤاد . تاريخ قلبى بدأ من نظرة مركزة فى عينى ، أثناء تصويرى فيلم الأجنحة المتكسرة .. وظلت النظرة تختبىء تحت جلدى فاذا عاد نفس الشخص بعد ١٠ سنوات ، تلاقينا دون أن ينطق أحد بكلمة ! كنت دائما انسانة غير تقليدية . وأنا تزوجت رجلا ، هو حبيبى وصديقى وعشيقى . نحن اثنان يعيشان تحت سقف واحد .. بإرادتين اثنتين . وعقلين اثنين وقلبين اثنين . وذوقين اثنين ونمطين مختلفين من الحياة وهذا هو الذى يعطى لحياتنا الجمال والاستمرار كل منا له صداقات . وكل منا يقدم أصدقاءه للآخر .. باحترام متبادل ان حياة الفنان فيها بعض الجنون ، ان لم تكن كلها جنون وزوجى فؤاد ، يستوعب هذا الجنون و «لا يحرمنى اياه » ! وأعتز دائما بأنوثتى كامرأة . انها ليست أنوثة الاستكانة ولكنها أنوثة امرأة ، تعرف انها بالتعبير عن ذاتها تقطع برارى العذوبة والطفولة والبراءة ! أعرف انى لست جميلة ذلك الجمال الذى نراه فوق الكرسى ، ولكنى أملك أدوات ابهار أخر ، لا يحسه إلا القليلون ، مثلك مثلا !

وقلت لها : ان جمالك من النوع الذى يعمر القلب . ان جمالك فى شخصيتك ، حيث تستثمرين كل مفردات الحياة ، لكى تكون عند أطراف أصابعك ولكن يظل عندى تساؤل هل نضال المناضلة ، مكانها بيروت أم عمان ؟

وتصرخ نضال : لو توقفت الحرب يوما كاملا ، لذهبت أمثل فوق الجدران المحطمة . لكن ما قيمة شجاعة مزيفة فى ذهابى الى بيروت لأموت برصاص البلهاء ؟ ان صديقتى فيروز لم تقف على المسرح مرة واحدة خلال ٧ سنوات . وأنا أحيا للمسرح وبالمسرح . هل الشجاعة هى الموت كالدهماء ؟

متربصة .. بالود !

تقول لى نضال الأشقر : تعجبنى الفنانة سناء جميل . أحس ان المفردات بينى وبينها واحدة . وقفت الى جوارها فى مسرحية مشتركة . شعرت ما معنى الالتزام فى الفن . ربما جمعنا سويا موجة « الالتزام » . فإن سناء جميل هى نجمة المسرح الأولى فى مصر . وأمينة رزق قابلتها فى تونس انها الصدق ذاته . انها أم المسرح . وسعاد حسنى أحلى الممثلات وأكثرهن تأثيرا فى جماهير السينما العريضة . وفاتن حمامة ، زعيمة التمثيل فى العالم العربى ، لا أستطيع اضافة كلمة واحدة بعد هذا اللقب . وتحية كاريوكا المتوحشة الفريدة ، المصرية . ونيللى ، هذه الطاقة غير المحدودة من العطاء . وكرم مطاوع الرائع فنا وانسانية . ودريد لحام فى سوريا ، غدة فن تسير على قدمين . ولكنى أهمس فى اذنه : « هناك فرق بين المسرح السياسى والمسرح المسيس !!! » . وهناك على الصعيد الانسانى الشاعر أنسى الحاج الذى كتب عنى مجموعة قصائد بعنوان « لن » . أنا وكل فنان لبنانى لا ننسى فضل انسى الحاج علينا . ومحمد الماغوط ، قيمه . وصداقة وعالم أثيرى . وغادة السمان ، قطعة منى ، أحيانا كثيرة ، أشعر أنى اشتاق فى الحديث الهاتفى معها . وليلى بعلبكى ، اذا رأيتها تدمع عيوننا . وفاطمة السردوك ، أختى وصديقتى . أما فيروز ، فهى بالنسبة لى كوكب صغير لم يكتمل ! هذه هى بعالمى ، بأصدقائى ، بأنماط بشر أحبها ، مقاتله متربصة ولكن مقاتلة بالحب ، متربصة بالود .

واسمحى لى ياسيدتى المنسوجة من لحم ودم وفن وحب ونضال ، أن أضمك لقائمة أصدقائى وصديقاتى . هل تقبلين ؟!

اذا وافقت ، فابرقى لى ، لأقدم أوراق اعتمادى !!

□ هناك فرق بين المسرح السياسى والمسرح المسيس !

□ افيـــــروز كوكب صغير لم يكتمل !





نجمتى المفضلة !
اينوك ايميه

«.. سر اعجابى بها فيلم رجل وامرأة . كان قصيدة جميلة أبياتها منسوجة من أعصاب رجل وأحاسيس امرأة!»

فى حى « الغابة » الباريسى ، المترامى الأطراف ، يرقد فوق هضبة صغيرة بيت اينوك ايميه . فيلا من دورين . مزروعة أباجورات ان صح التعبير . والحوائط كأن لها أذرعا .. تحتضن أى زائر لسيدة البيت . مادامت هى قد رحبت به ! الموسيقى تدغدغنى . ورائحة تتغلغل فى مسامى بوصف ان حاستى للشم هى أبلغ حواسى وأكثرها سلطانا على ! الزهور متناثرة بعناية « يابانية » . السقف ، كأنه سماء مرصعة بنجوم . واللون الغالب على الأثاث البسيط ، هو الأبيض .. والروز .

وسمعتها تقول وهى تقرأ اعجابى بفوتيل مريح « ان كل قطعة اثاث هنا ، تعانقنى فى صمت . فان لى معها تاريخا » ..

تماما ، مثلما تخيلتها ، رقة مذابة . اصغاؤها .. قبلات صامتة ، ويجعلك اذا كنت محدثها تحكى وتستطرد وتتجول فى رياض عمرك وتصحبك فى برارى صباك ، ولا تخجل حتى من رواية نزوات مراهقتك ! تماما . مثلما أراها فى أفلامها . « رجل وامرأة » .. « الموعد » . حنان . عذوبة . نضج . دعوة . فهم . تأمل . حزن ، ذكاء . وعى . تجربة .

قالت لى .. « طفولتى كانت عادية . كنت دميمة . كان الأطفال يسموننى « الحلوفة » . كنت سمينة بعض الشىء . أضربت عن التهام الشكولاته فلم أتمتع بشىء من الوسامة . وحين أحببت فى السابعة عشرة ، تفتحت مسامى . وكأن ماردا انطلق داخلى . هل الحب يؤدى وظيفة « جراح التجميل » . دون أن ندرى ؟ ربما !

وديعة وهى تحكى . بساطتها ، هى مفتاح شخصيتها ، لها ضعف جذاب .. هو اطار أنوثتها .. كامرأة . ان اينوك ايميه ـ وهذا انطباع رجل ـ خلقت لتستقر بين ذراعى رجل عاشق !

ابتسامة اينوك ايميه ، لأكون منصفا ، تعتذر الف مرة عن أى خطأ وارد فى بقية جسمها الممتلىء . ولكنها تعرف كيف تغطى هذا العيب .

وحين قلت لها : أن فيلمك « رجل وامرأة » رأيته عشرات المرات واحتفظ به على الفيديو كاسيت ، خجلت من الملاحظة ، كعروس تصافح اذنها كلمات غزل لأول مرة .. وأشعلت سيجارة .. وقالت لى ـ كلنا يأكل وينام ـ ولكن أغلى المسرات فى الحياة . قلب يخفق مع قلبك وذراعا امرأة وأنت كفارس عائد من معركة .

أغلى المسرات ـ صدقنى ـ ان تحب بغير حذر . بغير حسابات . بغير تفكير بالثمن . ان الدورة القصيرة للعمر ، مهما يكن عدد سنوات العمر ، فهى مثل سنبلة القمح ، ملأى بالحبوب الناضجة ! نحن حين نحب ، تتعانق دوراتنا الدموية مع من نحب ، وتتصافح أجهزتنا العصبية ، لولا الحب فى حياة الانسان ـ صدقنى ـ ما اكتشفنا ما حولنا . ألوان الزهرة . ضوء الشمس . غضب الريح . مجرى النهر . عبق الزهر . لولا الحب ـ صدقنى ـ لمتنا من الجفاف !

صدقنى . صدقنى !

كلمة ترددها ، بكل العذوبة ، اينوك ايميه . وهى لا تدرى ، اننى أصدقها سلفا . أصدقها لو كذبت . ان للكذب ، بين شفتيها ، طعم الصدق .

نجمتى المفضلة تعدد افلامها ، كما تسمح ذاكرتها : منزل على البحر . زهور العمر . العشاق . اللقاء السيىء . اثنان فى استطاعتهما قتلى . الاناء الذى يغلى .

لو كنت هناك ، لحظة أن كانت المدينة تستحم فى بحر من الأضواء . لحظة أن أصبح خصرها مهرجانا للزنابق ، وصدرها حلبة للمبارزة .

لو كنت فى مدينة « كان » الفرنسية ورأيت نجمتى المفضلة « اينوك ايميه » تصعد المنصة وتتسلم جائزة « النخلة الذهبية » بين تصفيق الأكف وهدير عدسات المصورين ومحاصرة ميكروفونات الاذاعة .. لاخترقت الحصار. وأشبعتها لثما !! فإذا فشلت أرسلت لها باقة ورد وبضع كلمات .. « من معجب زارك مرة فى الشتاء الماضى ومنحه لقاؤك دفئا . من معجب اكتشف أن المحكمين فى مهرجان كان السينمائى بعافية ، حين منحوك جائزة التمثيل الأولى . فهم ـ والحق يقال ـ استردوا الذوق السليم بعد وعكة طارئة !» .

قابلت مرة « جورجينا رزق » ملكة جمال العالم ، فعرفت معنى « الأمية » فى الجمال . ان مقاييس جسمها محسوبة . ولكنها ـ مطروحة ـ من الجمال الباقى . الذى بنظرة واحدة يختصر مئات العبارات والكلمات . انه الجمال البليغ الذى لا يعرف الثرثرة !

واينوك ايميه من ذلك النوع الذى يثير فيك الحنين ، لتستعيد أشياء من عالمك الخاص . الرفاق . المعارف . البيت . الأطفال . اينوك ايميه يذكرنى وجهها دائما بالألفة والمحبة والبهجة التى لا تذهب . ووجوه ممثلات أخريات يذكرننى باعلانات معجون الأسنان !

فى باريس ، والأمطار تغسل كل شىء . الشوارع والقباب وهامات البيوت والشمس مختفية متوارية .. سطعت فى رأسى فكرة ! لماذا لا أزور « اينوك ايميه » ؟!

ومثل معجب من سوهاج بسعاد حسنى ، عرضت الفكرة على صديقى « عمر الشريف » الذى ظن اننى أمزح ! فلما أحس ـ من لهجتى ـ بجدية ما أقول ، امتثل للأمر ، وأدار قرص التليفون . وجاءت اينوك ايميه على الخط . ولخص عمر الشريف رسالتى بأمانة . فرحبت هى بالفكرة وقالت انها اعتادت أن تدخل محارة الوحدة أيام الآحاد ، ولكنها ستكسر القاعدة وتستقبلنى .. لظروف سفرى .

باختصار : فرحت ..

الرحلة ، الراس فى مواجهة الحائط . الحياة اللذيذة . الطريق الكبير . رجل وامرأة . ليلة فى قطار . الموعد . محل الموديل . حبى الأول .

قلت لاينوك ايميه : أذهلتنى قصة « حبى الأول » . كيف تنمو علاقة بين أم .. وابنها ؟ انه شىء مقزز !

لم تغضب ، ولم تثر . بل قالت فى صوت خفيض (أحب المرأة التى صوتها لا يسمعه سوى رجل واحد) .

الفيلم صدمة لك ، وصدمة لى ، ولكن العزف على أوتار النفس مهنتى . هذا قد يحدث ، فالقيم اختل توازنها . والأمور نسبية . ومنسوبة للظروف والملابسات ! أنا أعتبر الشخصية معطفا أرتديه . وأعتبرالفن هو الحب الباقى الخالد . أنا انسانة مزاجية بالنسبة للشخصيات التى أمثلها . أنا « أتوحد » مع الشخصية ولا أفقد الوعى .

ان قلبى ينبض حين أحب . أعيش دقات القلب وارتعاشات الشفاه . وأنا أبكى حقا ، حين أعيش الفراق . أن مصدر الاحساس هو الفهم . وليس فى الفن ايدلوجيات . ان ليلوش لم يقدم قصصا مرموقة لروائيين مرموقين . انما صارت فيما بعد مرموقة حين هزت العالم بصدقها . ان ليلوش « يلملم » التفاصيل الصغيرة . ويصنع منها نهرا من الصدق الذى يلسع !

قالت نجمتى المفضلة .

امرأة بطيئة . أتنفس ببطء . وامضغ ببطء . وأتحدث ببطء ، وأفكر ببطء . لكنى لست بليدة . ان البطء عندى هو معيار للجدية والمتعة .. وفهم جوهر هذه الحياة ! ـ وأنا صدقنى ـ لا أعرف ما هو أجمل افلامى . لكننى أعرف أحلى لقطاتى . هناك لقطات تبدو من فرط حلاوتها .. وكأنها عمل جنسى متكامل وبديع .. الحب والجنس . وجهان لعملة واحدة اسمها الصداقة وأرجو ألا يضايق القراء فى بلدك رأى سيدة فرنسية مثلى !

حماس اينوك ايميه ، حين يغلبها الحماس . لا تنفعل . ولا تهز قدميها من العصبية . ولا تأكل أظافرها .. ولكنها تركز نظرتها فى عينى من تحدثه كأنما تكسب « جولة المناقشة » باقناع أنثوى لا يقاوم . عينيها !! حين قلت وسط حماسها : هل أنت جسر « لفكر مؤلف .

ذابت الابتسامة وتوارت وقالت «أنا لست جسرا» أنا نهر لى منبع ولى مصب انبع من ذاتى وأصب فى الانسانية ؟؟

سألتنى اينوك ايميه عن الفن فى بلادى . فقلت ان « الممثل » هو أكثر أدواته تقدما ! اعترضت بشدة على كلمة « أدوات » . وقالت الفنان ليس آلة . atool وإلا ما معنى الابداع ! انك تجرد الفنان من عقله واحساسه عندما تصفه بالأداة .

وسألتها عن نجوم العصر !

١ ـ جريجورى بيك .

قالت : « نضج فى أوانه تماما » .

٢ ـ عمر الشريف .

قالت : « طفل تائه . ان عثرت عليه . أبلغنى » .

٣ ـ صوفيا لورين .

قالت : « مهرجان دائم .: » .

٤ ـ جينا لولو .

قالت : « مصورة سابقا . وحاليا » .

٥ ـ انطونى كوين .

قالت : « عمدة السينما . أينما كان » .

٦ ـ كلود ليلوش .

قالت : « مسكون بجان اسمها السينما » .

شىء ما فى .. اينوك ايميه ، يذكرنى .. بفيروز !

ما هو ؟ لست أدرى !

خاطر سريع مر بى . على طريقة كلود ليلوش .

جاءت سيرة السياسة . فقالت اينوك ايميه كلاما شديد الاختصار . قالت لولا الحكام والزعماء والمعلمون الخالدون ، لفقدت الخصومات بين الشعوب ، أعظم أسبابها !

مرت لحظات صمت . كان لها سحر خاص . فقد أعطتنى اينوك ايميه فرصة لأرى بعضا من ذوقها . كامرأة داخل عشها . هى حريصة على أن تطلق عليه ذلك اللقب .

لون ستائر نوافذها . يعطينى احساسا ، بالأفق الممتد ! كراسى البيت ، رأيت مثلها . يتناثر فوق أرصفة البحر فى أثينا . جرس الباب ، يدق دقات استئذان ! رنين التليفون . موسيقى ناعمة !

التليفون صغير جدا . فى حجم الكف ، ولونه أبيض .. دببه وأسود ونمور محنطة ، تقبع فى أركان الصالون الفسيح . نافورة صغيرة . غرغرتها تعيد الى ذكرى وجع حب أسبانى . على الحائط ، لوحات بعضها لبيكاسو . والأخرى لا أعرف لمن .. ولكن اللوحات تبدو نوافذ على دنيا بعيدة . قريبة !

لها . لاينوك ايميه ، صورة ملونة ، وهى تبكى . دموع فرح . والناس تصفق لها بعد عرض أحد أفلامها : اللقاء السيىء . وأسألها ، ماذا كان موضوعه . فتقول « الغربة الشديدة بين اثنين متجاورين . ربما زميلين ، ربما صديقين ، ربما زوجين » !

لاحظت أن اينوك ايميه لا تلبس « حلقان » . ولا غوايش . ولا أى سلاسل لماذا ؟ هى تقول « لا أسمح لشىء يقيدنى مطلقا سوى بعض أفكارى المترسبة منذ صباى .. وأحاول التخلص منها » !

وبينما التهمت أنا فنجان الشاى فى أقل من ثلاث دقائق . وهذه احدى عاداتى السخيفة ، ظل فنجان الشاى ، بجوارها .. ممتلئا فترة طويلة .. ترشف منه على بطء .

فستان اينوك ايميه ليس فيه شىء يلمع أو يسطع أو يبهر سوى صاحبته .

قطعت الصمت بسؤال عن حياتها الشخصية !

قالت بعذوبة آسرة وقاطعة فى وقت واحد .. « لانك تقابل اينوك ايميه ، الفنانة » أعطيك بلا بخل اينوك ايميه . ولكنك لو كنت تقابل « فريدا او سلو ايميه » لكان ذلك امرا آخر !

ابتلعت سؤالى .. أو أعدته ـ ان شئتم الدقة ـ الى مرقده ! وأخذت تتكلم بذكاء عن موضوع فيلم جديد ، تقرؤه .

تقول نجمتى : الفضيلة والرذيلة ، هما تعبير الناس عن ظروفهم الخاصة . والظروف التى تفسر الأخلاق هى فى طبيعتها كسائر الظروف التى تحكم كل أعمال الحياة . صدقنى !

قلت لاينوك ايميه : ما نوع قراءاتك ؟

قالت : لست مشتغلة بالفلسفة على اية حال . ولكنى أحاول أن استخدم هذا « الموتور » . وأشارت الى رأسها !

قلت لها : هل تكتبين أحيانا ؟

قالت : أحيانا .. ولكن المهم . ماذا أكتب . اسمع ، آخر ما قلت .. ان هذه الدنيا تحتاج الى أنبياء يعلمونها فن العصيان والكبرياء والتحدى ..

سألتها بفضول تقليدى : ما ظروف هذه العبارة ؟

قالت :حين يقبل الفتى حبيبته فى لحظة ما ، لا تسأله .لماذا اخترت هذه اللحظة لتقبلنى . انها لحظة . ومضة . فكرة . هذا « الموتور » مرهق لصاحبه أحيانا . وأشارت اينوك ايميه الى رأسها !

مرة أخرى ، ابتلعت سؤالى .. وأحسست بالخجل .. ويبدو انها قرأت فى عينى ذلك . فأرادت ان تبدد هذا الاحساس .. فسألتنى عن سر اعجابى بفيلمها « رجل وامرأة » .

فقلت : يبدو كقصيدة جميلة .. أبياتها منسوجة من أعصاب رجل ، وأحاسيس امرأة .

قالت اينوك ايميه : حكاية كلود رجل وامرأة .. هى « العلاقة الانسانية » العميقة التى تصنعها ظروف اثنين .. لهما نفس المفردات ، ويتحدثان بلغة واحدة .. وربما يتنفسان .. على موجة واحدة !

كانت الريح ، تصفر خلف النوافذ .

وكانت اينوك ايميه . تعطى المكان دفئا خاصا وهى تعرف على طريقتها الانسان . « الانسان أفكار ومشاعر ورغبات وقدرة ... » .

صمتت وأخذت نفسا من سيجارة فرنسية وقالت : هل توافقنى ؟ أومأت برأسى .

استطردت تقول اينوك ايميه : من هذه العناصر الأربعة ، يتألف ما نسميه سلوكا محترما أو فضائل أخلاقية . صدقنى ان أى شىء أخلاقى ليس فيه مساحة للعقل ، هو شىء غير أخلاقى بالمرة ! أليس العقل هو الذى يصنع الجهاز العلمى ويحل المسألة الرياضية ؟!

صدقنى . أن تكون عبقريا أو انسانا عاديا .. ذلك كله علاقة كيميائية مع ظروفك ومجتمعك . وقدرتك على تشغيل هذا « الموتور » العقل وليس هناك أسباب سرمدية غامضة .. أخرى !

الحوار معها . مع اينوك ايميه . مهما طال . فهو قصير !

حاولت أن أعرف عمر نجمتي المفضلة . طرحت عليها خمسة أسئلة . الهدف منها الوصول لمعلومة .

قالت فى ايجاز بليغ بليغ : العمر هو نظرتى للحياة . مقدار تفاؤلى . حجم تشاؤمى . قدرتى على تحقيق أحلامى !

وطلبت فنجانا آخر من الشاى ، ربما لأطيل الجلسة بخبث طفولى وجاءت مديرة البيت . امرأة من ساحل العاج ، متوسطة العمر .. وضعت الأبريق أمامى . بأسلوب بنات الجيشا اليابانيات . الصمت . والاحترام . واللافضول !

قالت لى اينوك إيميه:عرفتها فى أحد مواقع التصوير بافريقيا ، وتصادقنا . كنت فى ظروف نفسية تشابهت مع ظروفها ، فاقتربنا . هى لا تخدمنى ، بالمعنى الحرفى . ولكننا نعيش صداقة هادئة !

حاولت أن أشرب الشاى ببطء . ففشلت .

قالت اينوك ايميه وهى تضحك وترفع خصلات شعرها .. يجب أن يكون الانسان نفسه . ان سحر أى رجل ان يكون نفسه . وسر فتنة أية امرأة . ان تكون نفسها ، ولا تستعير تجارب أخريات .

أعجبنى الكلام .. فرشفت الشاى الساخن فى رشفة واحدة !!

لو كنت هناك فى المدينة السابحة فى النور التى أصبح خصرها مهرجانا للزنابق وصدرها حلبة للمبارزة .. ورأيت نجمتى المفضلة اينوك ايميه .. تتسلم جائزتها الأولى النخلة الذهبية . لاخترقت الحصار وأشبعتها .. لثما !





معبودة الحب ! كلوديا كاردينالى

« .. بعت يوما مذكراتى لمجلة فرنسية مقابل خمسة آلاف استرلينى لأنفق على نفسى وأعيش بكبرياء!»

أستأذنكم في أن أبدأ حوارى مع « أجمل اختراع إيطالى » بعد المكرونة الاسباجتى بسؤال كان من المفروض في لغة الحوار أن يتسلل ليكون السؤال الأخير !

أما لماذا كسرت القاعدة وقفزت إلى « النهاية » وأنا أشرع في البداية ، فذلك لأن اجابة السؤال كانت بمثابة قراءة لكف كلوديا كاردينالى أو « الزهرة الحنون » كما يلقبها نقاد إيطاليا ! وربما دفعنى إلى « مباغتتها » بالسؤال قبل الاوان ان « كلوديا » كما يناديها الايطاليون ، محددة كرمح رومانى .. صريحة كشمس افريقية !

سألت كلوديا كاردينالى : لمن أنت مدينة باستمرارية الشهرة والسحر الخاص . رغم زحف السنين ؟!

قالت « أجمل ابتسامة » بعد تفكير عميق وهى تدخن بشراهة جميلة ...

« أنا مدينة للحظ ، للصدفة ، للشمس . لموراڤيا . لأكثر من صدمة عاطفية . لتقلبات القلب . لنزوة عقل . لجمهور أحبنى . لناقد ما كرهنى . لرجل يوما ما ـ خدعنى . لفيلم لى فشل . وقبل كل هذا مدينة للحماس . انه طاقة معنوية لها فعل السحر لولا حماسنا لهزمنا الزمن ، وصرعتنا الصدمات وذبحنا الفشل وقتلنا اليأس ، إن أحلى العطور وأجمل مساحيق التجميل فى العالم لا تضيف شيئا ما لامرأة ، رحل عنها اليأس . إذ بالحماس يتلاشى من أمامنا قبح العالم وضراوة بعض البشر . ان من لم يشم زهرة ، ومن لم يتأمل نجمة ومن لم يعرف قلق انتظار حبيب .. ليس انسانا . اننا فى حوار دائم مع الزمن ، وبالحماس نكتشف المجهول ولا نفقد الشهية للمعرفة !» .

روما ، صباح يوم أحد ...

أجراس الكاتدرائيات القديمة تجلجل فى هيبة . الشمس اعتذرت عن موعدها . أمطار حنونة تغسل الشوارع والتماثيل والذكريات الرديئة من رأسى !

إحساس بالشجن يغلفنى « وبى حنين ما بعرف لمين » كما تغنى فيروز !! وحملنا ـ جمال كامل وأنا ـ تاكسى إلى « فيافنتو » شريان روما النابض بالحياة ليل نهار . السائق ثرثار ، يعرف اننا لا نفهم ايطاليته ومع ذلك لا يكف عن الكلام والتلويح بيديه . أنا أبتسم مجاملة له وجمال كامل مشغول بلوحة أخرى يراها من خلف زجاج التاكسى : « البشر والمطر » ! توقف التاكسى أمام سينما فمينا ، حيث دعتنى « الاختراع الايطالى الجميل » كلوديا كاردينالى لمشاهدة العرض الخاص لفيلم ألمانى من اخراج المخرج الألمانى « هيرزوج » وستأتى هى فى نهاية الفيلم لتواجه النقاد . أطفئت أنوار الصالة ، وبدأ عرض الفيلم .. الذى حالت « لغته الألمانية » بيننا وبين الالتحام به .. لكن « الصورة المعبرة » على حد قول جمال كامل كانت كافية لتفهم المضمون الذى يطرحه المخرج !

أحداث الفيلم تجرى فى بيرو ، بأمريكا اللاتينية . مدينة الغابات الطبيعية لشجر المطاط .. وفى ضواحى مدينة « اكوتيوس » حيث اختارتها عدسات المخرج ، قوارب قديمة يلعب حولها الأطفال العراة والخنازير . ويعيش وسط المدينة طبقة الأثرياء وهم ملوك المطاط والبارونات ، وفى هذا المجتمع المتناقض يعيش بطل الفيلم « فيتزجيرالد » ويحلم بالثقافة الغربية . إن رغبة بطل الفيلم العارمة والملحة تكمن فى تحقيق حلمه بالجمع بين مغنى الأوبرا العظيم « انريكو كاروزو » ومغنية الأوبرا المشهورة « سارا برنارد » فى غابة الأمازون لإحياء ذكرى فيردى !! ومن أجل تحقيق هذا الحلم الرائع فقد قرر « فيتزجيرالد » استغلال مساحة شاسعة من الأراضى المليئة بأشجار المطاط التى تقع وراء مساقط مياه « أوكايالى » التى لا يمكن تخطيها ، ولكى يتجنب عائق مساقط المياه ، يسلك بقاربه طريقا جبليا مستخدما دفع السفينة بواسطة بعض رجال القبائل على جذوع الشجر ، ويصل فى

النهاية إلى .. حلمه بفضل قبيلة الهندوس التى بهرها صوت أكبر مغنى فى ذلك العصر .. ونجح فيتزجيرالد فى تحقيق المستحيل !

وانتهى الفيلم ! وأضيئت أنوار الصالة ودخلت « الزهرة الجنون » والمخرج الألمانى هيرزوج . وبدأت المناقشات التى أغفلتها ، لأن كلوديا خطفت اهتمامى . وبدأ جمال كامل « يحبسها » فى فرخ من ورق أبيض !

كلوديا ، غجرية إيطاليا ناعمة ...

بشرتها البرونزية ، هدية شمس تونس لها ، عيناها تلمعان . تتكلمان . تحكيان عن فرح عاشته ، وأمل تحلم به ، وذكرى خاصة زارتها فجأة . ثم تسكتان ! تسكت شفتاها ؛ تختصران نصف ابتسامات نساء الأرض ! قال عنهما مورافيا بالمناسبة «لشفتيك لغة خاصة ، من يعرف مفرداتها يصل إلى الكنز المخبوء» ! كلوديا ، تصغى بكل جوارحها.

تجعلك تدمن الكلام ، لتحظى بهذا النوع من الاصغاء !

كلوديا ، بسيطة . أنيقة ، سخية . داهنة ! ضحكتها ، ضحكة طفل انتقل فجأة الى مرحلة الصبا والبلوغ ! صوتها أجش ، فيه بحة هى مزيج من الرفض والقبول ، والخجل والنداء !

كنت مازلت أركز «عدساتي» علي كلوديا وهي تدخن ، وكأنها تمارس متعة تداري بها «خوفها» من العيون النافذة والألسنة المتسائلة ! هذا هو فيلم كلوديا رقم ٦٠ ، ومع ذلك كانت تحاول اخفاء عصبيتها . النقاد فى إيطاليا لايعرفون ألف باء المجاملة . قسوتهم فى النقد كالمطارق الثقيلة تهوى فوق الرءوس بلا رحمة !

جاءنى خاطر مفاجيء فيه رائحة التعصب لكونى عربيا .. ان كلوديا تونسية المولد فيها مسحة عربية . هى فى النهاية ابنة الريح والتراب والصيف العربى الحار . ابنة همهمات الغرباء فى الدروب . وحفيف الأشجار فى الخريف وطنين النحل حول الأزهار . لابد أن عينيها تعى تونس . لابد أن مشاهد تونسية تسكن وجدانها . البيوت البيض ذات الأبواب والشبابيك الزرق . النخيل المتهادى فى كبرياء . الأزقة ، حيث الرجال يسرعون فى عباءاتهم البيضاء . موسيقى العود . خادم القهوة المرة . الفناجين المحلاة بالصدف . الدهاليز والأروقة . وفى فناء البيت التونسى نافورة تغرغر فى صمت وتفان !!

يا ترى هل نسيت كلوديا كاردينالى مسقط رأسها !؟

أبدا لم أنس شيئا من تلك التفاصيل الصغيرة . أذكر تونس ، رمالها . كثبانها . أشجارها . عصافيرها ، وحبات التين التى كنت أقطفها من فروع الشجر . وذلك السمك الصغير الذى كنا نصطاده ونشويه ونأكله ! تركت تونس وعمرى سبعة عشر عاما . فتاة حلوة .. كان لى ردفان كبيران ، وصدر كبير أخفيه دائما بحقيبة كتبى ! كانت بنات الحى يغرن منى ويقلن أنى « ساحرة » أجتذب الأولاد الصبيان بعيونى ! أول حب مراهق فى حياتى كان فى السادسة عشرة . ظللت أحب ابن ناظر المحطة فى تونس حبا صامتا .. وليلة أن بحت له بهواى المكتوم قبلنى ، وسافر فى اليوم التالى إلى أوروبا وانقطعت عنى أخباره ! والدى كان « محولجى » المحطة .

وأنا أكره صفارات القطارات لأنها دائما تذكرنى بالعويل وبالرحيل المفاجىء ! أذناى كبيرتان كما تلاحظ ، كان الصبيان فى تونس يقولون أن « كلو » وهذا اسمى الحقيقى قبل الشهرة . تضع « مراوح » فى رأسها ! كان مقدرا لى أن أكون مدرسة أطفال فى تونس لولا الصدفة التى لعبت دورا فى حياتى . مسابقة ملكات الجمال ، دفعونى إليها دفعا . توجونى « أجمل ايطالية فى تونس » . الجائزة تذكرة سفر بالطائرة إلى فينسيا . هناك كان « مهرجان سينما » . اختارتنى عيون خبيرة . رشحنى عمر الشريف للعمل معه . دارت العجلة . جئت إلى إيطاليا . سعت إلىّ الشهرة . لكنى رفضت أن أكون شيئا آخر . أحيانا عندما أرى صورى منشورة فى الصحف أو المجلات ، أنظر إليها وكأنها تخص أحدا غيرى !!

عندما تتكلم كلوديا ، يتكلم كل عضو فى جسمها الذى أزالت - بمضى الأيام - كل شحومه الزائدة . سألت كلوديا ، وكنا لا نزال فى « سينما فمينا » ، وقد انفض المؤتمر الصحفى بعد ساعة زمن : ماذا يقصد المخرج الألمانى هيرزوج بالسفينة التى أخذت مساحة من اهتمامه أكبر من دورك فى الفيلم ؟ قالت كلوديا بجدية شديدة (لم تغب ابتسامتها) :

أولا ، أحب أن تذكر قراءك باسم هيرزوج ؛ لأنه أهم مخرج فى العالم الآن ولا يقل شهرة عن المخرج اليابانى كرساوا . وكلاهما يشترك فى « نظرة » واحدة للحياة ، ووجهة نظر واحدة فى الفن . إنهما يعتقدان أن الحياة أصبحت مريرة ، وتعاش بقوة الدفع . ومن هنا ، هربا الاثنان إلى الحلم والخرافة والفانتزى ! لا أعرف إذا كان هيرزوج يرمز للسفينة بشىء ما . لكنى واثقة أن الرمز فى أعماقه ولا يستطيع التعبير عنه . تماما كما تسأل فنانا تجريديا ، ماذا يقصد بهذه البقعة من اللون الأحمر فى لوحته ؟!! لابد أن تعرف عن هيرزوج أنه لا يهتم بالأفراد . يهتم بالجماعات . يقول إن لغة الجماعة أصدق . يهتم بالطبيعة . يقول ان الطبيعة لا تكذب . يهتم بالمستحيل . يقول ان المستحيل يحرك طاقة التحدى الكامنة فى نفس الإنسان . يهتم بالحلم . يقول ان تحقيق الأحلام فى السينما يعوض الإنسان عن احباطاته فى تحقيق أحلامه اليومية !

وأنا - بالمناسبة - لا يهمنى حجم دورى . انهم يطلقون علىّ « الممثلة اللون » فى بعض الأحيان (!) لأنى أظهر فى بعض الأفلام كبقعة لون ساخنة فى لوحة كبيرة !!

قلت لكلوديا : لم أرك فى مصر ، عندما جئت ضيفة على مهرجان النقاد وكتاب السينما عام ٦٧ ولكنى أذكر أن زميلى الصديق كمال الملاخ سألك عن غيرتك من صوفيا لورين .. فقلت له : « نعم أغار منها » ، دعينى أسألك : مم تغارين ؟!

قالت « الزهرة الحنون » وقد سرحت قليلا وعبثت بشعرها « نعم أذكر هذا السؤال وأذكر اجابتى ، وقد كان زميلك أمينا فى ترجمة اجابتى القصيرة المحددة . فأنا لا أخفى غيرتى ! أنا امرأة ، قادمة من الشرق ، هل نسيت أن العاطفة جزء من النفس ؟ وعندما كنت أعيش قصة حب عارمة ، لم أكن أتردد فى القول « أغار من هذه الشقراء ... » ! أنا واضحة المشاعر . قلت مرة لحبيب عرفته « رفض أن يتزوجنى » خذنى فى قاربك نقضى يوما فى هذه الجزيرة البعيدة ودعنى أو دعنا نتوهم أننا زوجين ! أنا أغار من ذكاء صوفيا لورين فى

معاملة الناس ! إنها تطنش وتتنازل وتتجاهل .. وتكسب البشر ! أما أنا فساخنة فى مشاعرى وفى انتقاداتى ولا أخشى شيئا ! أغار من صوفيا لورين لأنها بجهد أقل تلمع ولا تغيب عن الشاشة العالمية . بينما انا أتعب وأتعذب واقرأ أدوارى حتى أكاد « أتحد » بالشخصية وأصاب بالجنون .

قلت للنجمة الايطالية الأولى : لماذا اخترت دور « عشيقة موسولينى » فى فيلم عن حياتها ؟!

قالت بحماس منقطع النظير : لأنها كانت تقف وراء كل تصرفات موسولينى الفاشية . كانت تدفعه للحماقة بنية طيبة ! كانت تتنفس حقدا من خلال الفاشى موسولينى . كانت السيدة كلارينا بتناسى عشيقة موسولينى شخصية قوية ، متعددة الوجوه ، فهى الناعمة والقاسية والحالمة والمتعجرفة والمتواضعة فى أن واحد !. لقد قرأت عنها كل ما كتب ، وذهبت أنا وزوجى الذى سيخرج الفيلم إلى كل مركز وثائق فى العالم يضم شيئا عن حياة موسولينى الخاصة التى اعتبرها دراما كاملة !!

سألت كلوديا ـ وكنا بعد فى السينما : هل عشت ـ ياسيدتى ـ تجارب حادة فى حياتك تمدك بهذه الطاقة من المعاناة ؟

فجأة غابت ـ لأول مرة ـ ابتسامة كلوديا وقالت بصوت منخفض كأنه صادر من « القرار » بلغة الغناء : « الحياة مغامرة . أنا ضحكت وبكيت . رقصت . وتعريت . تبعثرت ، وتمزقت واحترقت !» .

فى سيارة « الاختراع الايطالى الجميل » كلوديا كاردينالى ، أردت أن أعيد ابتسامتها لعيوننا وكان جمال كامل قد همس لى بأن كلوديا « عينان تبتسم ، وشفتان ترى » !!

قلت لها : لو جمعت كل ما كتب عنك ، فسوف أغزل منه ، عباءة حب تضعيها فوق كتفيك ! وضحكت كلوديا بسعادة وسألتنى ماذا قرأت ؟!

قلت لها : قرأت أن نجمك الايطالى المفضل مارشيللو ماسترويانى قال .....!

وقاطعتنى كلوديا وكأنها تحفظ ما قيل عن ظهر قلب : قال ماسترويانى « أخيرا عثرت على فتاة طبيعية بين المنافقين والمجانين الذين يحفل بهم عالم السينما ، فتاة لا تعرف الزيف !» .

واستطردت كلوديا تقول : « حاولوا فى هوليود أن يطبعوا منى طبعة مزيفة .. فقاومت ، أسمع: النساء فى أمريكا معطرات ومرسومات .. لا شىء يمت للصدق بأدنى صلة . ان هوليود باهرة ولكن بدنى يقشعر من بعض دهاليزها الرخيصة !

وقلت لكلوديا : « ان لى صديقة هى كاتبة عربية مرموقة أرسلت لى مرة كارت بوستال من هوليود فيه عبارة واحدة : عزيزى مفيد ، تستحيل الحياة فى هوليود ثديا جميلا يقطر سما » !

وصرخت كلوديا .. وقالت : تشبيه دقيق .. ثم قالت بالعربية التونسية « صح » !!

فجأة ـ ونحن فى السيارة ـ فى الطريق إلى بيتها ، الذى يحتل أحد تلال المدينة

روما ، أشرقت الشمس ، ففرحت كلوديا كالأطفال ، وقالت « أنا أعتبر الشمس فردا هاما فى أسرتى ، ليس عندى أجمل من سماء صافية تنبت منها شمس . تفتح الشمس ذراعيها وتضمنى بود . وأنا صغيرة كنت أترك نفسى لأشعة الشمس تعبث بى ، فى الشتاء ، كنت أستلقى على السطوح وأنتظر موعدها الدافىء . عندما جئت إلى روما ، أجلس خلف زجاج النوافذ أنتظرها . وعندما تغيب وتمطر السماء ، أشتاق إليها أكثر ، وأحبها أكثر ! حكايتى مع الشمس .. حكاية » !

« قلت لمعبودة الحب الجديدة » كما أطلق عليها الشباب الايطالى : سمعت أن الممثل الامريكى الراحل جون واين قال « اننى أجلب الحظ للممثلات الايطاليات فقد مثلت صوفيا لورين أول أفلامها الأمريكية أمامى وأرجو أن تفعل كلوديا ما فعلته أختها صوفيا » !

ردت كلوديا وقالت : تحققت نبوءة عمى العجوز الراحل !

قلت لها : وأعجبنى قول مارلون براندو !

فقاطعتنى وقالت : « قول براندو أحفظه لأنه كان نجمى المفضل قبل أن ادخل دنيا الضوء ولأنه بصورة خاصة يعجبنى كفنان . قال براندو كلاما يخجلنى أحيانا عندما أردده ! قال الملعون « انها تبدو هادئة وساكنة ، ولكن يكفى أن تلتقى نظراتنا حتى أصاب بهزة عنيفة » ، ولكى تغطى كلوديا الجميلة – رغم ربيع العمر ، ورغم أنها جدة – على خجلها ، عادت لتتكلم عن الشمس – العناق الوحيد الذى يسلبنى عقلى هو عناق الشمس . وإذا كنت « جميلة » كما يقولون ، فإن بشرتى لوحتها الشمس ورسمتها بعناية » .

بيت كلوديا كاردينالى ، فيه شىء من تونس ، وفيه لوحات ايطالية .. وفيه زهور وخضرة كثيفة تحتضن الغرباء ..

وكلوديا تعد لنا بنفسها « القهوة الايطالى » سألتها : هل صحيح انك يوم ما أثرت ضجة عندما ذهبت تقابلين البابا !

قالت كلوديا وهى تضحك : أتذكر هذه الواقعة فى عهد البابا الراحل بولس السادس ، كنت أرتدى فستانا فوق الركبة بقليل وعندما جئت أركع أمامه ، سارع البابا وجذبنى بحركة ودية ولم أشعر أنه تضايق . ولكن الصحف وجدتها « مادة » طريفة وقالت أن فستانى يعلو على الركبة بست سنتيمترات وكأنهم جاءوا وقاسوه بالمسطرة !!!»

وضحكنا ...!

جاءتها خادمتها ، تطلب منها نقودا تدفعها لمصور فوتوغرافى التقط لابنها باتريك أكثر من صورة أثناء عطلته الدراسية حيث يدرس فى أحد معاهد أمريكا .. وبحثت كلوديا عن حقيبة يدها وقالت بالعربية « فلوس .. فلوس » !

سألتها : ما احساسك بالنقود ؟

قالت بسرعة : « جعلتنى مستقلة رغم أنها السبب فى مشاكل كثيرة » !

قلت لها : كم عمر باتريك ؟

قالت : ٢٤ عاما .

قلت لها : وحفيدتك ..ما عمرها ؟

قالت : ثلاث سنوات ونصف !

قلت : ما اسمها ؟

قالت : كلوديا !!

قلت لها : انتاجك فى السنوات الأخيرة قل ، هل تلاحظين ؟

قالت « معبودة الايطاليين » : نعم ، لقد اتخذت قرارا بأن أبقى فى البيت « أطول » مدة .. لأنه فى النهاية مملكة الإنسان التى تشع عليه السعادة أو التعاسة .

لاحظت ان كل الصحف والمجلات الايطالية تقبع فى أحد أركان غرفتها الشبيهة بالاستديو ، فسألتها : ما علاقة الفنان بالسياسة ؟

قالت : نحن نعيش فى عالم متصارع ، ومن الضرورى أن يلم الفنان بحوادث التاريخ اليومية وهى السياسة !

قلت : هناك من اندفعت فى شارع السياسة بعنف مثل جين فوندا . وهناك من أصبحت وزيرة فى اليونان مثل ميلينا ميركورى ، وقد قابلتها فى احدى رحلاتى الصحفية إلى أثينا !

قالت كلوديا كاردينالى : أعتز بأنى فنانة لم « تغتصبنى » السياسة بعد ولا أظن انها قادرة على اغتصابى . أشرح لك الأمر ببساطة : إن كل انسان فى الحياة له تكوينه الخاص . فهذا بإمكانه أن يحقق جمع ملايين الليرات وذلك عاجز عن تحقيق مئات الليرات . انها قصة تكوين وسلوكيات ومقدرة خاصة . وفى السياسة ، مثل كل شيء ، هناك من هو « مؤهل » لعالمها ، وهناك من « لا يصلح لها » مطلقا مثلى !

قلت لكلوديا رأيت برنامجك التليفزيونى (موعدنا يوم الأحد) وأعجبنى فيه شيئين . الأول أنه برنامج استعراضى ذكى من خلال نجمة محبوبة فى العالم . الشيء الثانى ، إنه أى البرنامج يعاملك كملكة متوجة . كل فنان يأتى ضيفا ، يحكى عنك وعن جمالك وأفلامك ويقص ما تربطك به أو موقف ما لا ينساه لك ! ان كلوديا كاردينالى ، تعرف كيف تضع نفسها بذكاء شديد غير محسوب ، فى أجمل إطار !

ظلت كلوديا تضحك ضحكات الصبى البالغ حديثا وقالت : المرأة الذكية هى التى تنسيك دائما انها ذكية ، أليس كذلك ؟!

وهز جمال كامل رأسه بشدة موافقا بلا تحفظ !

« ك. ك » أى كلوديا كاردينالى ، لها آراء فى الحب والزواج !

مثلا ، قالت فى برنامج تليفزيونى على الشاشة الايطالية : ايمانى بالزواج ليس كبيرا ، لأنى إذا عشت مع انسان تحت سقف واحد وامتلكته ذهنيا وجسديا ، فسوف يموت الحب برومانسيته ! كيف الافلات من هذا المصير ؟ عندما يلتصق الانسان بإنسان آخر ، فإنه يفقد الرؤية الصحيحة ، ويغفل عيوب من يحب ، بل ولا يراها . لابد إذن من الرحيل ... المؤقت !

مثلا ، تقول كلوديا ردا على سؤال من جمال كامل الذى قال لها : « بعيدا عن العواطف السينمائية وقصص الحب المصورة ، كيف ترين الحب ؟!

قالت « معبودة الحب الجديدة » : إنه قلق معذب ، شيء غير مفهوم ولا معلوم ، ويجب أن تظل جذوة القلق مشتعلة ، يجب أن تكتشف في حبيبتك شيئا جديدا على الدوام ، لأنه في اللحظة التي ستعرف عنها كل شيء ، سيموت الحب !!

عندما قاطعت كلوديا ، لا لأختلف معها ولكن لأطلب منها تفسيرا ما ، قاطعتني هي وقالت :

بوصلاتنا قد تختلف في الرؤية ، ولكننا جميعا نتحرك على خط عرض واحد ، ونخضع لمغنطيسية اجتماعية وتاريخية واحدة !! أنت تعلم كشرقي ، إنه غير مسموح لامرأة شرقية أو حتى رجل شرقي أن « يطرح أعماقه » !

واستطردت كلوديا تقول بحماسها اللذيذ : هناك قولان لسارتر ، أحفظهما عن ظهر قلب .. واحد يقول فيه « اشتر أي شيء .. إلا لمسة حنان واحدة » ! والقول الثاني يقول فيه : « يجب أن يكون رأس الإنسان صلبا ، كي يميز في روما بين الدين والسحر »!

قلت لها وقد جلست كلاعب كرة بعد مباراة ناجحة : لمسة حنان واحدة ، كيف تشعرين بها ؟

قالت : في حالات الفرحة ، أحتفي بها من رجل أحبه . وفي حالات التعاسة ، افتقدها .. بكثافة ! والحنان ، مظهر الحب . أنا - مثلا - كنت في حاجة إلى حنان وأنا بعد حبيبة أكثر من الحب . واحد من أصدقاء والدي .. كان يعاملني بحنان ويشتري لي الشيكولاته ، مقابل قبلة وربما اثنتين ، وعندما كبرت ، فهمت أنه كان يستغل أنوثتي المبكرة !! الحنان ، هو القادر على زيارة مناطق في أرواحنا لم يدخلها إنسان قط ولا يدري بها أي مخلوق !

كان المعنى جميلا ، فصمتنا !

كان لابد أن أتطرق للحديث عن كاتب إيطاليا الأول « مورافيا الذي كتب كتابا عن كلوديا كاردينالي .. يحمل اسمها !

ان حوار مورافيا ، معك مثير وغريب ، إنه حوار وحشي ناعم . إن صح التعبير !

وأعجبها وصف حوار مورافيا ، وسألتني : بم خرجت منه ، كقارىء .. لم تلتق بكلوديا كاردينالي ؟!

واعتدلت في جلستي وقلت : لقد خرجت في الحقيقة بأكثر من انطباع ! كانت كلوديا كاردينالي تصغي بعينيها ربما قبل أذنيها !

استطردت أقول متلذذا بهذا الاصغاء الأنثوي الوقور : الانطباع الأول . ان مورافيا نفسه أديب إيطاليا الكبير وواحد من كتاب العالم المرموقين ، معجب مجنون بدرجة كاتب روائي ! الانطباع الثاني : انه أراد أن يحلل جمالك كامرأة بنفس مهارة طبيب يشرح جسد امرأة .. أو نحات ينحت جسدا لامرأة عارية ! الانطباع الثالث أنه أراد أن يجعلك رمزا .. للأنثى والوقار ، وهي معادلة يندر وجودها في نساء زماننا . الانطباع الرابع - باقليمية شديدة - أراد أن يقول أن تحت سماء إيطاليا موهبة لامعة ، صارخة الجمال ، مثقفة . أي ببساطة أراد أن يقول هنا في إيطاليا دون أي بلد أوروبي . امرأة تضرب على أوتار أعصاب أي رجل !! هل أخطأت التحليل !!

قالت « زهرة الحنون » : لا لم تخطيء . اني اشعر بالخجل عندما يبالغون تصوير جمالي لا أظن أني مارلين مونرو ، بأنوثتها الجنسية الصارخة ، ولا أظن أني « ب .ب » بفتنتها الطاغية التي صنعت في فرنسا !

قلت لكلوديا : لقد أراد مورافيا أن يقول ان مواهبك كامرأة « تحت الجلد » . انها الدفء والحنان الفياض والأنوثة الغامرة بمعناها الواسع !

قالت « معبودة الحب الجديدة » : لم أفكر يوما ما أن أحتل عرش الاغراء . فأنا - بكل المقاييس - لست ممثلة اغراء !

قلت لكلوديا وأنا أنتهز فرصة سخونة الحوار : إن مورافيا يتغزل غزلا وقحا ولكننا لا نراها « وقاحة » ، لأنها صادرة من كاتب كبير له قراؤه وجمهوره وسمعته !

مثلا انه يصف شعرك بقوله : « إنه شعر خجول تسير تموجاته مع خطوط جسدك » . إنه يصف أنفك بأنه « أنف صغير ولكنه مميز وذو شكل كلاسيكى تمتزج به شهوانية عصرية » ، وفمك مرفوع كفم النساء اللاتى كان يرسمهن « ميكائيل أنجلو » ، ويصفك فى موقع آخر بأنك تملكين شيئا من الوحشية البدائية تماما مثل موديل أنجلو من القرويات » ! ويصف ضحكتك بأنها تنفجر لتخفى أنوثتك المتيقظة دائما » . ويصف صدرك بأنه « مرتفع وثابت ومرسوم بعناية » ويصفك وأنت تسيرين « إن مشيتك الغريبة لها شخصية بسبب أردافك الممتلئة بعض الشىء . ان هذا علامة مميزة لجسدك » ! ويتوقف عند ساقيك فيقول : « إنهما نحيلتان وقويتان والعلاقة بين الركبة والفخذ ، علاقة ناعمة ولا نفور بين الاثنين » !

قالت كلوديا كاردينالى بخجل شديد : « نعم ، حدث هذا الحوار وقد قال مورافيا بعد أن مثلت له فيلم « اللا مبالون » اننى استنطقت جسدى الأخرس ! إن أعمال مورافيا تناسبنى . إنه يقوم بعملية تشريح لا مثيل لها ، إنه يعرى الأشياء .. يفضح العلاقات .. يصدمك دائما !! إن كاتب « السأم » و« فتاة من روما » هو أقرب إلى الطبيب الجراح منه إلى .. الروائى !! إنه الكاتب الوحيد فى العالم الذى تهزه « عدالة الإنسان نحو الحيوان التى تفوق عدالته مع أبناء جنسه » . انه الكاتب الوحيد الذى يرى أن « الجنس هو تاج الحب » ! إنه الكاتب الذى يقول للمرأة « تنفسى كأنثى . تصرفى كأنثى وإلا كنت حية .. ومحنطة » ! .

وسكتت كلوديا لتقول : بعد فيلم ٨١/٢ للمخرج العبقرى فيللينى ، قال مورافيا : « ولدت ممثلة تستطيع ايطاليا أن تصدرها للعالم ، وبدأ اهتمامه بى » . يكفى أنه وقف بجوارى فى وقت كادت بعض جراحى الخاصة أن تقتلنى وتهبط بى إلى الدرك الأسفل . يوم قلت عن ابنى انه أخى لأخفى حبا . يوما نشرت الصحف وثيقة زواجى دون علمى ! لم يكن كاتبا ، كان صديقا كبيرا . ومازال !

جهاز التسجيل هوالآخر « يحتفى » بصوت « معبودة الحب الجديدة » كلوديا كاردينالى . هذا هو الشريط الثالث الذى أغيره .

وربما يضم هذا الوجه من الشريط الثالث ، ملامح تكمل بقية اللوحة التى حاولت أن أسافر فى أغوارها !

تقول لى كلوديا كاردينالى : ماذا جرى للرجال ؟ فى الماضى كانوا يحدقون فى صدر المرأة ، ثم تحولت نظراتهم الى سيقانها بعد أن كشفت الموضة عن مفاتن الركبة ، ولكن المثير حقا أنهم أصبحوا ينظرون الآن الى وجه المرأة تقول لى : « الاختراع الايطالى الجميل » : وأنا أمثل ، انسى كلوديا ، وأعيش الشخصية ، لدرجة أنى فى ريو دى جانيرو بالبرازيل ، اشتعلت فى أصابعى النار وأنا أشعل عود كبريت لسيجارة فى فم حبيب غادر ! أشعلت العلبة كلها .. وأنا أسأله : لماذا غدرت بحبى .!!

تقول لى « النجمة الايطالية الأولى » : كنت سعيدة بعد أن مثلت مع تونى كيرتس فيلم (لا تكن متقلبا) الذى كان يتحدث عن مجون الشباب الأمريكى وموجات هوسه وقلقه . مبعث سعادتى أنى استخدم « الصورة » فى كلمة حق تقال .. بلا مباشرة !

تقول لى الجميلة (ك. ك) : لقد بعت يوما مذكراتى لمجلة جور دى فرانس .. الفرنسية مقابل خمسة آلاف استرلينى ، لأنفق على نفسى وأعيش بكبرياء !

تقول لى كلوديا (الأنثى الوقور) : انام ٨ ساعات . وأحب الجرى . ولا أثق بسرعة فى الناس ، وأتعامل معهم بحذر . ولا أكره فى الصحافة مثل هبوب زوابعها عند زواج أوطلاق أو حب ممثلة . كأنها ليست امرأة وإنسانة ، لها قلب ينبض مثل سائر الناس !

تقول كلوديا « الجدة والزوجة » : لا أريد أن أقحمك فى مشاكلى الخاصة .. كزوجة ، فأنا قد عشت حياتى دون أن أصنع احساسى يوما ما ، بالزيف . هذا يكفينى !! هذه الشجاعة من امرأة ، ليست مستحبة دائما . الرجال يخافون من هذا النمط البشرى . يقولون عنه انه « متحرر للغاية » . حتى أنت من الممكن أن تقع فى هذا الخطأ !

تقول كلوديا الايطالية عن روما الجميلة : « فى روما .. تسافر الحضارات إليك وتقبع فى أروقة المتاحف والمعارض .. تنتظرك » ! وأنا أحب روما لأنى من عشاق « الأمكنة » .

أعترف لكم أن « اختراع إيطالياالجميل » كلوديا كاردينالى (٤٣ ربيعا) لا تضرب على أوتار أعصاب الرجل كما قال مورافيا .. ولكنها « تغازل » العقل أيضا !



فهرست

الصفحة

رقم الايداع ٩٢/١٠٣٧٣
I. S. B. N
977. 08 - 0419 - 3

« مواقف »

ليس الصحفي البارع الصديق مفيد فوزى في حاجة الى دليل جديد يؤكد اقتداره على فن الحوار .. فهو دون ان يدرى من ألمع تلاميذ استاذنا العظيم سقراط .. استاذ اساتذة الحوار الفلسفي في كل العصور .

وكان سقراط وهو ابن « داية » يقول انه يمارس مهنة والدته في الحوار .. فهو يولد الافكار من عقول الذين يحاورونه .. وكان يؤمن بان كل المعاني موجودة في عقل الانسان .. وانه ـ بالحوار ـ يذكره فقط بهذه المعاني التي يعرفها .. فهي موجودة هناك .. اجنة تكبر وتتهيأ للولادة ..

والصديق مفيد فوزى رئيس تحرير صباح الخير قد صدمنا ببراعته في الحوار في التليفزيون وفي الاذاعة في محاوراته وشقاوته الصحفية .. وفي الاحاديث التي اجراها معي عن الرئيس السادات ، قد استدرجني وزحلقني وقاومت وحاول هو ايضا .. ولكني لم أقل إلا ما اردت ان اقول وإلا الذي يصح ان يقال .. وإلا القليل جدا مما اعرف !

واعترف بان مفيد فوزى كان امينا في كل ما كتب . وهو نموذج للفنان الذي يعشق عمله والذي يحرص على سمعته المهنية والفنية . فلم يضع على لساني ما لم اقل . وكانت براعته في ان اشار الى الوقوف المفاجئ والهبوط الاضطراري في كل الانطلاقات الخيالية والوجدانية ..

وقد سألني عن الكثير جدا .. واجبته الى كل ما طلب . المهم انني اجبت بكلمة او بمائة كلمة . ولكني اجبت .

ولابد ان الذي يؤرخ للعظماء ـ لانهم عظماء ـ سوف يجد صعوبات كثيرة . من بينها ان اكثر الذي يعرفه شخصي . والعهدة على المؤرخ والثاني انه لا يوجد عندنا « توثيق » لكل ما يدور بين العظماء والمقربين منهم .. ولا حتى بين هؤلاء العظماء ومن يلفونهم من العظماء الآخرين او كبار المسئولين ..

ولذلك فالذي يؤرخ لعظمائنا يعتمد اولا على ثقة القارئ فيه هو .. فإما ان يصدقه وإما لا يصدقه . وهي مسألة كما ترى اخلاقية . مسألة ضمير المؤرخ الذي تربطه صلة شخصية بالرجل العظيم . وبمنطق الأحداث او منطق الشخصية ..

ومن المؤكد انني مستريح الضمير لهذا القليل الذي قلت ومفيد فوزى كذلك !

أنيس منصور

الأهرام ٢٦ يوليو ١٩٩٠

٧ جنيهات